رامي السلقيني
رواية
عزرائيل
المدينة
"الجزء الاول بصمة الموت"

# عزرائيل المدينة

" بصمة الموت"

الجزء الأول

رواية

# عزرائيل المدينة

رامي السلقيني

تصميم الغلاف: (القسم الفني بدار غريب)

رقم الإيداع: 2019/1999

تدمك: 978-977-463-378-5

الطبعة الأولى: 2019

مواصفات الكتاب: 255 صفحة، مقاس: 14×20

12 شارع نوبار من ميدان لاظوغلى - القاهرة

تليفون: 0227942079

فاكس: 0227954324

مكتبة: 0225917959

darghareeb1@hotmail.com

www.darghareeb.com

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة ©

رواية

# عزرائيل المدينة

## الجزء الأول: بصمة الموت

رامي السلقيني

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع

# الإهـــــداء
# لهم من القلب

أمي ..

محبوبتي الأبدية، والسيدة الأولى في حياتي.. أنتِ جنتي على الأرض وملاكي الحارس.. لا أملك إلا أن أدعو الله أن يجمعنا عما قريب حيثما أراد..

أبي ..

مثلي الأعلى وقدوتي، وأستاذي الذي سأبقى أستفيد من خبراته وإن بلغ بي الكبر عتياً..

طفلك الشقي الذي أتعبك يوماً يُهديك روايته الأولى.

أنتما أهم شخصين في حياتي، والأكبر مكانة في قلبي،أعرف أنه لا يمكنني أن أرد جميلكما ما حييت، ولكني سأحاول!

# إهداء مِن القلب ...

إلى أسماء علاء الدين ..
صديقتي المخلصة، وأول من قرأ رو ايتي..
أنتِ عملة نادرة في أيامنا هذه..
شكراً على تشجيعك المستمرودعمك المتواصل..

إلى محمد ..
أخي الرابع، وكبسولة المزاج التي تشكلت على هيئة إنسان، ورفيق المخططات المستقبلية السرية..
مُمتن لوجودك في الحياة..

إلى عبد الباسط ..
الذي طابق جنونه جنوني..
شريكي في الجريمة، وصديقي الصادق الصدوق، الذي كان صديقاً حقيقياً منذ أول مرة وحتى الآن..

إلى كل قارئ تمنى لو أنه وجد إسمه في صفحة الإهداء..
هذا الكتاب لك أنت ..

# كلمة شُكر ...

إلى الأستاذة الكاتبة والروائية هناء عودة ..

بعد كل الشكر على كونك أفضل كاتبة وروائية ومحررة ومدققة لغوية يأمل بها أي كاتب..

أريد أن شكرك على الإنسانة الرائعة التي أنت عليها، وتعاملك الراقي ولطفك الشديد مع الجميع..

شكراً من القلب ..

فأمثالك قليلون يا عزيزتي...

على أعتاب مدينة الرذيلة
تربعت لوحة ترحيبية كلماتها قليلة
كُتِبت بالدمْ
بيد روحٍ مذنبةٍ صار لها الشيطان خليلاً
وتسري في عروقها حُمَمْ
كانت تقول:

**" الجحيم يرحب بكم "!**

# الفصل الأول

## الجحيم يُرحب بكم!

الساعة تتجاوز الثانية عشر بعد منتصف الليل، الشوارع خالية إلا من رجال الظلام، هؤلاء المتشحون بالسواد تحت ستار الظلمة ليفعلوا ما يحلوا لهم، الريح تعوي بصوت مسموع، الصحف تطير على شكل دوائر مرتطمة بالأسفلت وجدران المنازل كما لو أنها عالقة في غسالة كهربائية غير مرئية، الأشجار تهتز بعنف، وأضواء الشارع ذاتها ترتجف من البرد القارص.

في ذلك الشارع الفرعي من المدينة التي خلدت للنوم منذ زمن طويل كان ذلك الشاب يتمشى على مهله، في أواخر العشرينات من عمره، ذو شعر طويل ناعم، ويرتدي معطفاً جلدياً طويلاً يخبئ تحته بذلة رسمية فخمة، لو رآه أحد سكان هذا الشارع لنصحه بالعودة لمنزله على الفور، فهذا المكان ليس آمناً على الإطلاق، إنه ليس آمناً حتى في النهار!

تلك البذلة التي تحت المعطف الذي يرتديه الشاب لوحدها قد تتسبب في مقتله، هذا إن تناسينا الساعة التي يكفي ثمنها لشراء نصف هذه الحارة دون مبالغة، وصوت خطواته في حذائه الإيطالي يهدده بالموت كلما لامس كعب الحذاء الأرض، لا يبدو الشاب مهتماً بكل ما سبق، بل يبدو واثقاً من نفسه وهو يمشي في حارة لا يثق فيها الأخ بأخيه، يمشي ويعرف طريقه جيداً، يمسك بيده برسن معلق برقبة كلب أسود من سلالة الراعي الألماني الشهيرة، قد يعتقد الذي يراه ومعه الكلب أنه يحتمي به، ولكنه لا يعلم أن الكلب يحتمي بصاحبه في مثل هذه الحارات الضيقة!

على ناصية الشارع يقف رجل في أواخر الأربعينات من العمر، يحمل في يده اليمنى مسدساً صدئاً، وفي يده الأخرى زجاجة كحول فارغة بدا أنها الآن تسري في عروقه

عوضاً عن الدم، كان الشاب يمشي متجهاً نحو الرجل ذي المسدس دون أدنى خوف، رمى الرجل بزجاجة المشروب على الأرض أمام الشاب في الوقت الذي كان يوشك على أن يتجاوزه فيه، ثم إقترب من الشاب ببطء وحذر ليتأمله بعينين زائغتين لن يميز بهما إبنه من زوجته عندما يعود لمنزله.

- أخرج كل ما في جيوبك!

قالها الرجل في تهديد، رمقه الشاب بثقة، فرأى الشياطين تتقافز في عينيه، وكل هذه الكمية من الكحول جعلته عاجزاً عن الوقوف بإستقامة، كان يرتجف بقوة، ولكنها ليست رجفة برد، هذه رجفة سُكر.

سكران، والسُكر كلمة قليلة عليه، رائحة المشروب المريعة تفوح منه حتى يكاد سكان الشارع أن يغلقوا نوافذهم ليمنعوا دخولها إلى منازلهم، يصارع للحفاظ على توازنه، قدماه لا تستجيبان له، وكأنهما تحولتا إلى قطعتي هلام من تحته، وأصابعه لم تكن في حال أفضل، يحاول التمسك بمسدسه بصعوبة ولكنه لا ينجح رغم محاولاته، دماغه يرسل إشارات إلى جسده ليحذره من التورط مع الشاب ذي المظهر البريء الذي يقف أمامه، ولكن جسده المخمور كان يرفض الإنصات!

سأله الشاب بإهتمام مُصطنع:

- ألم تعرفني؟

- لم أعرفك، ولا يهمني أن أعرفك

إرتسم شبح إبتسامة على طرف شفتي الشاب دون أن يرد، وفي تلك اللحظة، حاول الكلب الهجوم على الغريب الذي يحاول سرقة صاحبه، ولكن الشاب شد رسنه في اللحظة الأخيرة فأوقفه، فهو ليس في مزاج يسمح له برؤية كلبين يتصارعان في هذا الوقت المتأخر من الليل، فصاح بكلبه بعصبية أخافت الرجل الذي يحاول التظاهر بالصلابة:

- إجلس!

جلس الكلب على الأرض وهو يطلق زمجرة إستهجان فيما رفع الشاب رأسه لينظر للرجل الذي كان يرتجف كورقة شجر في عاصفة هوجاء:

- أحقاً لم تعرفني؟

قالها الشاب ببساطة، متناسياً المسدس المصوب نحوه، ودون إكتراث لكل تلك الشياطين التي " تتقافز " في عيني الرجل، ولا ننسى كمية الكحول التي شربها، كل هذه المكونات ستكون وصفة ممتازة لجريمة قتل مجهولة الفاعل، في شارع فرعي في قلب حارة يفضل سُكانها إخفاء جُثته في ثلاجات بيوتهم على أن يسمحوا للشرطة بدخولها للتحقيق في جريمة القتل!

- لم أعرفك، أعطني ما معك بسرعة.

إبتسم الشاب، واقترب قليلاً من الرجل، ثم همس في أذنه:

- سأحاول إنعاش ذاكرتك قليلاً

إبتعد الشاب عن الرجل بعدها، ومد يده لجيب معطفه فتأهب الرجل متحفزاً بسرعة وهو لا يعرف ما قد يخرجه من جيبه، مرت ثوان من التوتر، والرجل يراقب دون أن ينبس ببنت شفة، ويصوب مسدسه نحو الشاب في الوقت ذاته ولكنه عاجز عن تثبيت يده بالقدر الكافي.

أخرج الشاب يده من جيبه لنجده يحمل قفازاً إرتداه بخفة في يده اليمنى، ثم أسرع بخطوة واحدة نحو الرجل وأمسكه من تلابيبه بيده اليسرى، وأمسك بالمسدس بيده المغطاة بالقفاز، ولم يكن صعباً عليه أن ينزع المسدس من بين أصابع الرجل المرتجفة، وجه الشاب المسدس نحو الرجل لتتلاقى أعينهما مع بعضها للمرة الأولى، كانت عيناه تحملان نظرة باردة، فاقدة لبريق الحياة، وكأنه ينظر في عيني جثة تتحرك!

وكذلك كانت هناك نقطة مهمة أخرى في عيني الشاب، فقد كانت عيناه غريبتان للغاية، فقد كان يملك عيناً خضراء وأخرى زرقاء!

دَبَ الرعب في قلب الرجل لرؤيته لعيني الشاب. وتحفزت كل عضلاته دفعة واحدة والدم يندفع لدماغه محاولاً فهم المصيبة التي أوقع نفسها بها، وانحنى بسرعة ممسكاً بقدمي الأخير متوسلاً:

- أرجوك لا تقتلني، أرجوك.

- أتذكرت الآن من أكون؟

أجابه الرجل في ذُعر واضح:

- بالتأكيد، أنت عزرائيل!

إبتسم عزرائيل بسعادة لإجابته:

- أحسنت!

ودفع عزرائيل بالرجل بعيداً بقدمه بقوة ليسقط على الأرض، ثم رفع مسدسه موجهاً إياه للرجل مباشرة قبل أن يطلق رصاصة أصابت ركبته لتجعله يصيح من شدة الألم، ويبدأ ما يشبه سيمفونية من الصرخات الموجوعة على الأسفلت.

رمى عزرائيل بالمسدس على الرجل الذي يتلوى من ألمه قائلاً:

- هذا سيعلمك ألا تنسى من هو عزرائيل مجدداً!

وأمسك برسن كلبه وجذبه متابعاً المشي في الشارع المظلم وكأنه لم يفعل شيئاً، وكأنه لم يجعل رجلاً بطول الجدار يَخِر راكعاً تحت قدميه لمجرد رؤية الإختلاف في لون عينيه، وفي عينيه اللتين تحملان لونين مختلفين نظرة توحي بالثقة التي تتجاوز الغرور بمراحل عديدة، توحي بأن هذا الشاب موجود ليخيف، ولكنه لا يخاف، وكيف لعزرائيل أن يخاف؟

لو رأيته من بعيد، لوجدت شكله يصرخ بحقيقة أن هذا الرجل هو الموت مُجسداً يمشي على قدمين، يصرخ بك أن إبتعد بأسرع ما يمكنك، فهذا الرجل عبارة عن قنبلة فراغية موقوتة قد تنفجر بك في أي لحظة، لترسلك، دون عناء، إلى المكان الذي كنت تهرب منه طوال حياتك.. الجحيم!

فهذه المدينة هي الجحيم الحقيقي، حيث ستأتي لهذا المكان لتعاقب على ذنوبك السابقة بأن تقوم بمعاقبة الآخرين فيما يقومون هم بمعاقبتك في الوقت ذاته!

هي جحيم في عقل عزرائيل!

لأنه إن كان الجحيم موجوداً على الأرض، فهو على الأرجح سيكون قابعاً داخل رأسه، فكمية الشياطين التي فيه تفوق العدد الذي في جهنم!

سندخل في رحلة في عقل أكثر الأشخاص العاقلين جنوناً، وأكثر المجانين حكمة، سنعيش بعضاً من تفاصيل حياة المجرم الأكثر براءة، والبريء الأكثر ذنباً وخطيئة، في قلب مدينة من نوع خاص للغاية، حيث تسمع عن الحكومة والشرطة وتراهم بين الحين والآخر، أي أنهم موجودون، ولكنهم لا يؤدون أي عمل على الإطلاق، يمكن أن يمر الشرطي في وقت عمله بجوار رجل يغتصب امرأة دون أن يتدخل، بل على العكس، ربما يقترب ليشاركه في العملية متناسياً قَسَمه المزعوم!.

السجون للمجرمين الصغار فقط، لصوص الغسيل، والنشالون، والمتحرشون، ولكن يبدو أن سجون هذه المدينة لا تتسع للقتلة واللصوص الكبار أو المغتصبين!

لتقريب الفكرة، وكمثال، في بقية المدن يحتفلون بالهالوين في يوم واحد من السنة، يضحكون ويمرحون طوال النهار، ويلبسون ملابس سخيفة على إعتقاد أنها مخيفة، ويجرون في الشوارع بسعادة، يرتدون أزياء شيطانية ثم يدورون على جيرانهم والأحياء المجاورة طالبين الحلوى بكل غباء، وكأن الشيطان لو تجسد على الأرض ليوم واحد، فإن أول عمل سيقوم به هو أنه سيأتي ليطلب الحلوى من أتباعه الفانين، وكأنه سيأتي بعباءته السوداء المهيبة إلى منزلك ليدق على الباب بأدب جَم، وعندما تفتح سيبتسم في وجهك وهو يقول:

- حلوى أم خدعة؟!

يا للسخافة!

أما عن هذه المدينة فالحياة تسير بشكل مغاير لما هي عليه في أي مكان آخر، حيث أن كل آمالك وتوقعاتك المتعلقة بهذا اليوم ستتحطم على عتبة الأحقاد والدماء التي تلطخ كل شارع من شوارعها.

ففي هذه المدينة بالذات، كل يوم هو عيد الهالوين!

الهالوين غالباً ممتع، سنتظاهر بأننا وحوش كنوع من التسلية، وكمحاولة لإخافة الآخرين، ولكن الحياة تسير هنا بشكل مختلف، حيث ستجد الوحوش ذاتها في زاوية غرفتك وهي ترتعد من شدة الرعب، إن دخلت هذه المدينة فإحذر!.

فأنت لن تتوقع ما قد يحدث لك، ربما تفيق من نومك لتجد الظلام الدامس من حولك، ثم تكتشف أنك في قبر، وأن هناك شخصاً راهن أصدقاءه على دفنك وأنت حي لمجرد المتعة!

وقد تتقمصك روح المدينة العريقة، لتتحول من بعدها لأحد سكانها، هؤلاء الملاعين عديمي الشفقة، يخبؤون قرونهم تحت قبعاتهم، ولا شك من أن إبليس بذاته سيخاف مما تحويه رؤوسهم من أفكار أقل ما يمكن أن توصف بها هي أنها مرعبة!.

هذه المدينة هي نقطة من نقاط إرتكاز الكون، لأنها تحوي التوازن اللازم لإستمرارية الحياة، الأبيض والأسود، ين ويانغ، الخير والشر، ولكن بفارق بسيط، وهو أنها تحوي كل شرور العالم، والسواد الذي فيها يكفي ليعيش العالم بأسره في غياهب الظلمة.

كان صوت خطوات عزرائيل الواثقة على الأرضية المبللة مُنذراً بالخطر، ومبشراً بالبؤس، يحوي من الرعب والتهديد بقدر ما يحوي من الثقة، فهو ليس بشرياً عادياً، هو عزرائيل، بشحمه ولحمه!.

فلتكن هذه العبارة مرجعكم في حال إستغربتم من أفعاله..

فأفعال عزرائيل غالباً ما تكون مستهجنة ومدعاة للدهشة والإستغراب، إنه العنقاء التي بعثت من قلب الرماد الأحمر لتثأر من الجميع، تزأر بأعلى صوتها بصوت أقرب

للنعيق، كأخطر صيحة تحذير في التاريخ، فبعدها ستحرق بنيرانها المدينة بأسرها، ليجلس عزرائيل على أنقاضها، ويشعل سيجاره الكوبي من ركام منزلك المحترق!

في كل ليلة، كان يحلم بيوم يعرف أنه قادم لا محالة، حيث سيأخذ هذه المدينة بأسرها إلى موعد لن يكونوا قادرين على تأجيله، ليريهم الشر المطلق، ويجعلهم ينظرون في عيني الشيطان مباشرة..

سيكون موعداً مرعباً، مهيباً..

وعندما ينتهي هذا الموعد، سيعلق لافتة ترحيبية مختلفة في مدخل المدينة، ليحذر الجميع من الدخول إليها مهدداً إياهم بالموت المحتم والعذاب الأبدي إن خالفوا التحذير، على اللافتة سيكتب بالدم:

الجحيم يرحب بكم!

**********

# الفصل الثاني

## العشـاء الأخيـر

الإثنين ١٩ نوفمبر ١٩٨٢م.

كان الجو متجمداً، والثلج يغطي سقف ذلك المنزل الكبير الذي يقف عزرائيل أمامه مباشرة، ينظر لساعته وكأن الوقت لم يحن بعد، ينتظر بصبر، ثم يمد يده ويدق ثلاثة دقات مهذبة على باب المنزل.

دقيقة ويفتح رجل في أواخر الخمسين باب المنزل، وينظر للغريب الذي جاء ليزوره في هذا الوقت بإستغراب، يمد عزرائيل يده للمسدس خلف ظهره ويمسك به وعيناه مصوبتان للرجل في الوقت الذي يعلو فيه صوت فتاة صغيرة وهي تنادي من الداخل:

- بابا، العشاء جاهز

رد الرجل على الفتاة دون أن يزيح عينيه عن عزرائيل:

- أنا قادم يا عزيزتي

يسأل الرجل عزرائيل بشيء من القلق:

- هل يمكنني مساعدتك بشيء يا سيد؟

أرخى عزرائيل يده القابضة على المسدس ، وابتسم للرجل وهو يرد بلباقة:

- بالطبع، يمكنك أن تدعوني على العشاء.

يبدو الإستغراب على الرجل لهذا الطلب الغريب، يسأله:

- عفواً، ولكن هل تعرفني لتطلب مني طلباً كهذا؟

يومئ عزرائيل برأسه بالإيجاب وهو يرد:

- أنا أعرفك جيداً، ولكن يبدو أنك لا تعرفني!

يمد عزرائيل يده المفتوحة للرجل فيمد الأخير يده بدوره ويصافحه، يجذبه عزرائيل نحوه بحدة ويتابع:

- أنا عزرائيل، وهذا عشاءك الأخير!

إتسعت عينا الرجل بمزيج من الخوف والدهشة، وهو يبعد يده بعنف لينهي المصافحة، ولكن عزرائيل يشد يده أكثر ليمنعه من الإبتعاد، ويقترب منه أكثر، هامساً في أذنه:

- والآن ما رأيك في أن تدعوني إلى الداخل، لتتناول عشاءك الأخير مع عائلتك، ومعي، بدلاً من أن أقتلك على الفور، وفي مكانك هذا يا عزيزي؟

تجمد الرجل مكانه دون أن يعرف ما يجب أن يقوله في موقف كهذا، ولكن عزرائيل كان أسرع منه، فأزاحه عن الطريق، وتحرك بخفة ليصبح داخل المنزل بخطوة واحدة، إستدار نحوه بعدها وابتسم في وجهه:

- أعتذر، ولكن السكوت علامة الرضا!

أغلق الرجل باب المنزل ببطء وعقله يعمل بأقصى سرعة، محاولاً فهم ما حدث للتو، وكيف أصبح هذا الغريب في منزله، بعد أن هدده بالقتل في ثالث عبارة قالها في الحوار القصير بينهما.

وقف الرجل مكانه دون أن يستطيع الحراك، وساد الصمت لثوان، قبل أن يكسر عزرائيل السكون وهو يسأله بإهتمام:

- والآن، ماذا لدينا على العشاء؟

**********

إلتفَّت العائلة بأكملها حول السفرة، الرجل إياه، وزوجته، وإبنته الصغيرة، وإبنه الشاب إبن العشرين ربيعاً، وبصحبتهم ضيف ثقيل، عزرائيل.

كانت الزوجة متشككة من هوية الضيف الغامض، الذي لم يخبرها زوجها عن قدومه على العشاء الليلة، فما كان منها إلا أن سألته:

- لم تقم بتعريفنا على ضيفك يا "جلال".

لم يعرف جلال كيف يرد على سؤال زوجته الذي لا يعرف هو نفسه إجابته، ألقى نظرة باردة على عزرائيل الذي إبتسم في وجهه بثقة بالغة..

- هذا صديقي!

سكت جلال دون أن يعرف كيف يتابع، فأكمل عزرائيل جملته سريعاً:

- أنا "زين"

رمق جلال عزرائيل في حقد، محاولاً عدم إظهار مشاعره أمام عائلته قدر الإمكان، ولكن عيناه كانتا تفضحانه، وعندها إنتبه للمرة الأولى لعيني عزرائيل الغريبتين، لم يكن يعرف كيف لم ينتبه لهما قبلها، ولكنه لاحظهما الآن، فعيناه مختلفتا اللون، لاحظت ابنة جلال الصغيرة هذا الأمر كذلك، فلم تستطع إلا أن تبدي إعجابها بعينيه:

- عيناك جميلتان جداً يا سيد "زين"!

حدج جلال إبنته بنظرة غاضبة لتبادلها الحديث مع الرجل الذي ينوي قتله في نهاية هذه الليلة، فتراجعت الصغيرة بمزيج من الضيق والحيرة وسط إستغراب الزوجة من ردة فعل جلال العجيبة بسبب سؤال بسيط لا يقدم ولا يؤخر، بل ويعد نوعاً من الإطراء على ضيفه..

لم يهتم عزرائيل بكل ما يحدث حوله، نظر للفتاة وابتسم في وجهها مجيباً:

- شكراً يا عزيزتي، ولكن عينيكِ أجمل بكثير

أخفضت الصغيرة رأسها بخجل، متحاشية نظرات أبيها وعزرائيل في الوقت ذاته لأسباب مختلفة، فيما إختفت الإبتسامة التي ظهرت على وجه عزرائيل دفعة واحدة، ليتابع تناول طعام العشاء بإستمتاع واضح.

ألقى عزرائيل نظرة على إبن جلال الشاب، الذي لم يبدو أنه مهتم بالحوار الذي يدور على المائدة، فسأل جلال بشيء من الإهتمام المصطنع:

- ومن هذا الشاب الوسيم؟

أجابه جلال بتوتر شديد:

- هذا ابني "هاني"

- "هاني"، يا له من إسم جميل

إبتسم هاني إبتسامة صفراء في وجه هذا الضيف ثقيل الظل، وأجابه بملل:

- شكراً

دس عزرائيل قطعة من اللحم في فمه، وأخذ يلوكها ببطء قبل أن يسأل هاني مجدداً:

- أخبرني يا هاني، هل تحب والدك؟

أجاب هاني بتلقائية:

- بالطبع، فهو أبي

هز عزرائيل رأسه نفياً، وهو يبتلع اللقمة التي في فمه:

- ليس الجواب الذي أبحث عنه!

**********

دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل في الوقت الذي كانت الزوجة تنقل الأطباق من على السفرة إلى المطبخ، بمساعدة إبنتها الصغيرة وهاني، وظل جلال وعزرائيل على الطاولة متجاورين، يلفهم الصمت المطبق.

مد عزرائيل يده لجيب معطفه الداخلي، فتشنجت كل عضلة في جسد جلال دفعة واحدة، وكأنه إستشعر إقتراب الموت..

- لا تخف

قالها عزرائيل وهو يخرج من جيبه علبة زجاجية صغيرة كعلبة الدواء، ويضعها أمام جلال على الطاولة، كانت العلبة تحتوي على حبة زرقاء اللون، لم يبدو أن جلال قد فهم ما يعنيه عزرائيل بفعلته هذه، فإبتسم الأخير، وأشار للعلبة محاولاً شرح الوضع أكثر:

- قبل أن أقول أي شيء، سأخبرك بمعلومة بسيطة عني، أنا عزرائيل، كما أخبرتك، وأنا إسم على مسمى، أتيتك الليلة رسولاً للموت، لكَ أنت خصيصاً، ولكنني رغم هذا لا أمانع أن أقبض ثلاثة أرواح إضافية إن حاولت التمنع..

- أتقصد أنك.....

خرجت الكلمات من بين شفتي جلال مرتجفة، وكأنه لا يصدق أنه يمكن أن يقول تمتها، فأراحه عزرائيل من هذا العناء، وأكمل عنه العبارة:

- بالضبط، يمكن أن تشرق شمس اليوم الجديد وعائلتك كاملة في عداد الأموات، ويمكن أن ينتهي الأمر بروحك أنت فقط، أنت من يحدد هذه النقطة!.

- كيف؟

أشار عزرائيل للعلبة الصغيرة مجدداً، وأجاب:

- هذه الحبة الزرقاء التي تبدو كحبة فيتامينات، أو مقوٍ، هي في الواقع شديدة الخطورة، أحب أن أسميها شخصياً بـ" نصل عزرائيل"، فهي يمكنها قتل رجل في ساعة واحدة، دون ألم، أو ضوضاء زائدة!

سأله جلال بكل خوف الدنيا:

- أتريد مني أن أبتلعها؟
- بالضبط!

إقشعرت كل شعرة في جسد جلال لإجابة عزرائيل المقتبضة، ولم يكن يفكر بأي شيء في هذه اللحظة سوى بمستقبل عائلته من بعده:

- وماذا عن عائلتي؟ لا أحد لهم غيري
- لا تخف من هذه الناحية، فوضعك المادي أفضل من ممتاز حسب معلوماتي، لذا فالمال الذي ستتركه لهم عند وفاتك سيكفيهم لبقية أعمارهم دون الحاجة لأن يعمل أي فرد من أفراد أسرتك المصونة.

لم يرد جلال، وعقله يعمل سريعاً، محاولاً إستيعاب كل ما يحدث في وقت قصير جداً، هناك من أرسل هذا الغريب لقتله، ولكن من؟

- لماذا أنا بالذات؟
- أنت تعرف إجابة هذا السؤال أكثر مني!

إستعاد عقل جلال كل ما فعله في حياته، خاصة الأفعال التي قد تستحق زيارة عزرائيل بذاته، حتى توقف تفكيره عند نقطة حرجة قبل سنتين بالتحديد، إتسعت عيناه بخوف وهو يفكر في أن أحداً قد يكون قد علِم بما فعله في ذلك التاريخ.

راقب عزرائيل النظرة في عيني جلال، وعرف أنه قد تذكر ما فعله، وتسبب في هذه الزيارة الحصرية في ليلة محددة، بعد سنتين بالضبط من حدث غَيَّر حياة جلال بالكامل.

- لا أعرف!

قالها جلال منكراً أي علاقة له بأي شيء قد يتسبب في مقتله!

فإنفجر عزرائيل ضاحكاً، ضحكة مجنونة، عالية، ومزعجة للغاية، تسببت في جعل العائلة كلها تلتفت نحوه بإستغراب، فما كان من جلال إلا أن ضحك بإرتباك بدوره كي لا تشعر عائلته بالحوار المرعب الذي يدور بينهما.

توقف عزرائيل عن الضحك فجأة كما بدأ، واختفت إبتسامته لتحل محلها نظرة مرعبة، في عينين ثابتتين تحملان نظرة الموت نفسه:

- إذاً فأنت لا تذكر ما فعلته قبل سنتين؟

إكتشف جلال أن عزرائيل يعرف ما فعله، ولكنه قرر الإنكار رغم هذا، لعل هذا يكون سبباً في تركه على قيد الحياة، سيماطل لعله يعيش وقتاً أطول!

- كلا!

- حسناً، سأنعش ذاكرتك قليلاً..

إبتلع جلال ريقه وهو يستمع لعزرائيل وهو يبدأ بشرح كل ما حدث، وبالتفاصيل المملة، وكأنه كان موجوداً حينها رغم أن أحداً لم يكن موجوداً هناك ساعة حدوث الأمر:

- قبل سنتين بالضبط، كنت عائداً إلى منزلك بعد ليلة طويلة قضيتها مع عشيقتك، سعيداً، ومنتشياً، كنت تقود سيارتك تحت تأثير الكحول الذي كان يجري في عروقك بدلاً من الدم في ساعتها من شدة سُكرِك، وفي لحظة ظهر أمامك طفل صغير، خرج من العدم، وصدمته أنت بسيارتك، فإرتمى على الأرض بعدة ضلوع محطمة، ونزيف حاد، ولكنه كان سينجو، لو أنك أسعفته لنجى، ولكنك فضلت الهرب من الموقع سريعاً، وتركته ليموت ببطء، كي يتعذب وحيداً، ثم تصبح جثته طعاماً للكلاب والذئاب الجائعة، أخبرني يا جلال، أليس هذا ما حدث قبل سنتين؟

إرتعد جلال وهو يتذكر الحادثة، وفضحته ملامحه للمرة الثانية،

- أترى؟ أنت تذكر ما حدث بالفعل؟

بدأ جلال في محاولة لتبرير أفعاله، لعل هذا يتسبب في جعل عزرائيل يرحمه، ويتركه يعيش لما بقي له من عمر في هذه الحياة، ولكن لا فائدة.

- لا تحاول لعب دور البريء، لأنني أستطيع رؤية الذنب يتطاير من فمك مع كل حرف في كل كلمة تقولها، لذا وفر كلماتك!

- حسناً، سأعترف، أنا مذنب فعلاً

- جيدٌ أنك إعترفت، رغم أنها ليست نقطة هامة، فدمك مهدور بنظري في كلتا الحالتين.

أخفض جلال رأسه بيأس، وقد فقد الأمل تماماً، ثم تذكر شيئاً مهماً:

- كيف عرفت ما فعلته قبل سنتين؟

إرتسمت إبتسامة على شفتي عزرائيل وهو يرد:

- لي طرقي الخاصة.

كرر جلال بثقة:

- أنا لم أتحدث مع أحد عما حدث في تلك الليلة على الإطلاق، حتى أنني لا أجرؤ على التفكير في الأمر، إذاً كيف لك أن تعرف إن لم أخبرك أنا؟

إتسعت إبتسامة عزرائيل أكثر لتظهر أنيابه البيضاء الطويلة من تحت شفتيه، وهو يغمزه متلاعباً بأعصابه:

- هل أنت متأكد من أنك لم تخبرني؟

تجمدت ملامح جلال كاملة مع رد عزرائيل، كيف له أن يخبره بتفصيلة أخفاها عن أقرب المقربين إليه وهو لا يعرفه حتى، خاصة أن علاقتهما، إن كان يمكنك تسميتها بالعلاقة، عمرها ساعة واحدة فقط!

- أنا أخبرتك؟

أومأ عزرائيل برأسه أي نعم..

- متى؟!

- هل تذكر أين كنت ليلة الخميس؟

فكر جلال ثم أجاب متردداً:

- كنت في بار "بارادايس".

- من الجيد أنك تتذكر أين كنت

فك عزرائيل عدة أزرار من معطفه وهو يتابع:

- وهل تذكر أي شيء بعد كأس الويسكي الرابع؟

أخفض جلال رأسه مفكراً لتصدمه حقيقة أنه لا يذكر فعلاً ما حدث بعدما بدأ بالشرب، كان حزيناً للغاية في ليلة الخميس، وهو ما جعله يشرب بإسراف، ولم يشعر بنفسه إلا وهو ثمل لا يعرف أين هو أو ما يفعله حتى:

- أتعني أنني أخبرتك؟

- طبعاً، أنا عزرائيل ولكنني لا أعلم الغيب بالطبع، سأشرح لك كيف جنيت على نفسك بغباءك الشديد، لقد كنت جالساً جوارك طوال الوقت، ولاحظت شراهتك البالغة للمشروب في تلك الليلة، كنت قد رأيتك عدة مرات قبلها في البار ولكن هذه المرة هي المرة الأولى التي تتحدث فيها معي، وكان ما قلته هو ما جنى عليك يا صديقي، لقد استدرت نحوي وفوق عينيك غشاوة سميكة تكاد تُرى بالعين المجردة لشدة سُكرك، وكان أول ما قلته لي هو: "هل قتلت شخصاً ما في حياتك؟"

بلع جلال ريقه مرتجفاً وهو يسمع كلمات خرجت من فمه دون أن يتذكر أياً منها، ولكنه لا يستغرب إن كان هذا قد حدث فعلاً وإلا فكيف لهذا الغريب أن يعرف ما فعله؟

- كنت مستغرباً من السؤال للغاية، وتأكدت من أنك تكاد لا ترى بعينيك، المشروب يفعل أكثر من هذا، طبعاً لم أعرف بم سأجيبك، هل أقول لك أن هناك مئات الضحايا الذين قتلتهم برصاصاتي عدا عن هؤلاء الذين قتلتهم بيدي العاريتين، طبعاً لا، وحده المجنون، أو السكران، سيخبرك بأن قد قتل في حياته، ولكنني لم أستطع أن أضيع الفرصة، وسألتك عن سبب السؤال فأخبرتني أنك قد قتلت من قبل، ثم بدأت بسرد تفاصيل الحادث كاملة مع التاريخ، بالإضافة لما فعلته قبلها مع صديقتك الحميمة وبالتفاصيل المملة!

أخفض جلال رأسه مجدداً وهو يلعن المشروب والكحول والقتلة الذين لابد وأن تجد أحدهم جالساً بجوارك في كل حانة من حانات المدينة!

رفع جلال رأسه بعدها ليجد زوجته تنظر له من الغرفة المقابلة، وبين يديها إبنتها الصغيرة، وهي تقوم بعمل جدائل لشعرها، فنهض بسرعة، ومشى بأقدام مرتجفة نحو طاولة تجمعت عليها عدة أنواع من المشروب، وسكب لنفسه كأساً ممتلئة، ضحك عزرائيل بشدة وهو ينبهه لسخرية المشهد فيما فعله للتو:

- ألم تتعلم الدرس حتى الآن؟
- هذه ليلتي الأخيرة على ما يبدو، وقد تناولت للتو عشائي الأخير، لذا دعني أستمتع بهذا المشروب الأخير لو سمحت!
- كما تريد.

إرتشف جلال رشفة كبيرة من الكأس ثم أشار لعزرائيل:

- سنتابع الحديث في الخارج.

أومأ عزرائيل برأسه دون أن يمانع:

- لا مشكلة

حمل عزرائيل العلبة الزرقاء الصغيرة، ونهض بهدوء، ثم أشار لزوجة جلال كنوع من العرفان على العشاء اللذيذ الذي قدمته له، وأغلق معطفه بعناية قبل أن يقترب من زجاجات المشروب ليتأملها بخيبة أمل واضحة، وهمس لنفسه بإستياء:

- تملك كل هذه الأموال ولا تستطيع شراء قنينة نبيذ جيدة!

تناول عزرائيل قنينة نبيذ أحمر وأخذ يتأملها بعين الخبير ثم سكب لنفسه كأساً، ومشى ببطء للخارج ليتبع جلال لخارج المنزل مغلقاً الباب خلفه بقوة.

كانا وحيدين، يقفان فوق الثلوج البيضاء إلا من لطخات على هيئة آثار أحذية متعددة الأحجام، ينفثان بخار الماء من أفواههما كقطارين يعملان على الحطب، كانا كروحين وحيدتين في ليلة مشؤومة كهذه.

- والآن ماذا؟

تساءل جلال بخوف، فأجابه عزرائيل ببساطة:

- يمكنني قتلك الآن، لو كان هذا ما عنيته بخروجنا من المنزل في هذا الجو، رغم أنني لا أحبذ فكرة تلويث الثلج بدمائك!

أدار عزرائيل ظهره لجلال، وفي الخلف كان جلال يرتجف من شدة الرعب والبرد في آن واحد، وفي رأسه سؤال منطقي للغاية، ولكن إجابته ستكون مخيفة غالباً، فيما أخذ عزرائيل يسترسل في الحديث، مستمتعاً بمنظر الثلوج وهي تتساقط بهدوء، ومتأملاً المدينة التي ذهب سكانها في نوم عميق منذ ساعات طويلة:

- أترى جمال هذه المدينة وهي نائمة؟

لم يرد جلال لأنه لم يفهم المغزى من السؤال، أنه لا يستطيع رؤية ملامح عزرائيل الآن، تابع الأخير وكأنه لم يكن ينتظر إجابة حتى:

- جميعهم نائمون بسلام، ولكنهم لا يعرفون أن عزرائيل لا ينام، أنا رسول الموت في هذه المدينة يا صديقي، والليلة ستكون أنت على الجانب الآخر من المنجل!.

جرع جلال ما تبقى في كأسه دفعة واحدة، محاولاً الحفاظ على عقله وانتباهه وسط عبارات هذا الرجل، والتي لا يمكن أن توصف إلا بالمرعبة!.

أكمل عزرائيل كلامه وكأنه يتحدث مع صديق قديم:

- جميع رجال هذه المدينة، عند ميلادهم، خلقت لهم السماء ملاكاً حارساً، كي يحميهم من شرور العالم، ويرشدهم دائماً إلى الطريق السليم، ولكن خطأ ما، تسبب في تعيين شيطان رجيم بصفته ملاكي الحارس!

وسط كل هذا الغموض الذي يلف هذا المجهول، شعر جلال بإقتراب النهاية المحتومة، وشعر بأن هذه البرودة التي يشعر بها ليست بسبب الجو، وإنما لأن روحه تستعد للخروج في أية لحظة الآن فما كان منه إلا أن جمع كل ما في قلبه من شجاعة، أخذ نفساً عميقاً، ثم طرح على عزرائيل سؤالاً، قد يبدو، بسيطاً للغاية:

- من أنت؟

لم يرد عزرائيل، وكأنه في مكان آخر، أو لا يريد أن يقطع تأمله بإجابته على هذا السؤال، ولم يتجرأ جلال على تكرار السؤال أو طرح غيره.

ثلاثة دقائق أخرى، والصمت يلفها تماماً، والتوتر يزداد، وبعد دقيقتين، نطق عزرائيل أخيراً:

- أنا رجل عادي في النهار، وشيطان في المساء!

شعر جلال بكل عظمة من عظام جسده تصطك معاً دفعة واحدة، ولكن السبب في هذا لم يكن العبارة التي قالها عزرائيل، ولكن ما حدث بعدها كان أكبر من تحمله بكثير.

إستدار عزرائيل نحو جلال بعدما نطق بإجابته المرعبة، لنكتشف أنه لم يعد كما كان، وجهه كما هو، ولكن عينيه مختلفتان جداً عن ذي قبل، مختلفتان بشكل مخيف، فعيناه سوداوان تماماً، ولا أعني هنا البؤبؤ، ولكن السواد غطى على كل البياض في عينه، كان مظهره يشبه الشياطين فعلاً في المساء، هذا إن لم يكن أحدها بالفعل.

**********

# الفصل الثالث

## نصل عـزرائيل

" أنا رجل عادي في النهار، وشيطان في المساء"!.

وضع جلال يده على فمه ليمنع نفسه من الصراخ بصعوبة شديدة، في الوقت الذي إبتسم له عزرائيل فزادت تلك الإبتسامة مظهره جنوناً.

المشهد مرعب، تخيل نفسك وسط الثلوج، في البرد القارص، ناظراً في وجه الموت مباشرة، ثم حاول تخيل حالة جلال المزرية الآن، لتعرف الرعب الذي يشعر به فيما كان عزرائيل يبتسم له إبتسامة تجمد الدماء في العروق:

- أنت شيطان!

خرجت الكلمات متلعثمة من بين شفتيه، مختلطة بكل الرعب في قلبه، والرجفة التي أصابته من البرد الشديد، ونظرة عزرائيل له في آن واحد:

- لا تخف، إن فعلت ما أقول، فستموت بسلام!

- بسلام؟!

أخرج عزرائيل من جيبه العلبة التي تحتوي على الحبة المميتة، ومد يديه الإثنين نحو جلال، حاملاً العلبة في إحداهما، وكأس النبيذ الأحمر في الأخرى، زاغت عينا جلال وهو ينظر ليدي الموت، ثم سأله بخوف:

- هل سأتألم؟

- لن تشعر بوخزة!

مد يديه نحو الحبة ببطء، ثم سرعان ما أعادهما وكأن دخوله للهالة المحيطة بعزرائيل صعقته كالكهرباء، فتراجع وهو يسأل بذعر:

- وهل أستحق الموت فعلاً؟

- أنت تستحق رصاصة في منتصف جبهتك، ولكنني سأكون رحيماً بك، كي لا تضطر عائلتك لرؤيتك بهذا الشكل.

كانت الإجابة بسيطة، ولكنها تحمل في طياتها الخوف، ولا شيء إلا الخوف.

- إفعل كما أقول لك، وربما ينتهي بك المطاف في الجنة

لم يعرف جلال من أين أتته الشجاعة ليسأل السؤال التالي، ولكنه خرج من بين شفتيه دون أن ينتبه له، وكأنه تسلل كردة فعل:

- وهل سأجدك هناك؟

- أين؟

- في الجنة؟.

- لا أعتقد، فالشياطين لا تذهب للجنة!

شعر جلال بغرابة الموضوع، فسأله بدهشة:

- ومنذ متى تأتي الشياطين لقبض أرواح الإنس؟

- منذ أن إستولت شياطين الإنس على المدينة!

لم يرد جلال، وكأنه لا يزال لا يصدق ما يحدث، فتابع عزرائيل:

- والآن دعنا من المماطلة، وافعل ما أطلبه منك

مد جلال يده وأخذ العلبة، وأفرغ الحبة الزرقاء في راحة يده ونظر إليها..

- إنها تدعى " نصل عزرائيل" كما أخبرتك، ستنهي حياتك خلال ساعة واحدة، دون أن تشعر بوخزة إبرة حتى.

أخذ جلال نفساً عميقاً، ووضع الحبة على لسانه، ثم أخذ كأس النبيذ من عزرائيل، وأفرغه في جوفه مبتلعاً الحبة، ليشعر بها وكأنها نصل حقيقي موضوع على عنقه، يتسلل إلى الداخل ممزقاً أحشاءه دون رحمة أو شفقة، إختفت إبتسامة عزرائيل مع

إختفاء آخر قطرة من النبيذ في جوف جلال الذي سقطت الكأس من يده لتنغرز في الثلج دون أن تُحدِثَ صوتاً!.

- أحسنت، والآن عد إلى منزلك، وقَبِل زوجتك، واحتضن أولادك مرة أخيرة، ثم اخلد إلى النوم ولا تنسى أنك لن تستيقظ بعدها.

إستدار جلال وأخذ يمشي بخطوات مترنحة وأقدام محزوزة نحو منزله، حتى دخل إليه، ألقى نظرة أخيرة على عزرائيل الواقف وسط الثلوج، ليكتشف أن عينيه قد عادتا لطبيعتها، وللونها السابق مرة أخرى، ثم أغلق الباب.
وقف عزرائيل مكانه، مُمتناً لضحية أخرى فضلت الموت على يد " نصل عزرائيل " على شكل حبة صغيرة بريئة، بدلاً من أن تشعر بحد النصل ذاته على رقبتها، وهو يمزق الجلد والأنسجة، ويسلب منها الروح والحياة بعنف.

في الداخل، وقف جلال مستنداً إلى الباب، وعيناه مصوبتان نحو الأرض، وهو يشعر بمفعول النصل وهو يحرق أعضائه الداخلية، وقرر سريعاً أنه يريد إستغلال الساعة المتبقية له قدر المستطاع، ليرى عائلته فترة أطول، رفع عينيه ليجد زوجته أمامه مباشرة، سألته بقلق:

- ما الأمر يا عزيزي؟ لا تبدو على طبيعتك

إقترب منها ببطء، محاولاً التظاهر بالثبات قدر الإمكان، واحتضنها بحنان، ليشعر بالدفء بين ذراعيها للمرة الأخيرة، فيما كانت الحبة القاتلة تجمد قلبه ببطء، همس في أذنها بعاطفة حقيقية:

- أعتذر يا حبيبتي، إن كنت آذيتك في يوم من الأيام، أو جرحت مشاعرك بأي طريقة كانت، تذكري أنني أحبك، وسأبقى أحبك ما حييت، وبعد هذا حتى.

إزداد قلقها بعد كلامه، ولكنها شعرت بصدق كلماته، ففضلت الصمت، كي لا تفسد هذه اللحظة الحانية في حضنه، أنهى العناق، وابتعد عنها وكأنه يشعر بجزء كامل من روحه ينفصل عنه للأبد، ينسلخ عن ما تبقى منه، وكأنه قرر البقاء معها، للإعتناء بها طوال حياتها بعد أن يغيب، تركها وتابع المشي مبتعداً، فيما بدا عليها القلق الشديد من تصرفه هذا، فهي ليست معتادة على جلال بصفته الزوج العاطفي، فهو لم يحتضنها بهذا الشكل منذ سنوات وسنوات.

مشى جلال نحو غرفة إبنته الصغيرة، دخلها ليجدها نائمة، فلم يُرِد أن يوقظها، إقترب منها ودموعه تتساقط على خديه بغزارة، وجلس على السرير بجوارها، متأملاً ملامحها الرقيقة التي لن يراها مرة أخرى، إنحنى عليها وطبع قبلة على خدها بعاطفة منكسرة، همس بصوت مختنق بالدموع:

- وداعاً يا ملاكي الصغير..

شد الملاءة وغطى إبنته بها جيداً، ولثم جبينها بحب شديد، ثم نهض، وأخذت قدماه تزحفان على الأرض حتى باب الغرفة، دون أن تكون لديه القوة الكافية ليرفعهما عن الأرض، أطفأ النور، وأغلق الباب وهو ينظر من فرجته لملامحها النائمة حتى إنغلق الباب تماماً.

مشى نحو باب غرفة إبنه البكر، ووقف أمامها، مسح دموعه بكم قميصه كي لا تظهر عليه آثار البكاء، وزيف إبتسامة على شفتيه، ثم طرق ثلاثة طرقات على باب الغرفة..

- ادخلي يا أمي

إحتبست دموعه بعد ما سمع، بالطبع سيتوقع أن الطارق هو أمه، لأنه ليس معتاداً على زيارة والده له ليطمئن عليه، قاوم دموعه بصعوبة، وحاول رسم الإبتسامة على وجهه مرة أخرى لكنه لم يستطع، فتح الباب ودخل ليجد هاني مستلقياً على سريره،

وفي يده مجلة يقرأ منها بملل واضح، أدار عينيه نحو القادم ليتفاجأ بأنه والده، فإعتدل في جلسته سريعاً:

- أبي؟!

وقف والده أمامه يتأمله دون أن يرد، نسخة مصغرة عنه، نفس العينين والأنف، وحتى تسريحة الشعر، وطابع الحُسن على ذقنه، تأمل الشعيرات التي نمت على خديه وكأنه يراها للمرة الأولى، كيف لم يلحظ أن إبنه قد كبر وأصبح رجلاً؟

ربما لأنه لم يكن يهتم به، وكانت زوجته تضطر لتأدية دور الأم والأب مع أولادها، فيما كان هو مشغولاً بالعمل، والشرب طوال الليل.

شعر بغصة في حلقه وهو يحاول الكلام، فإختار الصمت فيما يستعيد قدرته على النطق، في موقف كهذا حيث لا يتمنى أحد أن يقف مكانه.

- ما الأمر يا أبي؟

- لا شيء يا بني، أردت أن أتحدث معك قليلاً قبل أن أنام، هل لديك مانع يا صغيري؟

ابتسم هاني في حرج وهو يرد:

- أما زلت مصراً على كلمة صغيري؟ لقد أصبحت كبيراً على هذه الكلمة يا أبي!

- أعرف يا عزيزي، ولكنك ستبقى ابني الصغير المدلل مهما كبرت بالعمر، ورغم هذا فأنا سأكف عن مناداتك هكذا.

- لماذا؟ ما الذي تغير؟

- الكثير من الأشياء ستتغير في الأيام القادمة، وأنت ستكون رجل البيت في غيابي، هل تفهمني؟

رغم غرابة الموقف، إلا أن هاني إستشعر صدقاً في كلام أبيه، وأن ما يقوله ليس مجرد حديث آخر هدفه الوحيد فرض الرأي كما إعتاد من والده، لذا قرر الإنصات وعدم مقاطعته، هز هاني رأسه في تفهم، فيما تابع جلال كلامه مقاوماً الغصة الحارقة في حلقه:

- أريد منك أن تعطيني وعداً، وأن لا تحنث بهذا الوعد أبداً
- وما هو هذا الوعد؟
- أن تتذكرني بخير، وتعلم أنني أحبك أكثر من نفسي، وأن تسامحني إن كنت قد قصرت في حقك يوماً ما، هل تعدني بهذا يا بني؟

نهض هاني، واقترب من أبيه، ثم حضنه بعد أن شعر بحنان وحب حقيقيين في بحة صوته، همس في أذن أبيه بصدق:

- أعدك يا أبي.

سالت دمعة حارة على خد جلال، دمعة ندم، وحرقة، وأسى على حياة ضيعها من يديه بسبب غلطة واحدة، خسر بسببها زوجته التي يحبها، وأولاده الذين سيفارقهم فجأة، دمعة خوف من المجهول، ومن الموت!

**********

جلس جلال على طرف سريره، وأغمض عينيه، وشريط ذكرياته كاملاً يمر بسرعة خاطفة في عقله، الجميلة منها والبشعة، السعيدة والمؤلمة، وفي نفس الوقت كان يشعر بشيء غريب، وكأن روحه تتسلل هاربة من جسده، إستعاد ذكرى والده، الذي لم يحادثه منذ عقود، وقاطعه لسنوات طويلة، وكيف توفي وهو غاضب عليه، فيما كان قلبه المتجمد عاجزاً عن الشعور بالحزن لوفاته، كيف أفلتت منه الأمور بهذا الشكل؟ لم يكن هكذا من قبل، كان شخصاً جيداً، كان يحب والده ويريد أن يشد عضده حين يكبر، وبعدها تغير كل شيء، لم يعد يهتم لأحد غير نفسه، وللأمانة فهو قد أهمل نفسه حتى، ترك نفسه يسقط ضحية لإدمان الكحول حتى وصل لمرحلة لم يعد بإمكانه فيها الجلوس في مكان بدون أن يكون في يده كأس مشروب، لقد قضى عمره يجمع المال لكي يستطيع شراء ما يقتل نفسه به، هو المال ذاته الذي سيصرفه على علاجه لاحقاً، ما هذه الحياة البائسة؟

في تلك اللحظة أخذ يفكر في أنه ربما هذا هو تأثير هذه المدينة عليه كما هو على بقية من فيها أو حتى من مر فيها مرور الكرام، بالفعل، كان يعتقد أن هذا الخاطر منطقي للغاية، هذه المدينة لها تأثير عجيب، هو شخصياً يعتبرها نقطة سوداء داكنة في هذا الكون، كان يغرق تحت سواد الأرض التي يسكنها، يغرق من الداخل، فأنت لا تحتاج للماء لتشعر بأنك تغرق!

أخذ يتعمق في ذكرياته، كيف مرت هذه الأيام بهذه السرعة؟ كان يرى ذكريات مريرة لا يدري كيف تجاوزها، وذكريات شديدة الجمال لا يدري كيف أتته الجرأة حين قام بنسيانها!

أحياناً تكون الذكريات أسوأ أنواع التعذيب!

تمنى لو يستطيع العودة بالزمن، ليقبل يد والده بصدق، لو أنه يستطيع إحتضانه مرة أخيرة، ليشكره على كل شيء، حتى عصبيته وضيق خُلُقه أصبحتا ذكرى جميلة الآن، إن كان والده موجوداً الآن، هل سيكون فخوراً به يا ترى؟

طبعاً لا!

هذا السِكير المُقامر المدمن لا يمكن أن يفتخر به أب أو إبن!

فتح عينيه، وشعر وكأنه يفتحها للمرة الأولى، وكأن ما حدث معه جعله يحس بإحساس الولادة من جديد، فرأى العالم بشكل مختلف، أو بالأحرى أنه رآه بالشكل الذي كان يفترض أن يراه عليه طوال حياته، ولكن المال أعماه عن رؤيته بالأسلوب الصحيح.

إستلقى على السرير، ودعا من قلبه كما لم يدعُ من قبل..

"يارب السماوات السبع، وما فيهن، يا خالق الأراضي والبشر، ومالك هذه الروح، والمتحكم بنعيمها وجحيمها الأبدي، خفف عليّ سكرات الموت، وارحمني برحمتك التي وسِعَت كل الخلائق، يا قدير، يا قادراً على كل شيء، خذني إليك، ورفقاً بروحي البائسة".

**********

# الفصل الرابع

## مدينة النفاق والإجرام

على سريره، كان جلال مستلقياً وقد غطاه العرق وكأنه عداء في خضم السباق الأهم في مسيرته، كان يركض إلى حتفه، عيناه زائغتان، ونظره مصوب للسقف، ولكنه في الحقيقة يخترقه بعينيه لينظر للسماء، يناجي ربه بإنكسار، ويهمس له في عزلة روحية تامة، يشكو له ظلمة المدينة التي دنسته، يعتقد أنه كان طاهراً ولكن من حوله شوهوا روحه بشكل شنيع.

بجواره تستلقي زوجته، لا تسمع همسه أو شكاويه، ولا تشعر بما يحدث حولها، ولو أنها عرفت لإستغلت اللحظات الأخيرة معه بلا شك.

ووسط كل هذا، كان الضيف الثقيل إياه يراقب بصمت، في زاوية الغرفة كان عزرائيل!.

لمحه جلال في موقعه المظلم فاتسعت عيناه رعباً، وعرف أن الساعة قد إقتربت، لم يعرف متى دخل ولا كيف، ولكنه لم يكن يهتم بالإجابة بحال من الأحوال، والإجابة كانت بديهية، فالموت لا يعترف بالأبواب أو الجدران، سيأتيك ولو كنت في أقاصي الأرض، أو حتى تحتها!

راقبه عزرائيل بصمت، وفي عينيه نظرة تناديه نحو النهاية، نظرة تقول له:

"عزرائيل هنا، ولا مهرب من عزرائيل على الإطلاق"!.

تلاقت أعينهما، وكانت تلك النظرة الأخيرة، شهقة مفاجئة، ثم زفير أخرج شيئاً آخر مع الهواء، فارقت روح جلال جسده إلى العالم الآخر، وللأبد، أخفض عزرائيل رأسه لثوان، إحتراماً لروح مذنبة أخرى فضلت التطهير على الحياة مع الذنب، رغم أن جلال لم يكن يملك القرار فعلياً!.

هَمّ عزرائيل بالنهوض، لكن صوت بكاء إبنة جلال الصغيرة جعله يعود ثانية ليتخفى في الظلام، مع إستيقاظ زوجة جلال وإسراعها لخارج الغرفة لتطمئن على إبنتها، دون أن تلاحظ الموت بذاته جالساً في زاوية الغرفة، متشحاً بالظلمة، في رأسه آلاف الأفكار في آن واحد، ذكريات يرفض العودة لها، لكنها أشد إلحاحاً من أن تنصاع لأوامره، ذكرى أيام مضت، وحياة سابقة، ومشاعر صادقة، في أيام ماضية حين كان يسمى "زين"، وكان هذا إسمه.

في هذه الأيام لم يعد يسمع إسمه إلا في النهار، فهو كما قال: "رجل عادي في النهار، وشيطان في المساء"، في النهار ينادونه "زين"، وفي المساء يطلب من الجميع مناداته بعزرائيل!

ولم يكن أحد يرفض هذا الطلب، خاصة بعد أن يريهم عينيه!.

**********

كان حذاء عزرائيل يحفر الثلج بقوة، لتنغرز قدماه حتى الكاحلين فيه، في يده اليمنى يمسك برسن ينتهي طرفه عند كلبه المسمى "دون"، وفي يده اليسرى سيجارة مشتعلة، ينفث الدخان في الهواء، ليزيد من التلوث والأوبئة في جو المكان الذي لا يحتاج للمزيد من مسببات الموت!

إنعكس ظله على الجدار وارتعشت أضواء الشارع الخافتة وهو يمر تحتها، بسبب البرد أو ربما كان السبب خوفها من المار من تحتها، على يمينه خزان المياه الكبير، الفارغ من الماء منذ سنوات، بعد حادثة تسببت بضجة كبيرة ، عن شاب كره الحياة في هذه المدينة، فقرر الإنتحار، وصعد لأعلى الخزان، وقام بقطع وريده بخنجر حاد، ولم يكتفِ بهذا، بل قام بفتح باب الخزان العلوي ورمى بنفسه في المياه التي تصل لكل بيت في المدينة كاملة.

عندما أصبح الشاب في المياه، ينزف دمائه فيها محولاً لونها للون الأحمر، إكتشف خطأه، وإكتشف أن ما يحاول قتله ليس في داخله، كان يحاول قتل نفسه لأن لم يستطع التعايش مع المخلوقات المحيطة به، والتي تسمى بالبشر مجازياً فيما هي مجرد كائنات عجيبة تحسب أنها خلقت لتجمع المال وتتسلق سلم السلطة دون إكتراث لمن ستدوسه في طريقها، أو من سيموت تحت أقدامها، روى أصدقاءه أنه كان يكره المدينة بمن فيها، دون إستثناء، حتى أنه عجز عن أن يستثني أباه وأمه من قائمة من يتمنى موتهم، أتتخيل كمية الكراهية التي يحملها في قلبه كي يقول مثل هذا القول؟

ووسط المياه، مصارعاً الموت، حاول الشاب الخروج دون فائدة، وأخذ يسبح لساعة كاملة، فيما كان يصرخ بأعلى صوته لعل أحداً ينجده، ولكن أحداً من أهالي المدينة الموتى لم يهتم لأمره على الإطلاق، وتركوه جميعهم ليلاقي حتفه ببطء!.

مات الشاب بعد أن نزف محتوى جسده من الدماء في المياه، ومر يوم كامل عليه، ولم يكتشف أحد ما حدث إلا عندما بدأت دمائه تخرج من صنابير الماء في المدينة، فأسرعت الشرطة لتقصي الأمر لتجد جثته هناك، وفي الماء ورقة سابحة كتب عليها

رسالة إنتحاره، ولكن أغلب الحبر الذي فيها زال بسبب المياه، ولم تبقى إلا بضعة كلمات واضحة..

كانت العبارة الوحيدة الواضحة في رسالة الإنتحار تقول:

- مدينة النفاق والإجرام، فلتذهبوا جميعاً إلى الجحيم!.

مرت أيام وأيام على الحادثة، وما زال طعم الماء غريباً حتى اليوم، ويمكن سماع صرخات إستغاثته تخرج مع كل قطرة ماء من كل صنبور في المدينة.

على زاوية الرصيف، صحيفة مغروزة في الثلج، إنتزعها "دون" وأسرع نحو سيده ليعطيه إياها، فأخذها ليجد على إحدى صفحاتها المفتوحة خبراً صغيراً، غير مهم على الإطلاق:

- "العثور على فتاة محترقة إلى درجة التفحم، في منطقة خالية من السكان، والفاعل مجهول كما هي هوية الفتاة."

قرأ الخبر شذراً، لم يهتم به كثيراً، فقد إعتاد على أشنع الأخبار في هذه المدينة، لم يخطئ هذا الشاب عندما إنتحر بهذه الطريقة الدموية، وأجبر من في المدينة على شرب دمه دون أن يعرفوا، وإن فكرت بالأمر جيداً، لعرفت أن دمائه على يدي سكان المدينة أجمعين، شربوا دمه ببرود، ثم مشوا في جنازته وتباكوا في وسائل الإعلام، صورة نمطية لسكان مدينة النفاق، ورغم أن بقايا محتوى الرسالة بقيت مجهولة، إلا أن ما تبقى منها يكفي، مدينة يعد فيها قائل الحق، شيطاناً رجيماً ناطقاً!

والساكت عن الحق حَمَلٌ وديع، وملاكٌ طاهر بريء، سترقد روحه بسلام في قبره، ثم تصعد للفردوس الأعلى لأنه وافق على الصمت على الفظائع التي يراها الأعمى!.

جذب عزرائيل من جيبه كيساً بلاستيكياً، وأخرج منه قطعة لحم، إنحنى على كلبه وربت عليه، قبل أن يمد يده الحاملة لقطعة اللحم نحو "دون"، لينقض عليها الأخير بفكيه، نظر في عيني كلبه، وهمس له مبتسماً:

- أنت أوفى مخلوق في هذه المدينة! وصديقي الوحيد فيها...

وقف عزرائيل، وشد رسن كلب الجحيم الذي يجاوره كظله، وتابع المشي، نحو مدخل حارة أقل ما يقال عنها أنها متناقضة بشدة بالمقارنة مع الحارة المجاورة لها مباشرة، دخل الحارة، متجاهلاً الرسوم الغريبة التي لا يخلو منها جدار واحد فيها، ووقف متأملاً منزلاً مهجوراً، كبيوت الأرستقراطيين، ولكنه مختلف عن البيوت المعتادة بعض الشيء.

على باب المنزل نجمة خماسية مرسومة بسائل أحمر لا تحتاج لكثير من الذكاء لتستنتج أنه دم بشري، وفوق عتبة الباب رأس تيس مقطوع، ومن قرنيه تتدلى سلاسل حديدية في نهاية كل منها ما كان يفترض أن يكون شموعاً خمدت منذ دهور، وتوزعت هذه الشموع أمام الباب في شكل هندسي مميز.

طقوس شيطانية بإمتياز!.

لم يكن مثل هذا المشهد غريباً على سكان هذه الحارة التي دخلها عزرائيل للتو، فهو الآن في الجانب المظلم من المدينة، كما يحب أن يسميه، ولكن هذا لا يعني أن لهذه المدينة جانباً مشرقاً، الإختلاف الوحيد هو أن هذا الجانب يحظر دخوله لمن لا يسكن فيه.

حارة الشياطين!

هذا هو إسم الحارة، وهو إسم يعرفه الجميع، فهذا القسم من المدينة يسيطر عليه عبدة الشيطان، وبهذه الكلمة لا نعني هؤلاء الذين نراهم في الشوارع بشعور سوداء ومكياج كئيب، بل هم أشخاص باعوا أرواحهم لإبليس حرفياً.

كان يشعر بغرابة الموقف، فهو مقتنع تماماً بأن إبليس لا يحكم المذنبين، ولكن لديه القدرة ليتلاعب بعقولهم بطرق بالغة الذكاء ليلون لهم الذنوب بألوان الطيف، فيخطئون ويقتلون ويسرقون، ثم يعبدونه بكل جوارحهم بإعتباره الكائن الذي يوسوس لهم ليفعلوا كل هذا، فهو يمنحهم الصلاحيات الكاملة لخرق كل الأنظمة

وتحطيم كل القوانين التي شرعتها البشرية على مدار وجودها فوق هذه البسيطة، والسبب الوحيد لأنهم يفعلون ما يفعلون هو أنهم يستطيعون، ولا يملكون الرادع الكافي ليمنعهم عن القيام بأي شيء مهما بلغت به البشاعة، ولهذا كانوا يعتبرون أنه يستحق العبادة!.

وفي داخله كان هناك شيء يتحرك، يصحو من استشعاره لكمية الطاقة السوداء المرعبة في هذا المكان، هذه النفس الأمارة بالقتل، هذا عطش مصاص الدماء الذي لا يعرف معنى الصوم!

يوماً ما سيقوم بتطهير هذا المكان، يعرف هذا وينتظر تلك اللحظة بشوق شديد، اللحظة التي سيقوم بها زين وعزرائيل قومة رجلين في جسد رجل واحد، في ثورة فردية ضد أرباب الدمار والرذيلة الذين إحتلوا هذه الأرض، هذا الشعور في داخله هو نداء عزرائيل المدينة للملاعين الذين يحسبون أنهم آلهة هذه الشوارع، نداء لحارات الشياطين الآدميين والجان منهم دون إستثناء، ليقبض أرواحهم بمنجله الحاد، وإن تساءلت فعزرائيل لم يكن يعبد الشيطان، فهو يؤمن بأن ما فعله في حياته يضاهي كل ذنوب إبليس وأتباعه مجتمعين، لذا فهو أحق باللقب الشيطاني منه،

يفكر أحياناً في وضعه الحالي، كيف وصل لهذه المرحلة من ظلمة الروح، حيث أصبح كل شيء في شريعته مباحاً طالما أنه يخدم مصالحه الشخصية؟

كان يعرف أنه شيطان، ولكنه على الأقل يتصرف على هذا الأساس، يقول الحقيقة ولا يكذب بشأن هذا الأمر، والأهم هو أنه لا يتظاهر بالملائكية فيما تصرخ روحه من فظاعة ذنبه.

لقد خرج اليوم دون سيارته خصيصاً كي يقوم بجولة في المدينة، رغم الجو البارد إلا أن البراكين التي في داخله كانت تبقيه دافئاً، لم يكن هنا في زيارة، فهو يسلك هذا الطريق ليعود لمنزله، ولكنه يعرف أنه سيعود في زيارة بصفته الشخصية عن قريب، فهذا المكان يستحق الحرق بكل من فيه، وسيفعل هذا دون أن تهتز له شعرة، أو يرمش له جفن.

كان سكان الحارة من إنس وجان نائمين، غادرها بسلام رغم أنه توقع أن يعترض طريقه أحد السكان، ليهدده بمسدس، ثم يقدم روحه قرباناً للشيطان وهو يسرد على مسامعه تراتيل عجيبة لا يعرف اللهجة التي تُحكى بها أو حتى اللغة التي يستعملونها لنطقها، ولكن الواضح هو أن الشياطين نفسها نائمة في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

دخل بعدها إلى منطقة تشبه الدغل، أشجار طويلة تشققت من كم الطاقة السلبية في هذا المكان، واهترت أوراقها بشدة، ونأت من حمل الثلوج، سكون تام، وعتمة، ولا أحد غيره في الشوارع، سارحاً في أفكاره السوداء، التي يحاول دفعها بعيداً كي يستطيع النوم في الليل، ولكن دون فائدة، تفوح شوارع المدينة بالبارود، ويعيش سكانها على الشهوة، وإدمان الكحول، فوضى روحية عارمة، والحقد أصبح كالشجرة التي مدت جذورها في تربة المدينة حتى وصلت إلى نواة الأرض، فكيف تستطيع إنتزاع هذا الكم من الكراهية من قلوب البشر يا ترى؟

مدينة المنافقين، والمجرمين، والموتى الأحياء!

ووسط الفلاء، شجرة عظيمة ذات أوراق حمراء، يقال أن أوراقها تحولت لهذا اللون من شدة القرابين التي تم تقديمها تحتها، فتمت سقاية هذه الشجرة بالدماء البشرية!

يَذكُر أنه قبل فترة قصيرة، إهتزت المدينة كلها لخبر مفزع.

سبع فتيات عذراوات، وجدن مشنوقات بسادية بالغة، على فروع الشجرة، وتحتهن أوراق محترقة عليها طلاسم شيطانية، وبجوار الأوراق جثث عائلة إحدى الفتيات، الذين قاموا بقتلهم لإكمال الطقس الجهنمي لا أكثر!

وقف تحت الشجرة مباشرة، وشعر برطوبة التربة التي تشبعت بالدماء، وعلى ضوء بعيد، رأى لمعة مألوفة على يديه، لمعة الدماء التي لم تجف بعد، دماء جلال التي لطخت يديه رغم أن قطرة منها لم تمس جسده قط وغيرها الكثير ممن قتلهم دون أن يلوث يديه، ولكن روحه رغم هذا تلوثت بدمائهم، ولكن ولحسن حظه، فقد

أصبحت الأرواح عنده مجرد بصمات على تقويمه الكبير، فتعداد ضحاياه يرتفع كل يوم بوتيرة مرعبة، واليوم إنتهى دون ضجيج زائد على الأقل.

**********

# الفصل الخامس

## ثمة شيء مريب!

وسط الأدغال، كانت هناك حركة مريبة، تحرك الرجل متسللاً ببطء متجهاً نحو المنزل الوحيد في هذه المنطقة البعيدة عن ضجيج المدينة، الأشجار تحيط به، وقف متخفياً في ظلها ناظراً لهدفه لهذه الليلة.

قصر مهيب، كبيوت الأشباح، لا ضوء قادم من الداخل، والمنظر العام يوحي بكنز ينتظره، تلمع عيناه بجشع واضح، ثم يخطو خطوات حذرة متحفزة نحو المنزل، وقف أمام الباب الخشبي الكبير، واقترب منه مرهفاً السمع، لم يكن هناك صوت قادم من الداخل، وهذه بشارة خير وشر في آن معاً، قد يكون المنزل فارغاً وقد يكون مملوءاً عن آخره بالسكان ولكنهم جميعم نائمون أو خُرسان!

بعد تردد لم يطل، حسم قراره، ودس قطعتين حديديتين في القفل، وبدأ بعملية فتحه بمهارة وخبرة، فخرجت تكة منخفضة من القفل قبل أن يدفع الباب ليفتحه ببطء شديد، ليصدر صوت صرير مرعب من الباب وكأنه قد فتح بوابات الجحيم للتو، هذا الصوت المرعب الأقرب لتثاؤب تنين أو زئير أسد تسبب في سريان قشعريرة شديدة البرودة من رأسه حتى أخمص قدميه، مد رأسه من فتحة الباب لينظر للداخل بحذر فقابلته الظلمة ولا شيء غيرها، إبتلع ريقه بخوف واعتدل وهو يحاول الحفاظ على نبضات قلبه في حدود المعدل الطبيعي بأن يتنفس بعمق ولكن أياً من هذه الطرق لم تجدِ نفعاً وهو واقف أمام باب منزل ذي سُمعة كهذه.

كان متردداً للغاية في هذه العملية بالذات، رغم أنه من المعروف أن هذا المنزل مهجور، بعد أن رحل عنه سكانه السابقون، والذي كانوا رجال عصابة واحدة، قبل أن يتفرقوا ويتركوا هذا المنزل إلى الأبد، بعد أن قتل قائدهم بدموية شديدة، كان في مقر العصابة المسماة بـ"المنتقمون".

تلك العصابة التي أرعبت المدينة بأكملها لعدة عقود من الزمان، قبل أن تتوقف أعمالها الإجرامية دفعة واحدة مع مقتل زعيم العصابة.

أخرج من جيبه كشافاً صغيراً، وأشعله، ودخل ملوحاً بالكشاف يمنة ويسرة محاولاً سبر أغوار الظلام بهذا الضوء الضعيف، حتى لمح جسماً يتحرك في الظلام بسرعة شديدة، تجمد مكانه وبدأ يرتجف رغماً عنه، كان خائفاً لدرجة أنه أوشك على الخروج من المكان، إلا أن حاجته للمال كانت تجبره على البحث أكثر، كان عليه أن يقنع نفسه بأن ما رآه كان مجرد ظل شجرة انعكس من الخارج، أو ربما هو خيال أحد أثاث الغرفة، رغم وَهَن التبريرات إلا أنه استطاع بواسطتها أن يتقوى قليلاً ليواصل البحث بهدوء، ولكن هذا الهدوء لم يستمر لأكثر من ثواني قليلة، كان هذا عندما رآها!

جالسة على كرسي أشبه بالعرش، تتدلى قدماها ولكنهما لا تصلان للأرض، طفلة في الثالثة أو الرابعة من عمرها على الأكثر، ترتدي فستاناً أبيضاً عليه بقع كبيرة من الطين، وشعرها الأشقر يلمع تحت ضوء الكشاف.

كانت تنظر له مباشرة بعينين شديدتي الزرقة، طفلة بارعة الجمال، ولكن وجودها في مثل هذا المكان، وفي مثل هذا الوقت، وحقيقة أنها تجلس وحيدة في الظلام الدامس كانت مرعبة للغاية بالنسبة له.

ما الذي تفعله طفلة كهذه في مكان كهذا؟!

توقف قلبه عن النبض حرفياً مع رؤيتها، واختنقت أنفاسه والأكسجين ينفذ من رئتيه، يرتجف بقوة ولكن يده الحاملة للكشاف لا تجرؤ على توجيهه بعيداً عنها، لا يملك القوة على فقدانها في الظلام ليتركها تتحرك حوله وهو لا يعرف مكانها..

- أهلاً بك في منزلي!

قالتها الصغيرة ثم ابتسمت له وهي تُميل رأسها لليمين ببراءة، حاول الرجل استجماع قوته ليتحدث ولكن فمه جاف كصحراء، أخذ عدة أنفاس والطفلة لا تتحرك على

الإطلاق، وتبدو من بعيد كدمية جميلة أوقعها صاحبها فتلوث فستانها بالطين بهذا الشكل، سألها بصوت مخنوق:

- من أنتِ؟

سؤال غبي! أن يسأل السارق الفتاة التي وجدها في المنزل الذي يخطط لسرقته عن هويتها، في الوقت الذي يفترض بها أن تسأله السؤال ذاته، ولكنه في ظرف لا يحسد عليه، ولم يجد إلا هذا السؤال في حوزته نظراً للهلع الذي يدور في رأسه!

عدلت الفتاة رأسها وصمتت لعدة ثوان وهي تحدق فيه مباشرة دون أن ترمش حتى، ثم أجابت من بين شفتيها المزينتين بأحمر الشفاه:

- أنا سيدة هذا المنزل!

قالتها وضحكت بسعادة، قبل أن تتجمد شفتاها تماماً وهي تبتسم مخفضة عينيها للأسفل، ثم بدأت ابتسامتها تتلاشى بشكل غريب!

- هل أنتِ وحيدة في المنزل يا صغيرتي؟

- بلى، أنا وحيدة على الدوام، لا أجد أحداً ليلعب معي، وليس لدي أي أصدقاء، ما رأيك في أن تصبح صديقي؟

رد بإستغراب شديد وقد بدأ خوفه يزول تدريجياً:

- لا مشكلة، سنصبح أصدقاء، ولكن أخبريني، أين أهلك؟

- إنهم أموات!

قالتها الطفلة بتلقائية بالغة، وأردفت بعدها سريعاً:

- هل تريد أن تلعب معي؟

كان الموقف شديد الغرابة، ورغم أن هذا الموقف كله قد يكون عبارة عن لعبة من أصحاب المنزل، إلا أنه كان متعاطفاً مع الطفلة، يستحيل أن تستطيع التمثيل بهذه الروعة، وإن كان كل هذا تمثيلاً فهي تستحق أوسكار بكل تأكيد، ثم أن انفعالاتها

عجيبة بالفعل، فهي تقول معلومات حزينة عن نفسها تصلح لتكون مأساة إغريقية وهي تضحك وكأنها لم تقل شيئاً!

- بالطبع يا صغيرة، ولكن عليَّ أن أقوم بأمر مهم وبعدها سنلعب ما تريدين من الألعاب، ما رأيك بهذا؟

أومأت الطفلة برأسها في غبطة وهي تجيب:

- حسناً، أنا موافقة، ولكن لا تتأخر!

- لا تخافي، لن أتأخر.

قفزت الطفلة عن الكرسي فإرتجف قلب الرجل من الصوت الذي صدر عندما لامست قدماها الأرض، كان صدى خطواتها مرعباً، هذا صوت إرتطام قدمي غول عملاق بالأرض، وليس طفلة صغيرة، تابعت الفتاة الركض حتى دخلت لإحدى الغرف وإختفت في ظلامها، تسارعت أنفاس الرجل، وتمالك نفسه بصعوبة ليبدأ رحلة البحث في المنزل من جديد، بعد أن أخذ مباركة سيدة المنزل ليسرق ما فيه!

تأمل المنزل جيداً، باحثاً عن مخبئ سري خلف إحدى اللوحات المرعبة المتوزعة على الجدران، عندها انتبه للوحة مميزة، عليها كتابات غطاها الغبار ولكنها لا زالت واضحة، كتبت بلون أحمر كالدم:

- "المنتقمون لا يرحمون"!

قرأ الكلمات التي إرتصت على اللوحة، وإرتجف من شدة الخوف والبرد في آن واحد، وشعر بشيء غريب يجثم على صدره، هدوء شديد، وقصر كئيب في آخر الليل، قاوم رجفته وهو يقترب من زر النور ويضغطه رغم إيمانه بأن الكهرباء ستكون مقطوعة غالباً، ولكن الكهرباء سرت في الأسلاك وأنارت الغرفة كلها، لتتضح معالمها لعينيه أكثر، ويتأملها بشكل أفضل.

كانت الغرفة تفوح بالفخامة، والقِدَم في الوقت ذاته، شَبهها بقنينة نبيذ معتقة لقرون، لا زالت تحافظ على رونقها رغم مرور الزمن، أرائك جلدية سوداء، وطاولة كبيرة في زاوية الغرفة ارتصت عليها زجاجات المشروب الفاخرة بكل أنواعها، لم يخب ظنه، هذا المنزل يحوي كنزاً بالفعل، فهذه الزجاجات لوحدها تساوي ثروة، فعلى ماذا يحتوي باقي المنزل؟

هناك كرسي فخم أشبه بالعرش في وسط الغرفة، حيث كانت تجلس الطفلة، الغريب هو أن الكرسي مغطى بالتراب والغبار، يستحيل أن أحداً قد جلس على الكرسي منذ زمن، ما معنى هذا؟ هل تخيل كل ما حدث للتو؟

هذا مستحيل!

أمام الكرسي كانت هناك طاولة خشبية صغيرة، ومرآة كبيرة تكاد تحتل نصف الجدار، رائحة المكان غريبة للغاية، بل هي شنيعة، لم يستطع تشبيهها إلا برائحة الموت إن كان له رائحة!

هناك تقويم كبير موضوع على طاولة، إرتصت بصمات سوداء على كل يوم من الأيام، إقترب منه أكثر ليكتشف أن هناك أربعة بصمات وضعت في الخانة المخصصة ليوم أمس!

أي أن هناك شخصاً يعيش هنا!

بالطبع لا يمكن للفتاة أن تصل للتقويم لتكتب عليه، ثم ما أدراها بفائدة قطعة الورق المعلقة على الجدار كي تستخدمها؟

إرتجف للفكرة، خاصة أنه كان فوضوياً جداً منذ لحظة دخوله، فَتَح الباب على مصراعيه، وأشعل الأضواء، وعبث بكل ما وقع تحت يده، وتحدث مع الطفلة وأصبحت تعرف شكله بالتأكيد، والآن يفكر بنظرية وجود شخص آخر - غير تلك الطفلة - يعيش في منزل العصابات هذا وقد يكون موجوداً في المنزل الآن حتى، بل ربما ذهبت الصغيرة لتناديه!

أخذت الأفكار تجتاح رأسه بشراسة، وهو واقف في منتصف الصالة محتاراً بخصوص ما يجب أن يكون تصرفه التالي، خاصة أن البصمات على التقويم كانت مطبوعة بالحبر، بمعدل بصمة واحدة على الأقل في المربع المخصص لكل يوم، ولكن هناك مربعات أيام عليها أكثر من بصمة، ورغم أنه لم يكن يفهم ما الفكرة من وجودها أو سبب وضع الشخص الذي وضعها لها في هذا الموقع بالذات، أو ما تعنيه كل بصمة من هذه البصمات، إلا أنه كان متأكداً من أن السبب سيكون مرعباً بالتأكيد، وأبسط تعريف هو أن هناك من يسكن المنزل!

ثمة شيء مريب!

شعر بخدعة في الموضوع، ولكن الجشع والحاجة والفضول كانوا يجبرونه على متابعة التنبيش في المنزل، ولم يكن يعلم أن هذا الفضول هو ذاته الذي قتل القط!

توغل في القصر الضخم أكثر، حتى وجد نفسه أمام درج يؤدي للطابق العلوي، وبجواره باب للقبو غالباً، لم يَكُن مستعجلاً سينبش المنزل من الأسفل للأعلى، لذا، وكلص محترف، قرر الهبوط للقبو، لأنه يمنحه فرصة أسرع للهرب، وربما يجد كنزاً آخر في الأسفل، كانت أحلامه وردية مقارنة بالواقع الأسود الذي يراه أمامه.

مد يده لمقبض الباب وهو يلعن الفقر والجوع اللذين جعلاه يدخل منزل الأشباح هذا، هذا المنزل الذي تطوف فيه أرواح متناقضة، أطياف مجرمين قَتَلَة، وأخرى بريئة سلبتها تلك العصابة التي كانت تستغل هذا المكان لتنفيذ أنشطتها الإجرامية، أدار مقبض الباب ليفتحه متوقعاً أنه سيكون مقفلاً ولكنه لم يكن كذلك، ووجد نفسه أمام درج طويل يؤدي لأسفل، وَجَه خيط النور نحو نهاية الدرج فلم يرى شيئاً، تشجع وخطى خطواته هابطاً الدرج متردداً والأدراج الخشبية تصطك تحت قدميه، مصدرة صريراً مزعجاً، وكأنها توشك على التحطم تحته، ولم يكن ليستغرب حدوث هذا نظراً لسمعة هذا المكان، وقدمه الشديد.

وصل إلى الأسفل وأخذ يتأمل المشهد على ضوء الكشاف، يتخلل الضوء الساقط من الكشاف الظلام بصعوبة، محاولاً إنارة المكان ليكشف تفاصيله، ولكن الظلام كان أقوى، وخيط النور المسكين كان أضعف، ليريه مقتطفات صغيرة من المكان، يجمعها صاحبنا في عقله في محاولة بائسة لتكوين صورة شاملة للقبو، وعندها رأى ما لم يتوقع أن يراه في حياته!

كان هناك جدار كامل، إصطفت عليه جميع الأسلحة التي قد يتوقعها، سكاكين وخناجر ومناشير، وكل الأدوات الحادة في الكون، عدا عن بعض الأدوات التي لم يرها من قبل، ولكن الإستنتاج الوحيد لإستخدامها كان مرعباً بالفعل وبديهياً أكثر من اللازم، هذا المكان مخصص للتعذيب!

تخيل في ذهنه رجال العصابة الذين كان يقطنون المكان، وهم يعذبون رجلاً بكل وحشية كي يحصلوا منه على المعلومات التي يريدونها، يستخدمون أبشع الوسائل، يجرحونه ويقتلعون أظافره، وربما عينيه، من مكانها بإستمتاع، وفي منتصف الغرفة كان هناك كرسي ذكره بكراسي الإعدام الكهربائي، قيود على مكان وضع اليدين، وعند القدمين، وحتى في أعلى الكرسي، وهناك سلسلة يفترض أن تقوم بتقييد الرأس إلى الكرسي، كي يعجز الجالس عليه عن الحراك تماماً.
هبط بضوء الكشاف إلى الأرض، ليجدها حمراء اللون، وكان أول ما جال في تفكيره أن هذا دم بالتأكيد، دم جاف سفكه المجرمون هنا، ثم لاحظ نقطة هامة للغاية، الدم لم يكن جافاً!
إنحنى على الأرض، ولمسها بطرف إصبعه بإشمئزاز ليجده رطباً، هذا الدم حديث ولم يجف بعد!
تجول بضوء الكشاف باحثاً عن مصدر الدماء، رغم تأكده من أنه سيندم على فعلته هذه، ولكنه الفضول مجدداً، حتى وجد نفسه أمام أفظع مشهد مر عليه في عمره،

فأمامه مباشرة كان هناك أربعة شبان في أوائل العشرينات من عمرهم، مقيدون بأغلال حديدية غليظة إلى الجدار، وتحتهم بحيرة من الدم، دماؤهم هم!

أغلق فمه بصعوبة، كي يمنع نفسه من الصراخ، ومن التقيؤ بعد هذا المشهد شديد الدموية الذي رآه، ولكنه لم يستطع، ما يراه كان أقوى من قدرته على الإحتمال، وأفرغ محتوى معدته في زاوية القبو، ثم اعتدل مستنداً للجدار محاولاً تمالك نفسه بصعوبة دون أن يبعد يده عن فمه كي لا يصرخ، ولكن صرخة عالية أفلتت منه رغماً عنه لتهتز جدران القبو على إثرها، كانوا جثثاً هامدة، يمكن توقع هذه المعلومة من كمية الدم التي ملأت أرض القبو الواسع، ولكن الفظيع أنهم ولابد قد نزفوا دمائهم هنا، وهذا يعني أن هناك من قتلهم منذ وقت قصير لدرجة أن دمائهم لم تجف بعد عن الأرض تماماً، أي أن هناك شخصاً ما يعيش في القصر، ويقوم بممارسة أعماله الوحشية كنوع من متابعة الأعمال التي كانت العصابة تقوم بها في هذا المكان، والأفظع أن هناك طفلة تعيش معه!

الغريب في الموضوع أنهم لم ينزفوا دمائهم من أعناقهم، أو صدورهم، كما قد توقع في البداية، حيث كان توقعه لسبب مقتلهم هو رصاصة في الرأس أو الصدر لكل منهم أو ربما عدة طعنات، ولكن مصدر الدماء كان واحداً، فكل منهم كان ينزف من بين فخذيه، وليس بسبب رصاصة كما قد يُخيل لك في الوهلة الأولى، ولكن الموضع الحساس كان مأكولاً تماماً، وكأن أسداً يتغذى على الأعضاء الذكرية قام بسلبهم رجولتهم بعنف، ثم تركهم ينزفون حتى الموت!.

أي وحش فعل هذا؟

أخذ يستعيد الأحداث سريعاً...

"المنتقمون لا يرحمون" !

أربعة شبان قتلوا في وقت قريب، قبل أقل من يوم على الأغلب، فدماؤهم لم تجف بعد حتى، نظراً لكمية الدماء التي ستحتاج لفترة طويلة لتجف قد يقول أنهم هنا منذ يومين، ينزفون حتى الموت، اللعنة، الفكرة ذاتها مقززة وتصيبه بالغثيان والقشعريرة

في الوقت نفسه، ثم هناك ذلك التقويم الغريب على الجدار، البصمات الأربعة في المربع الخاص بيوم أمس بالتحديد!

أربعة شبان، وأربعة بصمات..

هذا يعني أن كل بصمة على التقويم تعني روحاً بريئة، أُزهقت على يد هذا المختل الذي يسكن هذا القصر، إستعاد في عقله عدد البصمات التي رآها، فوجدها تتجاوز العشرين، في هذا الشهر فقط، فكم سيكون عدد ضحايا هذا المجرم في الإجمال؟!

قرر أنه لا يمكن أن يبقى في هذا المكان لثانية أخرى، فلتذهب كل أموال العالم إلى الجحيم، لأن بقائه هنا سيكون خطراً داهماً على حياته، فهو أصبح متأكداً الآن أن هناك شخصاً ما يعيش في القصر، وهذا الشخص هو قاتل سفاح بالتأكيد، ولن يتوانى عن قتله إن رآه!

إستدار ليخرج من المكان، صعد الأدراج بأقصى سرعة، فسقط منه الكشاف، ولكنه لم يهتم لإستعادته حتى، كان يسير نحو الضوء القادم من الأعلى كذبابة، ثم تجمد عند الأدراج الأخيرة عندما شعر بشيء يحجب الضوء تماماً، فشعر بشعور الذبابة عندما تتجه للضوء فتقتلها الكهرباء، كان يشعر وكأنه يهرب من المجزرة إلى يدي الجزار!

رفع رأسه ببطء ليجد أمامه مفاجأة ثالثة أكبر بكثير، فقد كان عزرائيل يقف أمامه مباشرة، يسد باب القبو بجسده، وعلى وجهه إبتسامة مجنونة، وكانت إبتسامته مرعبة، وبكل المقاييس!.

**********

# الفصل السادس

## الهروب مِن المـوت

فتح اللص عينيه ببطء، ليجد نفسه في صالة المنزل، على الكرسي الخشبي الشبيه بالعرش، وأمامه مباشرة يقف عزرائيل حاملاً كأساً من النبيذ وسيجارة مشتعلة في يد واحدة، وباليد الأخرى يعبث بشعره الطويل بشيء من الضجر الواضح.

لم يعرف متى فقد الوعي ولا كيف، ولكنه يذكر ظهور عزرائيل أمامه وعلى وجهه إبتسامة جمدت الدماء في عروقه، ثم لا شيء، لم يعرف ماذا حدث، إسودت الدنيا بأكملها في عينيه فجأة، وذهب في عالم آخر، قبل أن يفتحها ليجد نفسه هنا.

حرك يديه متوقعاً أن يكون مقيداً ولكنه لم يكن كذلك، كان جالساً على الكرسي دون قيود، وأدرك أن تركه حراً بهذا الشكل يعد نوعاً من التحدي له كي يستطيع الهرب من هذا المجنون الذي ترك أربعة جثث في منزله بعدما أفرغ ما في أجسادهم من الدماء بطريقة شديدة البشاعة.

كان أمامه تحدي بالغ الصعوبة، فهو لا يحاول الهروب من قاتل مختل، يحتوي تقويم أيامه على تعداد قتلى مرعب، ولكنه يحاول الهروب من الموت، حرفياً.

- ما إسمك؟

سأله عزرائيل ببروده المعتاد، وفي عينيه نظرة مرعبة، تتحداه أن يجرؤ على الهرب، كي يكون مصيره كمصير هؤلاء المساكين في الأسفل، وينتهي به المطاف كبصمة على تقويم عزرائيل ، كضحية أخرى من ضحاياه، تيقن اللص من حقيقة أن سوائل جسده قد جفت من شدة الخوف، ابتلع ريقه بصعوبة شديدة، وفتح فمه ليجيب ولكن الحروف اختنقت في حلقه، ولم يستطع الإجابة، فما كان من عزرائيل إلا أن سأله مجدداً بنبرة مرعبة:

- ما إسمك؟ وما الذي تفعله هنا؟

أجاب متلعثماً في كل حرف:

- سامر، اسمي سامر.

- وما الذي تفعله في منزلي يا سامر؟

لم يجرؤ على الإجابة، وكيف له أن يجيب على مثل هذا السؤال؟

إن أخبره أنه هنا ليسرق ما لديه من مال، فلن يتردد في قتله، وفي نفس الوقت، إن حاول الكذب فكذبته مكشوفة، لذا قرر إلتزام الصمت بعدما أصبحت فكرة التظاهر بالخرس غير متاحة بعد أن تحدث!

- لا بأس، لا تجب، فأنا أعرف سبب وجودك هنا، أنت قادم لتنهب مما تركه سكان المنزل السابقون من كنوز، أليس كذلك؟

لم يحرك سامر ساكناً، فيما تابع عزرائيل:

- في هذه الحالة، فأنا أعتبر أن دمك مهدور بالنسبة لي!

إندفع سامر نحو عزرائيل مقاطعاً إياه، ومتوسلاً بخوف:

- كلا، لا تقتلني، أرجوك، فليكن في قلبك بعض الشفقة

دفعه عزرائيل بعيداً عنه بقوة معيداً سامر إلى كرسيه بحركة واحدة، رشف رشفة من كأس النبيذ الذي يحمله، ثم سأله:

- حسناً، يمكنك شراء حياتك، ولكن عليك أن تكون ذكياً!

ظَن سامر أنه قد فهم ما يعنيه عزرائيل بكلامه، يمكنه شراء حياته إن كان يملك المبلغ الكافي، ولكن من أين له بثمن روحه؟ هو الذي يحصل على لقمة عائلته بشق الأنفس، أخفض رأسه بإنكسار، مجيباً وفي حلقه غصة من أدرك أن الموت قاب قوسين أو أدنى منه:

- ولكنني لا أملك أي مال

ثم تذكر سامر شيئاً مهماً، فأردف سريعاً:

- يمكنك أخذ سيارتي إن أردت، فأنا لا أملك غيرها، حتى أن منزلي ليس ملكاً لي، وأعيش فيه بالإيجار.

تركه عزرائيل ينهي ما لديه، ثم قال:

- لم أكن أقصد المال، فلا أحد يستطيع شراء حياته عندما يقترب الموت منه، فالروح لا تُشترى..

- ما الذي تريده إذا؟

- أريد إجابة واحدة على سؤال واحد، إن أجبت إجابة صحيحة، فستخرج حياً، وإلا فاقرأ على روحك السلام!

استشعر سامر فخاً في الموضوع، ولكنه كان يعرف أن حياته معلقة بين يدي هذا الرجل، فقرر لعب لعبته حتى النهاية.

وضع عزرائيل كأس النبيذ على طاولة قريبة، ثم إقترب من سامر وانحنى عليه حتى أصبح ينظر له في عينيه مباشرة، سأله ببرود شديد، ونظراته تخترق روح سامر بعنف:

- لماذا يجب عليّ أن أتركك حياً؟

إرتجف سامر بشدة، مع شعوره بنسمة متجمدة في أنفاس عزرائيل، دون أن يعرف ما يقول، وعقله يعمل بأقصى سرعته..

- أعطني سبباً واحداً، وسأتركك تنجو بحياتك، بشرط أن يكون صادقاً في البداية، ومقنعاً، عدا عن هذا فأنت ميت

كان سامر في وضع لا يحسد عليه، خاصة أن نظرات عزرائيل كادت تجعله ينسى إسمه، فكيف له في الإجابة على سؤال مصيري كهذا؟

استجمع قوته وأجاب بصدق تام:

- لدي عائلة، زوجة وثلاثة أولاد، ينتظرون عودتي حاملاً طعام العشاء، وإلا فسينامون جوعى، أربعة أفواه جائعة، ومدينة حقيرة كهذه، لم أجد وظيفة أستطيع بها أن أطعمهم بشرف، فكان عليَ أن أسرق كي لا يموتوا من الجوع.

إستشعر عزرائيل الصدق في كلام سامر، ولكنه سأله لمجرد التأكيد:

- أنت تعرف أنه لو كنت تكذب، فسأعود لك غداً لأقتص منك، لأنك تجرأت على الكذب عليَ أولاً، ثم لمحاولتك سرقتي

صاح سامر برجاء وتوسل:

- أقسم أنها الحقيقة، دعني أعيش، رأفة بأبنائي وليس بي، وبزوجة لن يرحمها سكان المدينة إن أصبحت أرملة ومعها ثلاثة أطفال.

إبتعد عزرائيل عنه، واستند إلى طاولة قريبة، ثم قال:

- حسناً

لم يتوقع سامر الإجابة، سأله وكأنه لا يصدق:

- هل تعني؟

- بلى، سأتركك تعيش

سأله سامر بدهشة بالغة:

- حقاً؟!

- ولم أنت مستغرب؟ لقد أعطيتك كلمتي

- أتعني أنني حر؟

- طالما ستبقى بعيداً عن أملاكي

كاد سامر يبكي من الفرحة بعد كلام عزرائيل، فقد ربح روحه للتو، ولكن أبناءه سينامون دون عشاء في كلتا الحالتين كما يبدو، ولكن عزرائيل كان له رأي آخر،

حيث مد يده إلى جيب معطفه، فتحفزت عضلات سامر كلها مع هذه الحركة، متوقعاً أن يخرج مسدساً ويقتله في مكانه، ولكنه أخرج محفظته، واستل منها عدة أوراق نقدية من أكبر فئة، ثم اقترب من سامر، ومد يده الحاملة للمال نحوه، رفع سامر يده بخوف، متوقعاً أن تكون هناك خدعة، ولمس الأوراق النقدية وأخذها من بين أصابع عزرائيل ببطء، أمسك المبلغ بين يديه بدهشة، فهو لم يحمل هذا الكم من المال في حياته كلها، وفجأة، إستعاد سامر صورة الشبان الأربعة في القبو، مقتولين بوحشية، جثث خالية من الدماء، انتزعت منهم ذكورتهم وحياتهم بعنف، تردد سامر والصورة في رأسه، ثم سأله بخوف:

- هل أعطيتني المال لتشتري صمتي؟

ضحك عزرائيل بشدة لسؤاله، واهتزت جدران القصر المتهالكة لوقع ضحكته، وانكمش سامر في الكرسي مرتعباً، توقف عزرائيل عن الضحك، ولكنه احتفظ بالإبتسامة على وجهه رغم هذا، وهو يسأله بدهشة:

- أشتري صمتك؟!

إختفت الإبتسامة عن وجه عزرائيل دفعة واحدة، وحل مكانها وجهه المرعب العادي! وسامر يرتجف في مقعده بشدة، فيما أردف عزرائيل ببروده المعتاد:

- لست بحاجة لشراء صمتك، ثم أن سعر الرصاصة، كما تعلم، أقل بكثير من المبلغ الذي أعطيتك إياه، بل إن مخزن الرصاص كاملاً مع المسدس، لا يساويان معاً ربع هذا المبلغ حتى، فلماذا أعطيك المال في الوقت الذي كان يمكنني فيه إخراسك للأبد برصاصة واحدة؟

تناول عزرائيل كأس النبيذ، وارتشف منه رشفة قبل أن يتابع:

- لم أعطك المال لأشتري صمتك، أعطيته لك لشراء عشاء أبناءك، لشراء حياتهم، وكي يناموا وفي بطونهم لقمة على الأقل، ثم أنني لست خائفاً من أن يعرف أي أحد الأسرار التي لدي، رغم أن الوقت لم يحن بعد!

لم يتوقع سامر أن تخرج إجابة كهذه من بين شفتي شخص كهذا..

- أتعرف؟ رغم كل ما رأيته هنا، إلا أنك أكثر رحمة من ثلاثة أرباع سكان هذه المدينة النجسة.

إبتسم عزرائيل للمديح، رغم أنه شعر بغرابة وهو يسمعه..

- أحياناً تكون الشياطين أرحم من البشر

قالها عزرائيل وهو يرشف من كأس النبيذ ببطء، حينها تأكد سامر من صدق العبارة بعد كل ما حدث معه الليلة، ولكن سؤالاً كان يلح عليه بشدة، رغم أنه كان متأكداً من أنه سيندم على السؤال، إلا أنه قرر المخاطرة على أي حال..

- هل لي أن أسألك سؤالاً؟

هز عزرائيل رأسه أي نعم، فسأله سامر:

- هل قتلت هؤلاء الشبان في القبو؟

- أجل!

لم يتوقع سامر أن يعترف عزرائيل بجرمه بهذه السهولة، خاصة أنه يتحدث عن أربعة أشخاص، وليس واحداً أو اثنين!

سأله السؤال التالي الذي كان شبه متأكد من أنه سيتسبب بمقتله:

- هل لي أن أعرف لماذا قتلتهم؟

وضع عزرائيل كأس النبيذ على الطاولة التي يستند إليها، ثم إستدار نحو سامر وفي عينيه نظرة مرعبة بحق، ثم أجاب:

- لأنهم حاولوا اغتصاب فتاة بريئة.

أخفض سامر رأسه بعد الإجابة غير المتوقعة، ومرت في رأسه تلك الطفلة الصغيرة التي رآها، تنحنح وهو يسأله بخوف بالغ ولكن شيئاً في داخله كان يجبره على الحديث:

- وكيف يطاوعك قلبك على ترك طفلة بريئة في منزل يحتوي قبوه على أربعة جثث؟!

إرتفع حاجبا عزرائيل باستغراب، وهو يرد على السؤال بسؤالين:

- طفلة في المنزل؟ ما الذي تتحدث عنه؟

- هناك طفلة في المنزل، كيف لك ألا تعلم بهذا؟

وفجأة، انقلب عزرائيل رأساً على عقب، أسرع نحو سامر وأمسكه من تلابيبه ليرفعه في الهواء ناظراً في عينيه وهو يسأله بصوت مرعب:

- إسمعني جيداً، الكلام الذي تقوله خطير للغاية، أخبرني بكل ما رأيته قبل أن أدفنك في مكانك!

فتح سامر فمه ليتحدث ولكنه كان يختنق، كيف له أن يتحدث وليس في رئتيه هواء يخرجه مع حديثه؟!

هزه عزرائيل بعنف ليتحدث:

- أجبني أيها الملعون!

أخذ سامر يتلوى بين يدي عزرائيل ووجهه يشحب من شدة الضغط الذي يمارسه عزرائيل على رقبته، دفعه عزرائيل بعيداً كي لا يموت بين يديه بعد أن عفى عنه قبل قليل.

اعتدل سامر بصعوبة وهو يلتقط أنفاسه ويحاول الحفاظ على توازنه بصعوبة شديدة، ثم أجاب أخيراً:

- كانت هناك طفلة في المنزل عندما دخلت إليه

سأله عزرائيل وهو ينظر له دون أن يرمش حتى:

- أخبرني عن مواصفاتها، لا أريد أن أسحب الكلام من فمك.

- كانت في الثالثة أو الرابعة من عمرها تقريباً، شقراء ولها عينان زرقاوتان، كيف لك ألا تراها في المنزل؟ كنت أعتقد أنها ابنتك!

أخفض عزرائيل رأسه وهو يقول محدثاً نفسه:

- إذا فهي موجودة بالفعل، أي أنني لست مجنوناً!

سأله سامر بإهتمام متناسياً الموقف المشحون:

- من هذه الفتاة؟

رفع عزرائيل رأسه بسرعة لينظر لسامر وكأنه قد نسي وجوده تماماً، وصاح به بعصبية هادرة:

- ما الذي تفعله هنا حتى الآن؟ أخرج من منزلي أيها اللص اللعين قبل أن أغير رأيي وأقتلك في مكانك!

قالها عزرائيل بنبرة صوت مرعبة، وعيناه تحولتا لشكل مرعب بغتة، فما كان من سامر إلا تحرك بسرعة وركض خارجاً من القصر، هارباً بروحه من موت محتم.

تجرع عزرائيل كأس النبيذ بأكمله دفعة واحدة، ووضعه على الطاولة، أخفض رأسه وقد بدا عليه التفكير، وهناك شبح ابتسامة يتراقص على أطراف شفتيه وهو يهمس لنفسه:

- إنها موجودة، لم أجن بعد!

سرعان ما تلاشت ضحكته عندما سمع صوت بكاء قادماً من الطابق العلوي، أغمض عينيه بتحفز وكأنه يحاول ألا يسمع الصوت، والتقط زجاجة النبيذ وتجرع منها جرعة كبيرة دون أن يتكبد عناء سكب كأس، مشى بعدها نحو التقويم الكبير على الجدار، وفتح علبة حديدية صغيرة في الأسفل، لنجدها علبة حبر، غمس إبهامه فيها، ومشى بين البصمات حتى وصل إلى اليوم الحالي، وطبع بصمة واحدة عليه لتعبر عن ضحية واحدة أزهقت روحها على يده في هذه الليلة.

مسح الحبر عن يده بمنديل قماشي، ثم مشى ببطء نحو القبو، وهبط السلالم بقدمين ثقيلتين حتى أصبح واقفاً أمام جثث الشبان الأربعة، وقرر أنه يجب عليه التخلص منهم فورا، كي لا يجلبوا له مزيداً من المتاعب.

تناول سلسلة مفاتيح معلقة في مسمار في الجدار، ثم إنحنى عليهم واحداً تلو الآخر، وفك القيود والسلاسل التي تقيدهم، ثم وقف فوق رؤوسهم ببرود، وأشعل سيجارة، اقترب بعدها من زاوية القبو، حيث هناك سجادة موضوعة في الزاوية تماماً، لتغطي مساحة كبيرة، أزاح السجادة لنجد تحتها باباً حديدياً مقفلاً بقفل صغير، فتحه بسرعة، ورفع الباب وأسنده للجدار، كان الباب يؤدي لفتحة عميقة في الأرض، وفي داخلها كان هناك سائل يميل للون الأحمر الداكن، تفوح منه رائحة كريهة للغاية.

بسيجارة متدلية من شفتيه، أخذ عزرائيل يجر الشبان الواحد تلو الآخر، ثم يرميهم في الفتحة، إلى السائل مباشرة، حتى إنتهى، ووقف يراقب ما يحدث بهم.

كانت جثث الشبان تذوب، حرفياً، في بركة عميقة من الأسيد، أخذت عظامهم البيضاء تظهر من تحت الجلد الذي استحال سائلاً، وملامحهم تختفي تدريجياً، وشعورهم تحترق، وملابسهم ذابت تماماً!

راقب عزرائيل المشهد لدقائق، بإستمتاع تام، وفي عقله يستعيد أصوات صرخاتهم، وقصته معهم، والتي جعلتهم يموتون بهذه الطريقة على يده، تذكر الذئاب البشرية التي تتآكل ببطء في الأسيد الآن، وعاد بذاكرته إلى اليوم إياه!.

**********

# الفصل الرابع

## ذئاب بشرية

الأحد ١٥ نوفمبر ١٩٨٢م.

كانوا أربعة شبان، في أوائل العشرينات، يقفون بجوار سيارة والد أحدهم، ريثما ينتهون من التدخين والشرب، بعدما منعهم صاحب السيارة من إشعال سجائرهم فيها لأن والده سيقتله إن شم رائحتها التي لابد وأنها ستعلق فيها، فما بالك إن تجرأ أحدهم وسكب بعض البيرة على جلد السيارة الثمين عن طريق الخطأ؟

كانت الساحة التي يقفون فيها فارغة تماماً في هذا الوقت المتأخر من الليل، أدار أحدهم عينيه حوله باحثاً عن مخلوق آخر غيرهم، فلم يجد أحداً، إلا من سيارة على مسافة ليست بالبعيدة عنهم، يجلس فيها رجل غير واضح الملامح، ويمد يده الحاملة لسيجارة مشتعلة من نافذة السيارة، وبجواره شيء بعينين غريبتين أقرب للون الأحمر، ومع التدقيق اكتشف أنه كلب!

رمى أحد الشبان بسيجارته أرضاً، ودهسها بقدمه، ثم رفع رأسه لصديقه الذي كان يجرع ما تبقى في زجاجة المشروب الرابعة له هذا المساء، وسأله:

- إلى أين سنذهب الآن؟
- لا أعرف، إقترح مكاناً.

سكت الشاب مع رؤيته لصبية تقترب من بعيد، مرتدية ملابس ثقيلة لتحتمي من البرد، وشعرها الأسود يسقط على وجهها كل حين وآخر بسبب الهواء، فتبعده لما وراء أذنها لتمنعه من الدخول في فمها وعينيها، وخلال ثوان كان الشبان الأربعة واقفين

مكانهم دون أن يفعلوا شيئاً سوى تأمل الفتاة، وكأنهم لم يروا أنثى في حياتهم، وفي عينيهم لمعة لا تخفى على أحد.

كانت تقترب بسرعة، وزادت سرعتها أكثر عندما انتبهت للشبان ونظراتهم التي لا تبشر بخير بالتأكيد، كادت تغير اتجاهها لولا أن فرق المسافة كان أكبر بكثير، أخذت نفساً عميقاً ووضعت يديها في جيوب معطفها، ثم واصلت المسير بتردد.

نظرة الشر لا تخطئها عين، خاصة إن كان الناظر لا يحاول إخفاء هذه النظرة، حينها فليكن الرب في عونك لتتحمل ما سيأتيك!

كانوا سكارى لحد الثمالة، وقد ساد الصمت بينهم بعد أن كانوا يضحكون ويتمازحون بصوت عالٍ، ونظرهم مصوب للفتاة التي صارت على بعد أمتار قليلة منهم، نخز أحد الشبان صديقه كي يناوله علبة السجائر، ثم تناول سيجارة منه وأشعلها كي يحاول أن يبدو بمظهر أكثر رجولية من أصحابه، معتقداً، بعقليته المراهقة الساذجة، أن تلك السيجارة ستزيده رجولة أو جاذبية في عيني تلك الغريبة التي تقترب منهم ورائحة الخوف تفوح منها، حاولت عدم النظر لهم، لتمر مسرعة مختصرة عبارات المعاكسة قليلاً، ولكن عيونهم كانت تقول أنهم لن يكتفوا برمي بعض كلمات الإعجاب فحسب، نظراتهم كانت تبشر بالأسوأ!

دخلت الفتاة نطاق الشبان، فأسرع الشاب الحامل للسيجارة نحوها، واقترب منها ليمشي بجوارها كما لو أنه ظلها، ورأت في عينيه الشر بأوضح صوره، سألها بأسلوب حاول أن يجعله يشبه الغزل، ولكنه خرج بشكل شديد السماجة من بين شفتيه:

- إلى أين أنتِ ذاهبة أيتها الجميلة؟

لم ترد، أخفضت رأسها للأرض، وزادت من سرعتها أكثر، في اللحظة التي تحرك فيها بقية الشبان لينضموا لصديقهم، لتنهال عبارات الغزل والإعجاب على رأسها، بعضها كان عادياً من النوع الذي تسمعه كل يوم، ولكن البعض الآخر كان مُهيناً بشدة.

أخذوا يتحدون بعضهم في من يستطيع رمي العبارة الأكثر قذارة، لتتساقط النكات الجنسية من أفواههم عليها، لم يتركوا شيئاً فيها إلا وتغزلوا فيه، إبتداءاً من شعرها وعينيها وشفتيها، وأخذوا ينحدرون بعباراتهم خلال جسدها حتى كادوا يصلون لأصابع قدميها!

حاولت أن تتجاهلهم قدر المستطاع لعلهم يذهبون بحال سبيلهم ويتركونها، ولكن الشبان قرروا الانتقال للمرحلة التالية، لم يعد الأمر مجرد تسلية، هم يريدون أكثر مما هي مستعدة لتقديمه لهم، ولن يكتفوا بمجرد نظرة أو موعد مع أحدهم، أسرع أحدهم ليقطع عليها الطريق ووقف أمامها مباشرة، ناظراً لها بعينين لعب الخمر بهما فجعلهما كعيون الدواب تماماً، لا تميز الأخضر من اليابس.

إستجمعت كل قوتها وحاولت دفعه بعيداً عن طريقها ولكنه لم يتزحزح، فيما كانت تفكر في شيء واحد فقط، هل تحمل رذاذ الفلفل معها أم أنها نسيته كالعادة؟ وكان الإحتمال الثاني هو الأقرب في رأيها..

- ما رأيك أن تذهبي معنا؟

قالها أحدهم بأسلوب مستفز للغاية، فتمنت لو أنها رجل كي تقوم بركل مؤخرته بعيداً، هو وثلته الفاسدة من الشبان المدللين، ولكن ماذا يمكن لامرأة أن تفعل في هذه المدينة؟

فضلت تجنب مخاطر الوقوف معهم ومواصلة المشي لعلهم يتركونا بحال سبيلها، لكنهم لم يكونوا ينوون تركها، أمسك أحدهم أمسك بيدها بعنف وجذبها نحوه بقوة ليمنعها من الإبتعاد، نظرت في عيني الشاب مباشرة، على بعد سنتيمترات بسيطة منه فحسب، كانت عيناه زائغتين، ولكن الشهوة كانت تطل منهما بوضوح، ورائحة الكحول تفوح من عينيه لشدة ما شربه.

إنحنى الشاب عليها، ليشم عطرها بتلذذ بالغ، ثم اقترب فجأة وأطبق شفتيه على شفتها السفلية بعنف، فيما تجمدت الفتاة مكانها في مزيج من الألم والقرف في آن واحد، قبل

أن يبتعد الشاب وهو يلعق شفتيه بإستمتاع، ثم رفع إبهامه أمامها دليل الإعجاب، همس لها في أذنها:

- طعمك كالعسل المصفى!

صفعته الفتاة بكل غضبها فسقط أرضاً من شدة سكره، كان يضحك بشدة، رغم أنه قد تعرض للإهانة على يد فتاة للتو، وهي كبيرة في نظر شاب بصحبة أصدقائه، ولن تمر على خير خاصة إن كانوا بهذه الوضاعة، نهض واقترب منها وقد إختفت الضحكة عن شفتيه لتحل محلها نظرة شريرة خالصة، مد يديه نحو معطفها وأمسكه ثم قام بتمزيقه لقطعتين بحركة عنيفة واحدة، صرخت الفتاة بخوف وقد أخذت الأحداث منحنى خطيراً للغاية، لقد أصبحت في خطر حقيقي.

لم تتوقع أن يسمع أحد صرختها، خاصة في مكان منعزل كهذا وأغلب من سيرونها هنا سيعتقدون أنها قادمة معهم ولكنها تتدلل فقط، ثم أن ثلاثة أرباع سكان المدينة "من رجال ونساء" لن يجرؤوا على الإقتراب، إلا إن كانوا يريدون المشاركة طبعاً!

أما أن يقترب أحدهم ليحاول إنقاذها من أيدي هؤلاء الذئاب البشرية، فهذه مجرد حكاية أخرى من حكايات الخيال الجامح التي يستحيل حدوثها في الواقع، خاصة عندما تأخذ في حسبانك الموقع الجغرافي الذي تدور فيه هذه الحادثة، نحن يا أعزائي -إن لم تكونوا قد فهمتم بعد- في أدنى نقطة في العالم، وهذه المعلومة لا علاقة لها بارتفاع الأرض عن سطح البحر، بل لها حساب آخر، نحن هنا نقيس دناءة وحقارة سكان هذه المدينة بالمقارنة ببقية المدن الأخرى فوق المُستديرة الأرضية!

كان الشبان قد طوقوها الآن في ما يشبه الدائرة، حاولت الإبتعاد ولكن أحدهم أمسكها من كم قميصها ليتمزق الكم مجدداً تحت تأثير جذبته القاسية، كانوا يجردونها من ملابسها ببطء في منتصف الساحة، ولم تكن تملك القوة الكافية لمقاومة أربعة شبان مشحونين بقوى شيطانية.

صرخت الفتاة بأعلى صوتها، ودفعت أقربهم بعيداً، فيما كان الشبان يطوقونها من جديد، دون إهتمام بصرخاتها على الاطلاق، فهم يعرفون طبع سكان المدينة التي يعيشون فيها، يسقط أحدهم فينهض ليقترب منها مجدداً كذباب ينجذب للحلوى مهما طُرِدَ بعيداً عنها!

باتت متيقنة من أنها النهاية، هكذا ستنتهي حياتها، سيغتصبونها تباعاً ثم سيتركونها عارية ها هنا، لتصبح حديث المدينة لعدة أسابيع قادمة، وربما يقتلونها بدم بارد ويرمون بجثتها في القمامة، كل هذا ما كان ليحدث لو أنها كانت تعيش في أي مدينة أخرى، ولكن ما حدث بعدها لم يكن متوقعاً!

فجأة، ظهر رجل ما إلى جوارها مباشرة، لم تعرف كيف دخل الدائرة معها، أو من أين أتى، ولكنه لم يكن أحد الشبان الأربعة، وكان يقف، على عكسهم، معطياً ظهره لها وكأنه يحميها ...

لم تصدق ما يحدث، أهي تحلم يا ترى؟

لابد أنها تحلم!

كانت مفاجأة الشبان الأربعة لا تقل عن مفاجأتها بظهور الرجل، كان يقف ناظراً للشاب الذي استلم دفة قيادة أصدقائه من الذئاب منذ البداية، تلاقت أعينهما، لنلاحظ أن للرجل عينين مختلفتي اللون، إحداهما خضراء والأخرى زرقاء، لم يدرِ أيٌ من الذئاب أن عزرائيل قد حَضَر بينهم، والمصيبة ليست في أنه قد حضر، المصيبة هي أن عزرائيل كان غاضباً، وغضب عزرائيل لا ينتهي إلا بسفك الدماء!

- من أنت؟

سأله الشاب بإستغراب شديد، ولكن عزرائيل لم يرد، أخفض رأسه وكور قبضته بغضب لا حاجة لأن يخفيه بعد ما رآه في الدقائق الماضية، والتي قضاها يراقب في صبر لعلهم يتركونها وشأنها، وكأنه يعطيهم فرصة أخيرة في النجاة من غضب عزرائيل،

ولكنهم كانوا مُصرين على التواجد في المكان الذي ينفجر فيه أخطر بركان على وجه الأرض، وإصرارهم هذا سيعني احتراقهم بلهيب نيرانه دون رحمة.

شعر الشاب بإهانة أمام أصدقائه بعد تجاهل عزرائيل له وعدم رده على سؤاله، فما كان منه إلا أن رفع يده وأرسل لكمة نحو عزرائيل، ولكن الأخير رفع رأسه فجأة، وأمسك بيد الشاب وهي في طريقها نحوه، ثم لكمه على فكه مهشماً أنفه ومحطماً أسنانه في الوقت ذاته ليسقط الشاب أرضاً وبجواره ضرسان ناقصان من فكه!

إستدار عزرائيل بعدها نحو البقية، وأمسك بإثنين منهما من رأسيهما، ودفعها نحو بعضهما ليرتطم رأس كل منهما بالآخر قبل أن يسقطا أرضاً وكل منهما يمسك برأسه متألماً، في نفس الوقت كان الشاب الرابع يوشك على ضرب عزرائيل لولا أن الأخير إبتعد في اللحظة الأخيرة، ثم أمسك بالشاب من رقبته، ورفعه في الهواء وكأنه بخُفِ الريشة، ونظر في عينيه مباشرة بكل غضبه، لترتجف كل عضلة في جسد الشاب من جراء هذه النظرة.

نهض الشبان الثلاثة عن الأرض وهم يصدرون آهات متألمة بعد ما فعله عزرائيل بهم، وتجمعوا حول ملاك الموت الغاضب وقد بدا عليهم الخوف الشديد، خاصة وهم يرونه يقوم برفع صديقهم في الهواء وكأنه لا شيء، تبادلوا النظرات في تردد، ثم تشجعوا وانطلقوا نحوه مسرعين لعلهم يغلبون قوته بكثرتهم.

دقيقة من الزمن، ليست بالشيء الكبير، ولكنها إن وضعت في حسابات عزرائيل، فهي تعد قيمة للغاية، ويمكن أن ينجز الكثير فيها، فخلال هذه الدقيقة حدثت الكثير من الأمور، فيما كانت الفتاة تراقب ما يحدث بوجل دون أن تستوعب كيف يمكن لهذا الشاب أن يفعل كل هذا لوحده، ففي هذه الدقيقة قام عزرائيل بما لا يمكن لأي رجل آخر أن يفعله.

رمى عزرائيل بالشاب المُحلق بين أصابعه نحو عمود النور، ليرتطم به ويسقط أرضاً وهو يمسك بظهره الذي تلقى الصدمة بأكملها، ودون إضاعة للوقت قام عزرائيل بلكم الشاب الأول مرة أخرى فكانت تلك اللكمة هي القاضية، ليسقط الشاب بعدها على

الأرض مغمى عليه، وإستدار بعدها نحو الشاب الثاني الذي كان يوشك على لكمه، وأمسك بيده ولواها بحركة عنيفة محطماً كتف الشاب دفعة واحدة، ليتركه بعدها على الأسفلت يتلوى كخروف مذبوح!

إنهال عزرائيل بعدها ضرباً على الشاب الثالث، وكأن له ثأراً معه، متخيلاً ما كان ليحدث لو لم يكن موجوداً ها هنا، وكانت تخيلاته تلك تزيد غضبه أكثر وأكثر مع كل مشهد يتخيله، كل مشهد يمر أمام عينيه يجعله يستشيط غضباً أضعافاً، وعندما إنتهى من ضربه اكتشف أن الشاب قد فقد الوعي بعد عدة لكمات فحسب.

أمسك عزرائيل بالشاب الرابع، والذي كان يحاول النهوض ليهرب من هذا المختل الذي أوسع رفاقه ضرباً بهذا الشكل، وطوق عنق الشاب بذراعه بإحكام، ثم نظر نحو الفتاة نظرة ذات معنى، فإقتربت بتردد ثم أسقطت لكمة بحجم خوفها على عذريتها فوق أنف الشاب لتنفجر الدماء منه بغزارة، لكن عزرائيل لم يكتفِ بهذا، فأدار الشاب نحوه وأسقط لكمة أخرى بحجم كرهه لهذه المدينة على فك الشاب ليسقطه فاقداً للوعي بجوار أصحابه الثلاثة.

نهض عزرائيل، وأخرج من جيبه منديلاً قماشياً، مسح به الدماء عن وجهه ويديه، وهو يلهث من فرط غضبه قبل أن يكون التعب سبب لهاثه، ألقى نظرة على الفتاة فوجدها ترتجف، بمزيج من السعادة والدهشة، فهي لم تكن تتوقع أن ينقذها أحد من سكان هذه المدينة، ولا زالت تعتقد أنها في أحد أحلام اليقظة حتى هذه اللحظة،

نظرت للشبان الأربعة فاقدي الوعي على الأرض، وهي لا تزال عاجزة عن إستيعاب ما حدث للتو، كيف دخل فجأة فيما كان يمكن له أن يواصل طريقه دون أن يدخل في مشكلة من أجلها؟ جال في خاطرها أنه ليس من سكان المدينة، فساكنو هذه المدينة خنازير شهوانيون لا يعرفون الشفقة أو الرحمة، ولا يمكن لأي منهم أن يتدخل لمساعدتها، سألته بتردد وكأنها تخشى أن يفهمها بشكل خاطئ، فخرج سؤالها مبهماً للغاية:

- هل أنت من هنا؟

إبتسم لسؤالها الذي خرج من العدم قبل أن تشكره على إنقاذ حياتها حتى، دون أن يفهم ما تعنيه بالضبط!

- إشرحي أين تقع (هنا) هذه؟!

ضحكت لغموضها، وسؤالها غير الواضح، فتنحنحت وهي تحاول صياغته بأسلوب أفضل في عقلها، لا تريده أن يشعر بالإهانة مما ستقوله، ولكنها في نفس الوقت تريد أن تشرح له كم أنه فريد من نوعه في أرض من المتشابهين، وليت هذا التشابه كان في أمر حسن.

تحدثت بعد صمت طال أكثر من اللازم شارحة:

- أعني، هل أنت من سكان المدينة؟

فهم عزرائيل ما تعنيه بسؤالها، وكان تخمينه صحيحاً.

- أجل

لم تتوقع أن يكون من سكان المدينة، هذا الرجل الشهم القوي، والوسيم جداً بالمناسبة، لا يمكن له أن يكون واحداً من رجال المدينة المختلين عديمي الأخلاق والمبادئ، والذين لن يتوانى أي منهم عن الإقتراب للمشاركة في عملية إغتصابها بدلاً من التفكير في مساعدتها مجرد التفكير...

- إنه أمر يدعو للإستغراب، أليس كذلك؟

- بالفعل

ضحك لإجابتها، فيما تابعت هي:

- لا أقصد الإهانة، ولكن رجال هذه المدينة، كما تعلم، ليسوا من النوع الذي قد يتقدم لمساعدة فتاة في ظرف كهذا!

- أعرف، وكي أكون صريحاً معكِ، فهم ليسوا من النوع الذي قد يساعد أي مخلوق في أي ظرف كان، إن أردتِ الدقة!

إبتسمت لصدقه، وشعرت بأنه مختلف عنهم فعلاً، هذا الإختلاف كان يجذبها نحوه بشكل رهيب..

- شكراً جزيلاً، بالمناسبة .....

قالتها بصدق بالغ، فإبتسم عزرائيل وكأنه لم يفعل شيئاً:

- العفو!

لم تكن ملامحه واضحة جيداً، ولكنه كان وسيماً للغاية، أو ربما هو موقفه معها الذي جعله يبدو بهذه الوسامة، لم تكن متأكدة!

- لا أعرف كيف سأرد لك ما فعلته معي؟

نظر عزرائيل للشبان على الأرض، والذين قام بإفقادهم الوعي بيديه العاريتين، ثم فكر بأنه لم يَشفِ غليله منهم بعد، فإبتسم وهو يفكر فيما يمكن أن يفعله بهم أكثر مما فَعل.

- أنا أعرف!

أجابها ببساطة، ناظراً في عينيها، فنظرت له بشك دون أن تتوقع أن يكون ما يدور في فكرها من سيناريوهات الآن هو ذاته الذي يفكر به هذا الرجل، وفهم عزرائيل معنى صمتها، فإتسعت إبتسامته أكثر وهو يتخيل المشاهد التي تدور في رأسها..

- لا تدعي تفكيرك يذهب بعيداً، أريد منكِ خدمة.

أجابت بسرعة، متوقعة أن تندم على إجابتها:

- أطلب ما تريد

نظر عزرائيل لسيارة الشبان القريبة، ثم إستدار نحو الفتاة متسائلاً:

- هل تجيدين القيادة؟

كان سؤاله غريباً، ولكنها أجابته على كل حال:

- أجل، لماذا تسأل؟

نظر عزرائيل سريعاً لسيارته ولسيارة الشبان، ثم أجاب:

- أريد مساعدتك، سنقوم بوضع إثنين منهم في الحقيبة الخلفية لسيارتي، وسنضع الإثنين الآخرين في حقيبة سيارتهم!

إستغربت لطلبه غير المتوقع، وسألته بدهشة:

- لماذا؟

- أريد أخذهم لمنزلي، كي أنهي ما بدأته معهم، فهم يستحقون أكثر من هذه الدغدغة!

ضحكت للمصطلح الذي استخدمه، وفكرت في نفسها أنه شاب غريب الأطوار بالفعل، ولكن غرابته ملفتة للقلوب بلا شك!

- أتعتبر ما فعلته مجرد دغدغة؟ لقد مرغت أنوفهم في التراب!

- هذا لا شيء مما ينتظرهم في منزلي، والآن أجيبيني، هل تريدين مساعدتي من أنك ستجبرينني على حشرهم جميعاً في سيارتي؟

صُدمت لطلبه، ولكنها قررت أن تساعده كنوع من رد الجميل، ثم أن هذا سيزيد من عذاب هؤلاء الذئاب، إذاً فهي ستضرب عصفورين وأربعة ذئاب بحجر واحد، ستشفي غليلها وستعلمهم درساً لن ينسوه في حياتهم.

صاحت بحماس:

- موافقة

- هيا بنا إذاً.

وأتبع قوله بالفعل سريعاً، تفرق عزرائيل والفتاة، فإتجه هو نحو سيارته وأدارها ثم حركها حتى أصبحت عند الشبان المكومين فوق بعضهم على الأرض كخُرَق مستعملة بالية، وقامت الفتاة بالمثل.

فتح عزرائيل الحقيبة الخلفية لسيارته، ثم إنحنى على إثنين من الشبان وحملهم على كتفيه وكأنه يحمل كيسي قطن، ورماهما في حقيبة سيارته وكأنه يرمي شوال بطاطس، وسط دهشة الفتاة لقوته البالغة رغم أنها رأت مفعولها قبل قليل، وقررت أنها ستساعده حتى النهاية، فأمسكت بيدي أحد الشبان وأخذت تجره نحو سيارته، ثم وقفت بجوار السيارة مُفكرة في طريقة لحمل هذا الحيوان، فإقترب منها عزرائيل ليريحها من هذا العناء:

- دعيه، وأحضري الآخر.

أومأت برأسها وأسرعت تنفذ أوامره، فحمل عزرائيل الشاب ووضعه في الحقيبة الخلفية للسيارة، فيما كانت الفتاة تعاني في جر الشاب الأثقل بينهم حتى وصلت نحو السيارة، فحمله عزرائيل ببساطة ورماه فوق صديقه وأغلق الحقيبة عليهما.

- إتبعيني

- إلى أين سنذهب؟

- ستعرفين

لم تعرف لماذا كانت واثقة به لهذه الدرجة، ولكنها قررت أن تسمع لأوامره مهما كانت، فما فعله من أجلها أكبر من أن تعارضه على شيء بسيط كهذا، خاصة أنه ينوي معاقبة الشبان أكثر، لذا فهي معه تماماً في هذه النقطة، أغلق عزرائيل حقيبة سيارته، ودار حولها وهَمّ بركوبها، عندما أوقفته الفتاة منادية:

- لحظة يا سيد، لم أعرف إسمك بعد!

أجاب عزرائيل بعفوية:

- عِز ..

لكنه سكت قبل أن يتابع إسمه الليلي المرعب، وقرر إخبارها بإسمه الحقيقي تجنباً لإخافتها أكثر، فما رأته الليلة يكفيها لتعيش بقية حياتها خائفة من جميع الرجال..

- أنا زين، وأنتِ؟

لم يكن عزرائيل - أو زين لا فرق!-، مهتماً بمعرفة إسمها، أو أي شيء عنها في الواقع، ولكنه قرر سؤالها من باب الذوق لا أكثر..

- أنا سيلينا

- يا له من إسم جميل يليق بفتاة جميلة مثلكِ

أخفضت رأسها بخجل لمديحه، وأجابته ناظرة للأرض:

- شكراً

ابتسم عزرائيل لخجلها، كانت تذكره بشخص في ماضيه، وكأن تصرفها الغير مقصود قد أعاده سنوات إلى الماضي، قامت هذه الفتاة بفعل عفوي للغاية، ولكنه جعل شيئاً يتحرك في داخله، شيئاً ظن أنه مات واندثر منذ زمن بعيد، لم يكن الحب، كان ما شعر به هو نبضة أفلتت من جانب في قلبه لم يعد الدم يصل إليه، لأسباب يطول شرحها.

كان إسمها جميلاً فعلاً، لم يمكنه الإنكار، لكن عزرائيل لم يكن ليذكر هذه النقطة لو كانت أمامه أي فتاة أخرى، إلا أنه قال ما قاله كي يجعلها ترتاح له، فما ستراه منه في هذه الليلة سيجعلها تخاف من إسمها حتى، لكن ما لم تكن سيلينا تعرفه، هو أنها ستقضي بقية هذه الليلة الباردة مع عزرائيل شخصياً، وستراقبه وهو يقوم بمعاقبة أربعة ذئاب بشرية، وهذا العقاب أبشع من كل توقعاتها.

**********

# الفصل الثامن

## ليلة مع قابض الأرواح!

توقفت السيارتان أمام منزل عزرائيل، قصر ضخم، كبيوت الأمراء إن أردت تشبيهه، ترجل كل من عزرائيل وسيلينا من السيارتين، ووقفوا أمام المنزل، وأسرع الكلب "دون" قافزاً من نافذة السيارة، ودخل إلى البيت من باب صغير مخفي مخصص له، كانت سيلينا مذهولة من القصر الذي يعيش فيه هذا الرجل الغامض، خاصة أن سيارته فخمة بالفعل، وتوقعت أنه يعيش وحيداً، لأنه لن يقوم بإحضار أربعة شبان لمنزله بهدف معاقبتهم في حال كانت لديه عائلة تنتظره في المنزل، إلا إن كان يعيش مع عائلة من المجرمين، وهذا أمر مستبعد خاصة بعد الموقف الذي حدث بينهم قبل أقل من ساعة.

كانت تتأمل المنزل بذهول دون أن تشعر بأن عزرائيل قد أدخل الشبان إلى المنزل على دفعتين أثناء شرودها، ثم عاد لها بعد أن إنتهى ليسألها:

- هل تريدين بالدخول؟

فاجأها بسؤاله، فماذا يمكن أن تفعل في الداخل؟ ولماذا قد يطلب منها الدخول إلى القصر؟

سألته بتردد:

- أتعني؟ كي أشاهد؟

ضحك عزرائيل بشدة، ثم أجاب:

- طبعاً لا، فلن أسمح لآنسة مثلك برؤية ما سيحدث لهم!

عضت شفتها السفلية وقد شعرت بإنجذاب شديد نحوه، كان شديد الوسامة، ولم يفلح الظلام في تغطية وسامته، صوته، كلماته، وأسلوبه، كان مختلفاً عن أي رجل قابلته في حياتها!

- ما الذي ستفعله بهم؟

أجابها عزرائيل بتلقائية:

- سأعاقبهم!

أفلتت منها ضحكة رغماً عنها، كان يتحدث ببساطة عن معاقبة أربعة شبان بطول الجدار، بعد أن أوسعهم ضرباً لوحده، ما الذي قد يفعله بهم أكثر؟

- ستعاقبهم؟!

- بالطبع

قالها عزرائيل مبتسماً لتبدو غمازته وكأنها محفورة في خده جراء الإضاءة السيئة في المكان، فزادت سيلينا الضغط بأسنانها على شفتها السفلية أكثر حتى ظن عزرائيل أنها سوف تقضمها!

سألته بحماس:

- هل تحب معاقبة الناس؟

- فقط المذنبين منهم

أومأت برأسها متفهمة، وهي تزداد إعجاباً به في كل لحظة تمر معه، أشار لها عزرائيل كي تدخل، دون أن تعرف أن الموت بذاته يدعوها للدخول لمنزله..

- تفضلي

وافقت فوراً، ومشت خلفه حتى دخلا القصر الذي قام عزرائيل بإنارته مسبقاً، ووقفت عند الباب مشدوهة تتأمل الأثاث الفخم، والديكور الذي يفوح بذوق عالٍ،

وقف عزرائيل أمام الطاولة الكبيرة الشبيهة ببارٍ مصغر، والتي إصطفت عليها زجاجات المشروب، فيما كان يسكب لنفسه كأساً من النبيذ الأحمر، ثم إستدار نحوها متسائلاً:

- هل تريدين مشروباً؟

ضحكت ضحكة ذات معنى، وأجابت:

- يستحسن ألا أشرب!

- لماذا؟

- لأنني أفعل أشياءً غبية عندما أشرب!

أومأ عزرائيل برأسه وهو يهز كتفيه بلا مبالاة، ثم أعاد قنينة النبيذ لمكانه بعدما سكب لنفسه كأساً..

- الخيار لكِ

نادته بسرعة عندما شعرت به يتراجع:

- أعتقد أنني ...

صمتت دون أن تتابع وقد بدا عليها التردد، ووقف هو مكانه ناظراً لها وقد فهم ما يحدث، وفهم سبب ترددها هذا، خاصة بعد أن رأى شحوب وجهها سابقاً لمرأى الشبان، حتى قبل أن يحاولوا فعل شيء معها، كانت خجولة للغاية، تتحاشى نظراته وإلتقاء أعينهما بكل استطاعتها، وفي رأس سيلينا كانت الأمور مختلفة، خيالات وتوقعات لما قد يحدث بعد كأس المشروب، ليست معتادة على الشرب، وهذا يعني إنها ستفقد السيطرة على نفسها إن شربت، ولكنها قررت المخاطرة، فهو يبدو كرجل نبيل، وأفعاله السابقة تقوم أنه لن يقوم بإستغلالها في ساعة سُكر.

أكملت عبارتها بتوتر بعد صمتها الطويل:

- بعد التفكير، يمكنني أن أشرب كأساً واحدة، أنت تعرف، كأس واحدة لن تضر، وسأشربها فقط كي أتناسى ما حدث معي الليلة.

كانت متوترة للغاية، ومترددة، وقد لاحظ عزرائيل هذا دون عناء، لم يهتم للأمر فهو ليس في مزاج يسمح له بإغرائها ولم يكن يفكر فيها بأي شكل عندما طلب منها القدوم معه، كما يعرف أنه من سيضطر لإنهاء الليلة، وربما يحتاج لتوصيلها لمنزلها إن كانت ضعيفة أمام المشروب كما يتوقع، المهم هو أن لا تقضي الليلة هنا، ليس لشيء، ولكن هناك آخرين في المنزل، ولا يريدهم أن يروا ما سيحدث بينهما!

ولا تسأل من هؤلاء الآخرون لو سمحت!

سألها وهو ينظر لعينيها المصوبتين للأرض:

- ما هو المشروب الذي تفضلينه؟

أجابته بدلال لم تتعمده:

- ماذا لديك؟

إبتسم لأسلوبها الشبيه بطفلة تتدلل، وأجاب ببساطة وكأنه معتاد على هذا الأسلوب من النساء:

- كل ما تريدينه!

إقتربت منه لتنظر للزجاجات وكأنها لم ترى هذا الكم من زجاجات المشروب إلا في بار، وبعضها أغلى من أن يتم تقديمه في البار، سألته بعد أن عجزت عن إتخاذ قرارها بشأن ما ستشرب:

- ما الذي تشربه أنت؟

- نبيذ

- أحمر؟

ضحك لسؤالها، ورفع كأس النبيذ الأحمر أمام عينيها، مجيباً:

- كما ترين

أجابته بحرج:

- حسناً، سأشرب كأساً منه.

سكب عزرائيل لها كأساً من النوع ذي العنق الطويل، وناوله لها:

- تفضلي.

تلامست أصابعها وهي تأخذ منها الكأس فارتعشت كما لم يحدث معها من قبل، اللعنة، ما الذي يجذبها له بهذا الشكل، ما هو المميز في هذا الغريب بحيث يجعلها ضعيفة وهشة أمامه هكذا؟

أمسكت بكأس النبيذ بيديها الإثنتين تتأمل محتوياته مُتشاغلة عن الرجل المُغري بما لا تسمح به تربيتها، ثم رفعت رأسها نحوه مبتسمة:

- شكراً.

أدارت عينيها ماسحة المكان، محاولة إشغال نفسها بأي شيء غير المشاهد الحمراء التي لم تبارح مخيلتها منذ أن تلاقت عيناها بعيني عزرائيل، وعندها إنتبهت لتقويم على الجدار، كان كبيراً أكثر من المعتاد، وعلى الخانة المخصصة لكل يوم هناك بصمات، كانت تقوم بوضع علامة (إكس) على اليوم الذي يمر في تقويمها، وربما تكتب ملاحظة عند اليوم الذي يحتوي على مناسبة ما، ولكن ما الهدف من البصمة يا ترى؟ خاصة أن هناك أياماً تحوي أكثر من بصمة، لم تتمالك فضولها، فسألته بطريقتها المُبهمة غير المُتَعَمدة:

- ما هذا؟

أجابها ببرود وكأنه لا يريد لهذا الحوار أن يستمر:

- تقويم!

أشاحت برأسها للإجابة المقتضبة وهي تقول دون أن تنظر له:

- أعرف أنه تقويم، ولكن ما معنى هذه البصمات التي تضعها في خانة اليوم؟

لم يكن يريد إخافتها، فزَيَّف إبتسامة وأجابها بهدوء:

- المعنى في قلب الشاعر!

ضحكت لإجابته، وعرفت أنه لا يريد أن يجيب فإحترمت خصوصيته، وأخذت تنظر حولها متأملة القصر من الداخل بشكل أفضل، وكل تفصيلة فيه توحي بذوق واضح، وقد كانت مستغربة أشد الإستغراب من تَمَلُك شاب في عمره لقصر بهذه الفخامة، وأخذت الإحتمالات تتدفق إلى عقلها سريعاً، وكان أحد الإحتمالات أنه قد ورثه، أو اشتراه له والده كعقاب كي يعيش في مدينة كهذه، وإلا فكيف يمكن له أن يشتري قصراً كهذا؟

سألته بفضول بالغ:

- هل تعيش هنا وحيداً؟

- أجل

- ولماذا إخترت العيش بعيداً عن المدينة لهذه الدرجة؟

- لأنني لا أحب الإقتراب من سكانها أكثر من اللازم

أومأت برأسها متفهمة هذه النقطة، فهي كانت لتختار الحياة في أي مكان في العالم، لمجرد أن تخرج من هذه المدينة القذرة، سألته محاولاً إستفزازه قليلاً:

- ولكنك منهم، أليس كذلك؟

شعر بأنها تحاول استفزازه بحديثها، وهي لم تكن تحاول إخفاء محاولة الإغاظة هذه، هناك متعة في استفزاز الآخرين، خاصة عندما يكونون بهذه الوسامة والظرافة حين يُستَفَزون، شيء في داخلها يجبرها على إستفزازه لترى ملامحه وهو مُستفز، وخاصة أن هذه هي طريقتها الوحيدة لكي تحافظ على إستمرارية الحوار الذي يدور بينهما.

مط عزرائيل شفتيه مفكراً في إجابة سؤالها فتمنت لو تنقض عليه لتوسعه قُبلاً بكل عاطفتها، لكنها لم تكن لتفعل هذا بحال من الأحوال، ليس وهي واعية على الأقل، لكنها لا تضمن ما سيحدث إن واصلت الشرب، أما بالنسبة لعزرائيل، فقد كان يحاول إنهاء الحوار بأقصى سرعة، فلديه عمل لابد أن ينجزه، وهذا العمل ينتظره في القبو!

- ربما أكون منهم، ولكنني لست مثلهم

رشفت رشفة من كأسها، وهزت رأسها موافقة:

- أنت مختلف بالفعل!.

أومأ عزرائيل برأسه محاولاً إنهاء هذا النقاش بأقل الخسائر، كي يستطيع العودة لأسراه الأربعة المقيدين في القبو في هذه اللحظة، ولكن سيلينا جلست على الأريكة مواصلة كلامها:

- أنت مختلف، فأنا لم أكن لأقبل طلب أي شاب آخر كي أذهب معه لمنزله، ولكن بعد ما فعلته معي، يستحيل ألا أثق بك

جلس عزرائيل على كرسي أقرب للعرش، ووضع رجلاً على رجل، ناظراً لها وهو يرشف من كأس النبيذ ببطء مستمعاً لثرثرتها، حتى قاطعها عندما بدأت تتحدث عن الثقة:

- لا يفترض أن تثقي بي!

- عفواً!

استغربت لطلبه هذا، فأي شاب آخر كان ليحاول كسب ودها بأي طريقة، ولكنه كما كانت تعتقد، مختلف بالفعل!

- هل طلبت مني ألا أثق بك للتو؟

أخفض عزرائيل رأسه ناظراً لكأس النبيذ وهو يفكر في السبب الذي جعله يدعوها للدخول إلى المنزل، ربما هو حكم العادة، لا يعرف، ولكنه كان يعرف شيئاً واحداً

تعلمه على مدار حياته، وكان أحد المبادئ التي لم يتخلى عنها في طريق حياته الوعر الذي مشاه حافياً، لا تخن ثقة أحد، إن كنت تشعر أنك لن تستطيع أن تكون أهلاً لهذه الثقة، فلا تسمح له بأن يثق بك من الأساس وبالتالي فأنت لم تخنه، قد يكون المبدأ غريباً ولكن هذه وجهة نظره، وكان هذا سبب مقاطعته لها عندما دخلت في موضوع الثقة وأخبرته أنها بدأت تثق به، أخذ نفساً عميقاً ورفع رأسه ليجيب ليجدها تتأمله في فترة صمته، أفلتت منه إبتسامة رغماً عنه فكان مفعولها نارياً على سيلينا..

- أنتِ لا تعرفين ما الذي فعلته في حياتي!

تحمست سيلينا وأخذت تدافع عنه من إنتقاده لنفسه!

- أعرف شيئاً واحداً، وهو أنك أنقذتني من محاولة إغتصاب محتومة، لقد إنتشلتني من بين براثن هؤلاء الذئاب، فيما كان يمكن لك أن تتركني معهم ليأكلوا لحمي وأنا حية.

أخذ عزرائيل يُميل كأس النبيذ يمنة ويسرة، متأملاً إياه بنوع من الملل، في الوقت الذي تابعت فيه سيلينا كلامها بحماس أكبر:

- لقد أنقذت حياتي الليلة، فالرب وحده يعرف ما كانوا سيفعلونه بي بعد أن ينتهوا مني، ربما قاموا بقتلي ورميي للكلاب، من يدري؟

هز عزرائيل رأسه نافياً، وكأنه غير مقتنع بهذا المنطق الذي تتحدث على أساسه، فيما أكملت سيلينا بذات الحماس:

- أنت الرجل الوحيد في هذه المدينة، والبقية مجرد ذكور بالهوية!

أجابها ببرود وقد بدأ الحديث يضايقه فعلاً:

- هذا لا يعني أنني شخص جيد!

سألته بشك:

- ما الذي يعنيه إذاً؟

- لا يهم، أرجوك توقفي عن طرح أسئلة لا أستطيع الإجابة عليها حفاظاً على مشاعرك!

ولكن سيلينا لم تقبل بهذا الجواب، سألته مترددة مما سيقوله:

- لمَ لست مهتماً بي؟

زفر عزرائيل في ضيق، ورفع رأسه نحوها ليجيبها بما لم تكن تريد سماعه:

- لأنني لا أملك القدرة على الإهتمام بنفسي بالشكل الذي يليق بي، كيف تريدين مني أن أهتم بكِ؟!

ومجدداً، لم يعجب سيلينا هذا التبرير، فسألته في حرج:

- ألا تجدني جميلة؟

أجابها ملوحاً بكأس النبيذ في الهواء بعصبية:

- أنتِ جميلة، أنتِ قوس قزح متنقل، ولكنك مع رجل يرى الحياة كما ترينها في الأفلام القديمة، أبيض وأسود!

بعد هذه الإجابة، قررت سيلينا بينها وبين نفسها أنها لن تهتم إن كانت ستجرح مشاعره بما ستقوله بعدها، فليحترق حياً! لم يعد يُهمها، المهم هو أن تستعيد بعضاً من كرامتها وكبريائها اللذين رمتها تحت قدمه بسبب نبضة قلب شعرت بها معه، رشفت رشفة كبيرة من كأس النبيذ لتجمع قوتها كي تسأل سؤالها التالي، ثم رمت به في وجهه دون اكتراث كما لو أنها رمت عليه قنبلة يدوية:

- هل أنت شاذ؟

إرتفع الدم لرأس عزرائيل من سؤالها، لقد كانت خجولة منذ قليل، من أين أتتها الجرأة لتسأله سؤالاً كهذا؟ إما أن هذه الفتاة تتظاهر بالخجل، أو أن هذا تأثير المشروب عليها!

أجابها ببروده المُستفز:

- لقد إستنتجت أنني شاذ لأنني لست مهتماً بك؟ هذا يعني أن وجود أي فتاة مع أي شاب سيعني أن شيئاً سيحدث بينهما، وإن كان ما سيحدث مجرد إهتمام متبادل، حسناً، هذه معلومة خاطئة للغاية في رأيي، أن نلتقي في ليلة كهذه، وفي ظروف لعينة كالتي التقينا بها، ثم وجودنا تحت سقف واحد لوحدنا هنا دون أن يحدث شيء في نهاية الليلة، هذا يعني أنه ليس هناك إنجذاب بيننا، ولا يعني بالتأكيد أن أحدنا شاذ!

- في هذه المدينة، هذا هو التفسير الوحيد لأن شيئاً لم يحدث بيننا، وتذكر أنك قد التففت حول سؤالي بكلامك دون أن تجيب عليه، أجبني إن كنت تجرؤ!

فتح عزرائيل فمه ليرد، في اللحظة التي سمع فيها صوتاً بعيداً، أرهف السمع ليكتشف أنه قادم من القبو، فعرف أن أحد الشبان قد إستيقظ، نهض سريعاً واقترب من سلينا فتراجعت لحركته المفاجئة..

- لقد إستيقظوا، ولا يمكنني أن أترك ضيوفي وحيدين

نظرت في عينيه ولاحظت للمرة الأولى أن لون كل عين من عينيه مختلف عن العين الأخرى، أخضر وأزرق، يا لجمال هاتين العينين!

إستعادت كل العيون التي رأتها في حياتها، وأيقنت من صميمها أن هاتين أجمل عينين رأتهما في حياتها، سألته متناسية الحوار السابق بأكمله كأنه لم يكن:

- هل تعرف أنك تملك أجمل عينين في العالم؟

يا لهذه المرأة! كيف تقول له هذا بعد كل ما قاله لها، ربما هي ثقتها به بعد ما فعله معها، وربما هو تأثير المشروب، أجابها بإنزعاج واضح محاولاً دفعها بعيداً عنه بكلامه قدر المستطاع:

- أعرف، ولا وقت لدي لهذا الكلام!

أشاحت بوجهها لأسلوبه الفظ، فمد يده وأمسك بذقنها، فأدارت رأسها نحوه مجدداً، لينظر في عينيها مباشرة، ويهمس لها:

- أريد منك أن تعديني بشيء واحد!

أمام عينيه الساحرتين، كانت لتوافق على أي طلب:

- أي شيء !

- عِديني أنه مهما حدث، لن تهبطي إلى القبو!

- لماذا؟

- لا يهم، أريد منكِ أن تعطيني وعداً بهذا

ترددت لثوانٍ، فهي تعرف فضولها، ولكنها قررت الإنصياع لطلبه:

- حسناً، أعِدُك.

أومأ عزرائيل برأسه وقد بدا عليه شيء من الإرتياح، ثم أسرع نحو باب القبو، ووقف عنده قبل أن يهبط السلالم ثم صاح منادياً:

- دون!

لم تفهم ما يعنيه بهذا في البداية، ثم فهمت عندما رأت الكلب "دون" وهو يسرع نحو سيده، ويهبط للقبو قبله في حماس، وكأنه يفهم ما الذي سيحدث في الأسفل!

إستدار عزرائيل نحوها:

- لن أتأخر!

نزل عزرائيل للقبو، وأغلق الباب خلفه، وجلست هي وحيدة تفكر في ما يمكن أن يحدث في القبو، همست لنفسها متسائلة في فضول:

- ما الذي يعنيه بالعقاب يا ترى؟

لم تكن تعلم أنها ستكون الحاضرة الوحيدة لتسمع سيمفونية تعزفها أوركسترا مكونة من رجل واحد، أدواته الموسيقية أجساد ضحاياه، وكلمات الأغنية المصاحبة هي

صرخاتهم، ستقضي الليلة مع قابض الأرواح بشحمه ولحمه، وستسمع لأول مرة، وليس آخر مرة، نشيداً من الألم والعذاب من حناجر ثلة من الذئاب البشرية العاجزة عن فعل شيء غير الصراخ حتى تنقطع حبالها الصوتية!

**********

# الفصل التاسع

## نشيد الألم والعذاب

في القبو...

إستعاد الشبان وعيهم، ليتفاجئوا بأنهم مقيدون إلى الجدار بسلاسل حديدية غليظة، واستنتجوا بسرعة أنه قبو، لأن النوافذ عالية للغاية، ولكن ما لفت إنتباههم كان الحائط المقابل، فعليه كانت كل أنواع أدوات التعذيب التي قد تخطر على عقل، كانت تبدو باردة، وحادة، إرتجفت قلوبهم بين أضلاعهم لرؤيتها، وهم يفكرون فيما سيحدث لهم دون أن يفهموا كيف وصلوا إلى هذا المكان حتى، خاصة أن أحد الشبان يصرخ بهستيرية مما زادهم خوفاً وتوتراً لا يحتاجونه في موقفهم الذي لا يُحسدون عليه.

تصاعد صوت من الأعلى، تبعه ظهور كلب من سلالة الراعي الألماني أمامهم، وفي عينيه نظرة وحشية توحي بأنه يمكن أن يأكلهم أحياء دون تردد لو أمره سيده بفعل هذا!

ثم ظهر عزرائيل، ومع ظهوره خَرِسَ الشاب الذي كان يصرخ تماماً، لم يصدق الشبان أنه هو الذي أحضرهم لهنا، وأخذ كل منهم يقلب الإحتمالات في رأسه، مفكراً في ما يمكن أن يفعله بهم هذا الغريب.

قام عزرائيل بتقييد "دون" إلى زاوية القبو البعيدة عن الشبان، ثم أشعل سيجارة، ووقف أمامهم يدخن سيجارته بإستمتاع، فيما كانوا يحاولون فك قيودهم محدقين به برعب، متوقعين أبشع سيناريو قد يحدث!

- لا تحاولوا!

تجمد الشبان مع كلامه، خاصة أنها المرة الأولى التي يسمعون فيها صوته، لقد أوسعهم ضرباً دون أن يحتاج لأن ينطق بحرف واحد أمامهم، ماذا سيحدث لو تحدث؟!

توقف الشبان عن محاولة التخلص من قيودهم ناظرين نحوه وخوفهم يزداد مما قد يفعله..

- لن تنجحوا في الخروج من هنا ما لم أقم أنا بفك قيودكم

جمع أحد الشبان كل الشجاعة في قلبه وسأله:

- لماذا أحضرتنا إلى هنا؟

إبتسم عزرائيل لسخافة السؤال، وأجابه ببساطة:

- ألديك الجرأة لتسأل مثل هذا السؤال؟

وإتسعت إبتسامته أكثر وهو يردف:

- لا مشكلة، سأجيب على كل حال، لقد أحضرتكم لمنزلي يا سادة كي أعاقبكم على أخطائكم التي كنتم ستقترفونها، وعلى ذنوبكم التي أعرف أنكم قد قمتم بها، وبلا رحمة!

نفث عزرائيل دخان سيجارته، ثم رماها على الشبان ليستنفروا مبتعدين عنها كي لا تصيبهم فيما كان عزرائيل يراقبهم بإستمتاع بالغ، قبل أن يتحرك نحو زاوية القبو، ليقف أمام طاولة صغيرة، تجمعت عليها زجاجات صغيرة تحوي سوائل مختلفة الألوان، ومنها ما يحتوي على حبوب ستميز من بينها الحبة المسماة بـ"نصل عزرائيل" دون عناء، إختار زجاجة منها تحتوي على سائل ذي لون أزرق شبه شفاف، واقترب منهم حاملاً الزجاجة ورفعها أمام أعينهم متسائلاً:

- أتعرفون ما تحويه هذه الزجاجة؟

لم يجب أي من الشبان، أو بالأحرى أنهم لم يجرؤوا على توقع محتواها، هذا الرجل مجنون لا محالة لذا فما في الزجاجة أفظع من تخيلاتهم بمراحل!

- كما توقعت!

فتح عزرائيل الزجاجة، واقترب من الشبان، وقام بسكب بضع نقاط على بطن ووسط كل منهم، وخاصة على المنطقة الحساسة، فيما كانوا يرتجفون خوفاً متوقعين أن يكون هذا نوعاً من الأسيد الحارق، ولكن تخمينهم كان خاطئاً عندما لم يشعروا بشيء، ولكن الكلب "دون" كان له رأي مخالف، فقد هاج بشكل مفاجئ بعدما كان هادئاً وأخذ يعوي بشراسة على الشبان الأربعة الذين لم يفهموا ما الذي يحدث بعد، كان الزبد يتطاير من فمه وعيناه أصبحتا حمراوين كالدم والعروق برزت في كل أنحاء جسده، عدا عن شعره الذي انتصب بأكمله لشدة تحفزه مع شمه لرائحة السائل، يتحرك بشراسة محاولاً تجاوز قيوده ليصل إليهم.

خلع عزرائيل القفاز الذي يرتديه، ووضع عليه نقطة واحدة من السائل الأزرق، ثم رماه نحو "دون" ليسرع الأخير نحوه على الفور ويمزق القفاز بين فكيه بعنف، إتسعت أعين الشبان الأربعة برعب شديد ناظرين للكلب الهادئ الذي تحول إلى كلب مسعور في غمضة عين، وقد بدأوا يستوعبون الفكرة، في الوقت الذي تابع فيه عزرائيل كلامه ببرود:

- أعتقد أنكم قد فهمتم ما يفعله هذا السائل؟!

صاح به أحد الشبان متوسلاً:

- كلا، أرجوك، إرحمنا.

- أرحمكم؟

ضحك بشدة، وزادت الضحكة مظهره رعباً أكثر، لم يُظهر له عينيه السوداوين، ولكنهم كانوا يرونها في كلتا الحالتين في نظراته:

- تريدون الرحمة؟ حسناً، فلنتخيل أنني لم أكن موجوداً الليلة، هل كنتم سترحمون تلك الفتاة؟ لا أعتقد، لهذا فأنا لن أرحمكم!.

يتجه عزرائيل نحو "دون" ويفك قيده دون أن يفلته، وسط نظرات الشبان المرتعبة له، وكل منهم يحاول إغلاق قدميه حيث قام عزرائيل بسكب السائل، أخرج عزرائيل علبة سجائره، وأمسك إحداها بفمه وأخرجها، ثم أشعلها، متأملاً منظرهم فيما هم يرتجفون بهذا الشكل بإستمتاع تام، ثم أفلت رسن "دون"، وارتفعت صرخات الشبان بعد هذا الفعل، فيما إنطلق دون نحو الأقرب إليه، وهجم على ما بين فخذيه، وأخذ يمزقه تمزيقاً بأسنانه، والشاب يصرخ من شدة الوجع فيما يسلب منه "دون" أهم عضو في جسده، والذي يُفقده صفة الرجولة بفقدانه.

جلس عزرائيل على كرسي خشبي ككراسي الإعدام الكهربائي، مشاهداً "دون" وهو يمزق ذكورية الشبان الأربعة الواحد تلو الآخر بلا هوادة، متلذذاً بصرخاتهم، شعوره في تلك اللحظة تجاوز مرحلة السادية بمراحل، لم يكن يجد لذة في عذاب من أمامه بقدر ما كانت نشوته نابعة من شعوره بأن من يتعذب أمام عينيه قد لاقى ما يستحقه، وأن العاقبة الأخلاقية قد إلتفت لتعود لصاحبها بشكل شديد البشاعة، ولهذا أرسلت السماء له، أو لهم، عزرائيل ليعاقبهم على كل ما اقترفته أيديهم، يطبق عدالة الأرض بأكثر طريقة مؤلمة، على مبدأ أن "الجزاء من جنس العمل"، كل هذا مجرد عدالة أرضية بسيطة، قبل أن تذهب أرواحهم لأسفل السافلين لتنهال عدالة السماء على رؤوسهم كذلك!

كان ما يدور في دماغه مرعباً، لا يثير القشعريرة فحسب، بل يثير حاسة في الأذهان، تلك الحاسة التي ترفض بالفطرة ما تراه أمامها، قرأ سابقاً أن جماجم البشر مقسمة لأجزاء ملتحمة كي يدخل النور إلى أدمغتنا المُعتمة من خلال هذه الشقوق، كي لا نغرق في السواد الذي يطبق على عقولنا من حيث لا ندري، إن أردنا تطبيق هذه الفكرة على عزرائيل، لإكتشفنا أن جمجمته مغلقة بالكامل، قطعة واحدة صلبة، والآمر الناهي فيها هي العتمة والأفكار المظلمة، ربما كان هذا هو الإختلاف الذي جعل شخصيته بالشكل الذي هي عليه الآن، لا مجال لأن يدخل النور إلى دماغ بهذا السواد.

وقف عزرائيل فجأة، وصرخ بصوت عالٍ:

- أنا عزرائيل! تذكروا هذا الإسم جيداً!

كانت صرخات الشبان عالية للغاية، ولكنها لم تمنعه من رفع صوته أكثر، وهو يصرخ بهم وعيناه تحويان كل جنون العالم:

- أنا عزرائيل هذه المدينة أيها الملاعين، وكل روح قذرة فيها سأقوم بتصفيتها بيدي هاتين، ولكن ليس قبل أن تنال العقاب الذي تستحقه!

دماء الشبان سالت بغزارة على الأرض، حتى وصلت إلى حافة حذاء عزرائيل، وفكا "دون" أصبحا بلون أحمر قاتم، ووجهه منقوع بالدم!

وارتفع صوت السيمفونية أكثر، وعزرائيل يحرك يديه في الهواء مستمتعاً وكأنه يعزف على حبالهم الصوتية!

**********

صرخات عالية قادمة من القبو، وصوت عواء "دون" يتعالى.

إرتعدت فرائص سيلينا وهي تسمع صيحات عزرائيل تختلط مع كل هذه الأصوات المرعبة، متسائلة عما يمكن أن يكون الذي يحدث في الأسفل، فهذه ليست صرخات كأي صرخات سمعتها في حياتها، هذه صرخة من يتعذب في الجحيم، وفي تلك اللحظة كانت ترى باب القبو كما لو أنه أحد أبواب جهنم!

مرت دقائق ودقائق من التوتر والخوف، لم تعرف كم من الوقت قد مر عليها وهي جالسة هنا، ولكنها كانت تشعر وكأنها في هذا المكان منذ سنوات طويلة، والصرخات اللعينة تضرب على أوتار أعصابها بحرفية لتعزف معهم في أغنية العذاب التي تُعزف في القبو.

فكرت في هذه الدقائق بالهرب، حيث لابد أن ما يحدث في الأسفل مرعب للغاية، بل هو المعنى الحرفي للخوف، وفي اللحظة التي نهضت فيها متجهة نحو الباب، جاء صوت عزرائيل من الخلف منادياً:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

تجمدت مكانها، ثم إستدارت نحوه وأجابته بخوف:

- كنت أهرب من الصرخات القادمة من الأسفل!

- لم أكن أتوقع أن تصلك الأصوات، فجدران القبو عازلة للصوت، يبدو أنني تركت الباب مفتوحاً دون قصد.

سألته بشك:

- ولم قد تحتاج جدراناً عازلة للصوت لقبوك؟

وهنا ظهرت إحدى مهارات عزرائيل العديدة وهي الكذب، أو ربما هي سرعة البديهة، إخترع كذبة في ثانية دون أدنى تغير في ملامحه قد يشير لكذبه:

- أنا أعزف طوال الليل على الطبول، ولا أريد أن أزعج أحداً بصوت القرع المتواصل!

لكن سرعته في الكذب لا تعني دائماً أن كذبته ستكون قابلة للتصديق!

- يا لك من كاذب، من الذي سينزعج؟ أقرب منزل منك على بعد عدة كيلومترات!

- ألن تكفي عن طرح الأسئلة؟

- كلا، ليس قبل أن أعرف الجواب الحقيقي!

ظهر "دون" من باب القبو في تلك اللحظة، وفمه يقطر دماً، وأسنانه ووجهه مغطى بالدم، كان يبدو في نظرها وكأن عزرائيل قد أنزل كلبه إلى القبو ليقوم بغسله بحمام من الدماء!

إرتجفت سيلينا وكادت تسقط أرضاً لشدة خوفها، قدماها تهتزان من تحتها بسبب المشهد المرعب الذي أمامها، سألته بأسلوب أقرب للتوسل:

- أخبرني أرجوك. ما الذي حدث في الأسفل؟

هز رأسه بلا مبالاة وهو يرد:

- لا يهم!

إستجمعت قوتها وسألته بعناد أكبر:

- بل يهم، أريد أن أعرف ما فعلته لهؤلاء الرجال؟

- كل ما يهمك معرفته، هو أنهم لم يعودوا رجالاً بعد الآن!

إتسعت عيناها مفكرة في معنى كلامه المبهم، وكانت كل فكرة مرعبة أكثر من الأخرى، فما كان منها إلا أن تجمدت مكانها دون حراك، دون أن تعرف ما يجب أن تقوله أو تفعله، إرتجفت وهي تسأله:

- هل قتلتهم؟

- كلا

تنفست الصعداء، ثم كررت السؤال السابق والذي تعرف أنها لن تتحمل إجابته على الأغلب:

- ما الذي فعلته إذا؟

- كل ما يمكنني أن أقوله، هو أنني سلبتهم رجولتهم التي كانوا يتبجحون بها، والآن لن يكون بإمكانهم إيذاء فتاة أخرى.

هزت رأسها بالإيجاب، رغم أنها لم تفهم ما فعله بالضبط، ولكنها لم تعد تملك الطاقة الكافية لتواصل طرح الأسئلة، ولكنها وجدت في داخلها قوة لتطرح سؤالاً بسيطاً، ولكنه شديد الأهمية:

- وماذا الآن؟

- إذهبي إلى منزلك، لابد أن أهلك قلقون عليك للغاية

- وكيف سأذهب؟

- يا لأسئلتك التي لا تنتهي!

أخرج عزرائيل مفتاح سيارة الشبان من جيبه وناوله لسيلينا وسط إستغرابها، نظرت للمفتاح في حيرة، فأراحها عزرائيل وهو يردف:

- خذي سيارة الشبان

سألته في قلق:

- تريد مني أن آخذها؟

- ولم لا؟ لا أعتقد أنهم سيحتاجونها بعد اليوم، يمكنك أن تعتبريها هدية، أو تعويضاً عن الخوف الذي سببوه لك اليوم، واستعمليها في تنقلاتك وهكذا لن تضعي نفسك في موقف مثل الذي حدث معكِ الليلة مرة أخرى!

لم ترد وهي تتأمل مفتاح السيارة، وكأنها لا تصدق ما آلت إليه الأمور بهذه السرعة، فسألها محاولاً تلطيف الجو قليلاً:

- هل ستأخذينها أم أنك تريدين توصيلة؟

إبتسمت رغماً عنها، ثم أجابت بفخر:

- سآخذها، كعقاب لهم

أمال عزرائيل رأسه إلى اليمين، ناظراً نحوها نظرة ذات مغزى:

- أعتقد أنهم نالوا عقاباً كافياً بالفعل!

هزت رأسها بالأيجاب، فإقترب منها وهو يردف بأسلوب أقرب لإراحة الضمير منه للإعتذار:

- أعتذر عن أسلوبي الفظ معك الليلة، ولكن مزاجي متعكر للغاية، ويبدو أنني لم أجد غيرك أمامي لأنفجر به!

إبتسمت له وكأنها كانت تنتظر منه إعتذاراً بالفعل، ولكنها لم تتوقع أن يعتذر منها لسبب ما.

- إعتذارك مقبول، ولكن ألم تنفجر بما فيه الكفاية بالشبان الأربعة؟ من أين أتيت بالبارود الكافي لتنفجر مجدداً بي؟!

قالتها ضاحكة، فضحك عزرائيل بدوره لظرافتها، كان يشعر أنها مألوفة، وكأنه يعرفها منذ زمن طويل، أو ربما هو تشابهها مع شخصية عزيزة عليه الذي جعلها قريبة منه بهذا الشكل.

- أنا أملك في داخلي بارودا يكفي ليفجر هذا الكون بأكمله!

قالها مبتسماً، فإقتربت منه ناظرة في عينيه مباشرة:

- شكراً مرة أخرى، على كل شيء، إنقاذ حياتي، والمشروب، والإعتذار! ومن أجل إنقاذك لي مرة أخرى، لا أعرف ما كان يمكن أن يحدث لو لم تكن موجوداً.

- عفواً.

إقتربت سيلينا منه وطبعت قبلة خجولة على خده، ثم تراجعت بسرعة وأدارت له ظهرها مبتعدة وهي تصيح ملوحة بيدها في الهواء:

- وداعاً..

خرجت سيلينا من القصر بعدها، وسط دهشة عزرائيل من فعلتها، إبتسم وإقترب من الباب ليغلقه، ثم مشى نحو التقويم الكبير، وفتح علبة الحبر وغمس إبهامه فيها، وطبع أربعة بصمات في الخانة المخصصة لهذا اليوم، وهمس لنفسه بشيء من الفخر:

- أربعة في يوم واحد!

**********

# الفصل العاشر

## ماضي أسود، وحاضر معتم

سكب عزرائيل لنفسه كأساً من مشروبه المفضل، وجلس وسط الغرفة على كرسيه الأقرب للعرش، أشعل سيجارة ونفث دخانها في الهواء لتكون غمامة حول جسده، ومن الطابق العلوي انبعث صوت إمرأة تصرخ:

- زين!

أغمض عزرائيل عينيه وصوت الصرخات يزداد إرتفاعاً، لم يكن يريد أن يسمع، لم يكن يريد أن يتذكر، ولكن الأصوات الصارخة بإسمه القديم كانت تجذب الذكريات بعنف شديد من جزء مظلم للغاية من ذاكرته.

- زين!

كل ليلة، بعد منتصف الليل، وبعد أن يخلد الجميع إلى النوم، يبقى هو وحيداً، ملاحقاً بخيالات الماضي، ظلال على الجدران يشعر بأنها مألوفة، ويشعر بأنها تعرفه، أشباح تجول أمامه جيئة وذهاباً، تتمختر أمام ناظريه، كأنها تحاول استفزازه ليخرج عن صوابه، ولكن أي صواب هذا؟ إنهم يحاولون جعل رجل مجنون يفقد عقله، وإن كان كل ما قام به عقلانياً فهذا يعني أن ما سيحدث حين يفلت زمام السيطرة على عقله تماماً سيكون أفظع بأضعاف، يهرب من كوابيس الليل المعتادة، أو بالأحرى أنه يحاول الهرب ولكن لا مفر له منها، في نومه يستطيع رؤية القصر بشكل مختلف، بالشكل الذي لا يمكن لعينيه المجردتين أن تراهما في صحوه، عبارة كتبت بدم امرأة مجنونة على الجدران:

"المنتقمون لا يرحمون"

وذلك الغريب المعلق من عنقه إلى سقف الصالة بحبل مشنقة!

وقطة سوداء تجلس فوق إحدى الأرائك وتنظر له بعينين حمراوتين، ظلال بلا أجساد، وعيون منفردة تراقبه حاملة كل شرور الدنيا في نظراتها!.

كان يخوص حرباً باردة، بل متجمدة! وما يحدث معه كل ليلة هو التعريف الحقيقي لإنقلاب السحر على الساحر، ها هو ذا الذي إعتاد على زرع الخوف في قلوب الناس بأفعاله وجرائمه وهو يضطر لأن يواجه أبشع مخاوفه وجهاً لوجه، أبشع كوابيسه تلتف حوله في نطاق دائرة تشكلت حول كرسيه المفضل، يتراجع وينكمش على نفسه محتضناً نفسه في قلق شديد يميل لأن يتحول إلى رعب هستيري، لا يعرف أين ينظر بالضبط، هناك باعث للخوف في كل ركن وكل بقعة من الصالة، هذا إن تناسينا صوت صراخ المرأة القادم من غرفة نومه، والذي كان له أشنع وقع على ملامح عزرائيل، وكأن صوتها أكثر ما يرعبه من بين كل الموجودات المرعبة!

الغيوم تتجمع في سقف الصالة، رعد وبرق وأمطار سوداء تنهمر على رأسه حتى يوشك على أن يغرق في الظلمة، وقمر أزرق غريب يطل من النافذة التي تتلاعب الريح بستارتها بشكل مريب، كلاب الشارع تنبح بجنون، والشيطان يجلس على كرسي قريب مراقباً في صمت، يمسك بدفتر مذكرات بين يديه المشعرتين ويقرأ دون أن يبدي أي انفعال بما يقرأه، هذا ما كان ينقصه، وكأن زوار الليل هؤلاء لا يكفونه، ليأتي الشيطان بشحمه ولحمه لزيارته كذلك!

ثم هناك تلك الدمية التي لا يعرف من أين ظهرت، لم يملك دمية في حياتي، ولن تكون دميته الأولى بهذا الشكل المقزز، بين الواقع والخيال، وقع عزرائيل في هوة بين الماضي والحاضر، ضاع رغماً عنه في هلاوس ستقوده للجنون يوماً ما، إن لم يكن مجنوناً بالفعل.

لو أن سكان هذه المدينة يعرفون ما يحدث حين ينامون، الجرائم المرعبة التي يرتكبها كل ليلة، والفظائع التي يقترفها بدم متجمد، والذنوب التي تتراكم فوق رأسه دون أن يكترث أو يهتم، ودون أن ينأى ظهره لحملها المتواصل فوق كاهله، عدا عن الأشياء التي يراها، والأصوات التي يسمعها، لعجزوا عن النوم بالتأكيد!

ليلة تقليدية في حياة عزرائيل، قَلَبَ إبليس في صفحات مذكرات زين السابقة، ثم ظهرت إبتسامة على وجهه، ورفع رأسه لعزرائيل لتتلاقى أعينهما، وتتسع إبتسامة إبليس أكثر، قبل أن يخفض الأخير رأسه مجدداً ليقرأ من المذكرات بصوت عالي وبأسلوب مسرحي يُضاهي الممثلين المحترفين:

- تتواصل محاولاتي في الصمود، ولكن تفكيري السوداوي يبعدني بقوة عن النجاح، وعزيمتي تمنعني من الهزيمة، وتستمر هذه المحاولات كل يوم، وكل ليلة، وهذا اللعين المسمى بعزرائيل يحاول استلام زمام الأمور في حياتي، أنا أشعر به، يتمدد في داخلي محاولاً السيطرة على عقلي وجسدي، أنا أحاول، ولكنني ضعيف، وهو شديد القوة، لذا فالمعركة محسومة في كل مرة تبدأ فيها، من قبل قرع جرس بداية الجولة، لو كانوا يعرفون ما يحدث حولي حين ينام الجميع، في عقلي الذي يحوم حوله عزرائيل متحيناً الفرصة لإقتحامه، لهربوا جميعاً إلى كوكب آخر، حتى أنا، لو كنت أملك القدرة لهربتُ مني بأقصى سرعتي، أنا سيء، ومؤذي وشديد الخطورة، ولكنني لم أؤذي أحداً في حياتي غيري، أنا ضحيتي الدائمة، وأنا جلادي وقاتلي ومصدر الرعب في أيامي!

توقف إبليس عن القراءة ورفع رأسه إلى عزرائيل الذي كان يتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً مما قيل، فأردف إبليس:

- هذه كلمات زين، أين هو زين الآن يا عزرائيل؟

أجاب عزرائيل بإقتضاب:

- زين قد مات!

- ومن الذي قتله يا تلميذي النجيب؟

صاح به عزرائيل:

- أنا لستُ تلميذك، أنت لا تملك حيلة سوى الوسوسة والتلاعب بالعقول، أما أنا فقد استطعت الحصول على جسد مادي قادر على فعل أي شيء، يمكنني أن أقوم بكل ما أريده، وهذا ما يهم، زين لم يعد يهم، هو نفسه لم يبالي بمقتله، لأنه لم يعد يملك سبباً مقنعاً ليواصل الحياة، وهذا هو السبب الذي جعله يترك جسده لي ليرحل بعيداً.

- إن لم يكن زين هنا، فلمن تصرخ تلك المرأة مستجدية؟ أتريد إقناعي أنها قد أتت باحثة عن عزرائيل؟ كلا بالطبع، إنها لا تريد سوى زين، وطالما أنها هنا فلا بد أنه هو أيضاً موجود ها هنا أيضاً، إنها حقيقة عليك تقبلها!

تسارعت أنفاس عزرائيل وهو يقول بصوت متقطع أشبه بالصراخ، وكأن صوته يأبى الخروج، فيضطر لدفعه إلى الخارج دفعاً:

- أنت لست هنا، أنت لست موجوداً أمامي!

عبث إبليس بأظافره الطويلة الحادة بأوراق المذكرة مبتسماً، قبل أن يجيب دون أن يرفع رأسه:

- أعرف أنني لست موجوداً أمامك، أنت لا تستحق أن أتجسد أمامك، فأنت لم تستطع، رغم كل هذه السنوات، أن تصل لما تريده بحق، رغم كل محاولاتك.

رفع إبليس رأسه بعدها وهو يقول:

- أنا موجود في رأسك، أجري في جسدك مجرى الدم!

ضرب عزرائيل كأس النبيذ برأسه لتتطاير شظايا الزجاج من حوله ويسيل خيط رفيع من الدم من جبهته سريعاً، ثم أمسك بالكأس ووضع طرفه المكسور الحاد على رقبته وهو يرد بعصبية شديدة:

- إن كان ما تقوله صحيحاً فأنا سأقوم بكل بساطة بتمزيق كل أوردتي لأخرجك من داخلي بالقوة، كي لا أضطر لرؤية وجهك القبيح مرة أخرى!

رد إبليس ببساطة وكأنه كان يتوقع هذا الفعل منه:

- لن تجرؤ على فعل هذا، أنت خائف من الموت حتى الموت!

كان عزرائيل يرتجف من الغضب، ينظر في عيني الشيطان وكأنه يوشك على قتله بيديه العاريتين، ويحاول تمالك أعصابه وهو يقول:

- أنا لا أخاف من الموت، بل أنا هو الموت أيها اللعين!

حك إبليس ذقنه المشعرة بأظافره السوداء وعلى وجهه نظرة غير مقتنعة بما يسمعه، سكت قليلاً محاولاً إستفزاز عزرائيل أكثر ثم أجاب:

- لقد قابَلتُ الموت، لقد كان كصديق لي، وأنت لست هو! أنت مجرد كاذب يحاول الترفع فوق البشر بأن يتظاهر بالملائكية، الموتُ ملاك يا بني، وأنت لست ملاكاً بكل تأكيد!

- ولكن أنت شيطان!

- هذا صحيح، ولكنني لست أي شيطان، أنا هو "الشيطان"، ومجرد وجودي في رأسك بنفسي عوضاً عن أن أرسل إليك أحد أبنائي هو شرف كبير لك!

- لا شرف في رؤية وجهك البشع في كل دقيقة من يومي!

ضحك إبليس بشدة، واهتزت أكتافه العريضة من شدة الضحك، ثم هدأ سريعاً، ووضع رجلاً على رجل وهو يقول بهدوء:

- وجهي القبيح؟ أتعتقد أنك قد تخدعني بوجه زين الطيب الذي تحمله؟ هذا الوجه البشري الجميل الذي تتخفى ورائه لا يمكنه أن يكون وجهك، أنت قبيح مثلي، بل أنت أقبح، على الأقل فيداي لم تتلوثا بقطرة دم واحدة. أنت وحش!

- كلا، أنا لست وحشاً، البشر هم الوحوش الحقيقون في هذا الكوكب، إبحث حولك وتأكد من هذه المعلومة إن لم تصدقني، الحيوانات تهاجم بعضها من أجل الجوع، والبشر يؤذي بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب، من أجل المال والشهوة والنفط، إن كان الشياطين يتغذون على الخطيئة وأرواح البشر المذنبين، فسيأتي يوم تكون فيه الوجبة الأساسية لبني آدم هي سلطة دولارات مع كأس من البنزين وراقصة مُتعرية لفتح الشهية، أنا أحاول إنقاذهم من شرورهم، ومن شرورك أنت، ومن تلاعباتك بهم وغسيلك لأدمغتهم!

- وأنت هو البطل المنقذ المقدام؟ لا تحاول أن تكون بطلاً كي تنقذ الجميع، كيف يمكن للغريق إنقاذ الجالسين على الشاطئ؟ كُن بطل نفسك، وأنقذ نفسك أولاً، صدقني أنت أكثر من يحتاج الإنقاذ، تحرر من أفكارك ومبادئك العجيبة التي لن تؤدي بك إلا إلى مقتلك، ثم إصعد لأعلى قمة في الأرض وراقب المد وهو يسحبهم رويداً رويداً، هم يستحقون ما يحدث لهم!

- أنا أعاقب المذنبين فقط، أما أنت فلا تترك أحداً سالماً من شرورك ووساوسك، حتى أشد الرجال براءة، يمكنك أن تحولهم إلى وحوش عديمي الأخلاق والمبادئ.

- وأنت تريد لهم التطهير من ذنوبهم؟

أومئ عزرائيل برأسه مؤكداً وهو يجيب بتحدي:

- شياطين الجن تحترق على الفور مع سماع كلام الرب، ولكن شياطين الإنس لا يخرسها إلا الرصاص!

إبتسم إبليس بعد هذا الرد ورمى لعزرائيل بدفتر المذكرات وهو يقول:

- سنتابع حديثنا في وقت لاحق!

أمسك عزرائيل بالمذكرات بصعوبة، وكأنه يخاف عليها من أن تقع أرضاً فتتسخ، رفع رأسه ليجد أن الصالة فارغة تماماً، أخفض رأسه لينظر للمذكرات، كان يرتجف لمجرد كونه ممسكاً بها، فتحها ببطء وأخذ يقرأ، وفي رأسه كانت المشاهد تتسارع وتتجمع، مواقف وذكريات لم يشعر بها، ولكنه عاصرها وكان يراقب زين وهو يمر بها، صور ومقاطع من حياته السابقة قبل أن يدخل عالم الإجرام، وقبل أن تتلوث يداه بالدماء، عاد بذاكرته إلى جريمته الأولى..

تلك الجريمة التي كانت سبباً في تغير مجرى حياته رأساً على عقب، وهي الجريمة الأولى التي لم يندم في حياته عليها، ولا زال يؤمن حتى اليوم بأن هذه الجريمة كان يجب أن تتم، وإن عاد به الزمن إلى تلك اللحظات مرة أخرى لضغط الزناد آلاف المرات!

كانت صورة أمه في رأسه، تعاتبه، وتبكي على فراشها وعلى وجهها كدمات سببتها لكمات من رجل سكران إختارته زوجاً لها بعد وفاة والده.

تذكر سنوات وسنوات مضت، عندما كان لا يزال إبن التسعة عشر ربيعاً فحسب، إستعاد أياماً غابرة، ورغم أنها ليست بعيدة للغاية، إلا أن كمية الأحداث التي مر بها في تلك الفترة كانت تُشعره كأنها عدة قرون وليست بضع سنوات، كان شاباً في مقتبل العمر، ورغم هذا كان يحمل هموم أثقل من رجل في سن الكهولة..

تذكر وتذكر، ويا ليته لم يتذكر!

**********

إنتقل بعدها لمسرح مختلف للأحداث، وجد نفسه فجأة في آخر مكان يرغب بأن يكون فيه في هذا الوقت، في منزل "زياد"، وأمامه كان الأخير جالساً على مقعد مكتبه وفي يده كأس مشروب فارغ.

لقد عاد إلى أكثر من سبعة سنوات في الماضي، والآن هو مضطر للغوص في ذكرياته، تلك الذكريات التي لم يجرؤ على الدخول فيها منذ زمن طويل، والآن اضطرته هذه الزيارة اللعينة للعودة رغماً عنه.

هو الآن في تاريخ قديم، لا يذكر اليوم بالضبط، ولكن الشيء الذي يعرف هو أن اسمه هو زين، لم يكن أحد يعرف عزرائيل حينها، وكان زين هو الاسم الذي يعرفه الجميع، في النهار والليل على حد سواء!

نظر زين لزياد من حيث لا يمكنه رؤيته، وفكر، رباه، كان يكره هذا الرجل أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا، أكثر من كرهه لمدينة الفساد والرذيلة التي يعيش فيها، يكرهه بحجم حبه لأمه التي عانت الأمرين على يديه الآثمتين، كان زياد سكيراً ثملاً على الدوام، لا يتزحزح كأس المشروب من يده إلا عند نومه، بل إنه كثيراً ما كان ينام وكأس المشروب في يده، بعد أن فقد الوعي من شدة سكره!.

كان مقامراً فاشلاً كذلك، يلعب بروحه وبأموال لا يمتلكها، فيخسر كل ما يملك لتتراكم الديون عليه بمبالغ طائلة دون أن يستطيع المبالاة بسبب كميات الكحول التي تجري في عروقه، عندها قرر زين إنهاء الأمر، كان يجب عليه أن ينهي معاناته ومعاناة والدته، وكان الحل الأمثل لفعل هذا هو مسدس محشو بالرصاص، وعدة دقائق يسمح فيها للشيطان بأن يستولي على روحه فيها، ليقتل زياد دون أن تهتز له شعرة واحدة.

لم ينس زين هذه القاعدة، سلم جسدك للشيطان القابع في داخلك، وقدم روحك قرباناً تحت قدميه، دعه يحركك كما يريد، ليفعل ما تريد أنت ولكنك تعجز عن فعله

بسبب حواجز عالية مسماة بالأخلاق والتقاليد، ولكن الأخلاق لا تطعم خبزاً في هذه المدينة، ولا تأخذ بالثأر لك!

ولكنه يستحيل أن يقتل، لا يملك في داخله القدرة على القتل، بل أنه لا يستطيع الدخول في عراك ويخرج منتصراً، لم يحدث قط أن حدث هذا، حتى أصغر طفل في شارعه قادر على أن يبرحه ضرباً، إنه ضعيف، ولا سند له في هذه الحياة.

يتيم في مدينة من آكلي أموال وأرواح اليتامى!

كان يحاول التماسك فيما يتمزق من الداخل إلى الخارج، حتى وصل لمرحلة لا يعرف فيها ما الذي يجمع ذراته التي تهرب منه رويداً رويداً، مع كل مصافحة يهرب بعضها منه، بعيداً عن النار التي تقتل كل ما هو جميل في داخله، في كل كلمة، وفي كل ضحكة كاذبة وكل ساعة نوم إقتلعها من فك الأيام التي لم تترك له وقتاً يتذكر فيه من هو، تبعثر وإنفجر ولطخ بأجزائه المُهمَشة والمُهشمة جدران غرفته.

ترك زياد وصعد زين لغرفته، أغلق الباب وأقفله وأسرع لينحني تحت سريره، ليخرج علبة سجائره ودفتر مذكراته، أشعل سيجارة وفتح دفتر المذكرات، وأخذ يكتب:

"أشعر بنفسي كمن يحاول القبض على الماء بيديه العاريتين، أو كمن يحاول الشرب من سرابٍ مخادع في صحراء العطش، أحمل عقلي المظلم، وأفكاري المرعبة وأتجول وحيداً، أصابعي تنزف على الرمال المشتعلة بعد أن علقت بها شظايا من قلبي المحطم اليتيم، أنا وحيد، وحيد وكأنني الشخص الأخير في هذه الأرض بعد حرب عالمية نسفت البشرية نسفاً!

أرسم خطاً بدمي الأحمر كمحاولة أخيرة للنجاة، وكأنني أرجو أن يتبعني أحدهم ليسحبني بعنف نحو المدينة، أو بعيداً عنها، أو أن يمسك بيدي وأنا أجتاز هذه الصحراء القاحلة كي لا أكون وحيداً.

لكن أيا من هذا لم يحدث، الدم كان السبب في تجمع الحيوانات المفترسة من حولي، لأجد نفسي محاصراً في دائرة من الوحوش التي لم أرى مثلها في كتاب الأحياء أو الأموات، ما هذه المخلوقات؟ وكأنها هربت من أسطورة إغريقية أو يونانية لعينة،

ولكنها مألوفة، أشعر بأن هذه المواصفات ليست غريبة عليّ، لقد خلقت هذه الوحوش بنفسي، كوسيلة للتسلية، والشعور بالقوة وها هي الآن ستكون السبب الرئيسي في مقتلي، سأموت وحيداً، وستكون نهايتي على شكل وجبة لذيذة للغربان والعُقبان، لم إخترت السوداوية؟ لم إخترت الضعف؟ لماذا لم أتبع القطيع مثل البقية؟ ربما كنت حينها سأجلس في الجانب الآخر من المدينة برفقة الجميع، ولكن كلا، لم أعتد على أن أكون تابعاً، اعتدت على وصفي بغريب الأطوار حتى لم تعد الكلمة تضايقني، ولم لا أكون غريباً؟

يوماً ما، سأبني مدينتي الفاضلة على أنقاض العالم السفلي، سأجذب أطلنطِس من قاع البحر وأجلس على عرش القارة المفقودة وكأنني إبليس على عرشه الذي فوق المحيط، سأقتات على قراصنة الأفكار، وسأعيش كما أريد، سأكون أنا القانون، ما أقوله هو ما سيطبق في شوارع المدينة التي لم تمسس أرضيتها قدم بشرية منذ آلاف السنوات غيري، سأقطع ألسنة هؤلاء الأنجاس الذين لطالما تظاهروا بالطهارة من حولي، وعندما تأتي ساعة النهاية، سأقترب من الموت بخطوات واثقة، وسأخبره أنني مستعد للرحيل، ولكنني قبلها سأخبره عن العديدين الذين يستحقون الموت قبلي، يستحقونه أكثر مني، ليس هرباً من الموت، ولكن على مبدأ "عليّ وعلى أعدائي"، وإن سقطت فستسقطون جميعاً، وعندما أصل للقاع فسأرتطم بجثثكم المتعفنة، لطالما كرهت البشر، هناك بعض الناس الذين تستغرب من كونهم خلقوا على شكل بشر، هذا الحقير كان يجب أن يُخلق قرداً، هناك حكمة في خَلقه بهذا الشكل ولكنني لا أفهمها للأسف، أصناف عجيبة من البشر على هذه الأرض الحقيرة الملعونة، هناك من أدعوهم بـ "أكلي أحلام البشر "مجازياً، لأنهم يقتاتون على مشاعر الناس وآمالهم وطموحاتهم حرفياً، وهناك "قاتلو الحب"، هكذا هو مسماهم الوظيفي في هذه الحياة، هدفهم الوحيد هو أن يفسدوا أي مشروع حب يرون أنه قد ينجح، ولكن ها أنا ذا، وحيد وعاجز عن فعل شيء، أُلثم وجنتي ألمي وأطلق سراحه، أدعه يسيل على خديَّ بسلاسة، مجرى الدموع على وجنتيَّ حفر أخاديداً وخنادقاً وصلت حتى

العظام، وإن رأيتموني منكسراً في يوم من الأيام يا أبناء آدم، فلا يتجرأن أحد منكم على الإعتقاد للحظة واحدة أن هذه هي القشة التي قصمت ظهري، إعتدت على حمل أثقال تزيد عن وزني بأضعاف مضاعفة دون أن ينحني كاهلي لثانية واحدة، لكن هذا الانكسار العميق الذي ترونه في ملامحي ما هو إلا أحجية تركيب بالغة الصعوبة والتعقيد، أو ككعب "روبيك" مثلاً، أبعثر أجزائي وأقلب أفكاري وهمومي بين أصابعي، ثم أعود لأجمعها مجدداً كنوع من التسلية وتمضية الوقت!

أنا شخص إعتاد الصمت، اعتدته أكثر مما ينبغي حتى أصبح قلبي يتحدث بلغة السكوت، اعتدت على الكتمان حتى نسي لساني معنى البوح، لقد نسيت كيف يكون الإعتراف في محراب الآذان الصاغية!

لا أحد يسمع صوت قلبي سوى دفتر مذكراتي، وحتى هذا الدفتر يكاد يهرب مني، يستجديني ألا أسكب همومي وأحباري فوق صفحاته، لا يمكنه تحمل كمية السواد التي أصارعها وأرميها فوق الورق لأهرب من الظلمة قليلاً بأن أتخلص من بعضها على شكل حبر أسود!

تذبحني العَبَرات وتكاد لحيتي تذبحني إن لم تكن قد فعلت بالفعل، صغير في السن بلحية شيخ شائب، وكأنها طريقتي كي أشعر بأنني أكبر، كي أبعد عن نفسي مضايقات من هم أصغر مني سناً، ولكنني بفعلتي هذه أضطر لمواجهة من أهم أكبر مني، هذه اللحية سلاح ذو حدين!

أنا الميت المُحتضر، والحي المبعوث، كمن ينازع ليبقى فوق الأرض بينما هناك أيادي باردة سوداء تجذبه نحو العالم السفلي، محاط بالشياطين، هذه هي الحقيقة، بكل صراحة وصفاقة، أنا محاط بهم، وكأنني قارة محاطة ببحر أحمر مشتعل، أحمر بلون السماء ساعة الغروب؟ كلا، هو أحمر بلون الدم!

أرض ملعونة! لم أعد قادراً على المشي في شوارع هذه المدينة دون تثبيت الواقي الفكري جيداً، كوسيلة دفاع أخيرة ضد الأمراض التي تنتقل عن طريق ممارسة الحوار مع حامل لمرض الإنتماء لهذا المكان، مع سفيهي الألسنة، صعاليك الرأي، مختلي

المنطق، المترفين بالمواعظ البائسة، كل ما ذكرته من مواصفات لهذه المخلوقات ليست جديدة في عالمي، ولكنني لم أعد قادراً على تحملها بعد الآن.
لم أعد قادراً على مشاهدة الحروب العالمية المُصغرة التي تدور في هذه الأرض، لم أعد أستطيع تحمل رؤية كاماسوترا الخير والشر في كل شارع وزقاق من المدينة!
تناقض عجيب، لا أريد قراءة من كتبته مرة أخرى، لأنني لا أعرف من أين تأتي كل هذه الأفكار، كيف لي أن أدخل في عشرات المواضيع في آن معاً، وأضرب أمثلة لن يفهمها أحد غيري، حتى يكاد من يقرأ أن يظن أنني مجنون أو مختل عقلياً، المريح في الموضوع هو أن هذا هو الهدف من المذكرات، أن لا أحد آخر سيقرأها، لا أعرف لماذا أكتب حتى، لا وقت عندي للكتابة أصلاً، مشغول للغاية، أنا أبحث عن فكرة في كومة قش!"

أغلق دفتر مذكراته بعدما باح له بكل ما في خاطره في هذا الوقت على الأقل، وأطفئ سيجارته، ثم أعاد علبة السجائر ودفتر المذكرات لمكانهم الأثير تحت سريره، إستلقى على السرير، وأغمض عينيه وأخذ يدعو من قلبه، يدعو ربه بشكل مختلف عما سبق، ولكنه كان صادقاً للغاية، ومُحدداً للغاية في دعائه، طلب منه أن يجعله أقوى، أن يرسل له من يشد عضده ويقويه في مواجهة الجميع، دعى على زياد بالموت، ودعى لنفسه بالقوة كي يقتله إن كان مكتوباً له أن يعيش مدة أطول!

دعى لربه أن يجعله عذاباً لسكان هذه المدينة، ومعاناة لهم، كي يأخذ حقوق الضعفاء بمسدسه، ويقتل الظلم برصاصاته الفضية التي لا تخطئ، سأله أن يسدد رميه، ويُمَكِنَه من معاقبة المذنبين بإسمه، ليساعد من سلبت حقوقهم على إستعادتها، وكان السبيل الوحيد هو الدم!
كان كلبه "دون" يراقبه وهو منكمش على نفسه في زاوية الغرفة، يراقب ما يحدث بخوف، مستشعراً الطاقة المرعبة التي تتدفق من هذا الجسد الشاب، وعندما أنهى

زين دعائه كان شخصاً مختلفاً، أو بالأحرى أن شيئاً آخر قد استجاب هذا الدعاء، شيء مظلم وكأنه هارب من الجحيم.
شعر ببرودة تكتسي جسده، كبرودة الموت، وأحس بكل الطيبة وهي تنسحب من قلبه في خوف شديد، وأصبح يفكر بشفافية تامة.

أخذت أفكار أفظع من كل التي كانت تجول في ذهنه تندفع إلى عقله لتملأه عن آخره، إقتنع أنه في هذه الحياة، لن تعيش دون مسدس على خصرك، فهو الحل لكل مشاكلك، فكر بهذا الكلام وآمن به حتى النخاع، وكان هذا مبدأه في الحياة منذ هذه اللحظة، ولكنه لا زال يشعر بالضعف رغم هذا، من أين له بالقوة الكافية ليفعل ما ينوي فعله؟ وكيف شعر بهذه الراحة رغم أن شيئاً لم يتغير؟
نهض بسرعة وهبط الأدراج نحو مكتب زياد، ووقف هناك يراقبه بكره خالص وهو يجرع من زجاجة المشروب مباشرة، وأحس بقبضة تمسك كتفه، قبضة ملتهبة، كالجمر المشتعل، ولكنها لم تحرقه، بل جعلته أقوى، وكأنها كانت تقول له: "حان الوقت،".

تحرك بسرعة وصعد لغرفته مجدداً، دخل إليها ليجد كلبه "دون" يتراجع لزاوية الغرفة بسرعة مع دخوله، بعد أن كان يسرع نحو سيده ما أن يدخل إلى الغرفة، ولكن هذه المرة مختلفة، فمن دخل الغرفة من وجهة نظر كلبه هو شخص آخر، غير سيده، كان شخصاً نُزعت المشاعر من قلبه، ويفوح برائحة مخيفة، وتحيط به هالة باردة للغاية!
الشخص الذي دخل إلى الغرفة لم يكن زين، لقد كان عزرائيل!

إقترب ببطء من المرآة ووقف أمامها، كان يشعر بإختلاف كبير في داخله، ولكنه عندما رآى انعكاسه، إكتشف أن هذا الإختلاف قد طفح إلى ملامحه الخارجية حتى، كانت عيناه سوداوتان تماماً، خاليتان من أي بياض، وكأن هذا الشيء في داخله قد أجبر كل البياض على التراجع ليترك مساحة للسواد الكامن في أعماقه

ليخرج للعلن، وكانت هذه بداية ظهور عزرائيل في حياة زين، ومنذ ذلك اليوم، لم يعد أي شيء كما كان، لقد انحدر كل شيء إلى الأسوء، ولكنه قد وصل على الأقل إلى ما كان يريده.

**********

إرتحل كيوبيد يوماً
إلى مدينة غريبة
كان يعتقد دوماً
أن لِلحُبِ قوة عجيبة
ولكن سهامه التي لم تخطئ أبداً
لم تلقَ في قلوبهم مُجيبا
وكأن أرواح سُكانها
مختلفة التركيبة
أمر غريب حقاً
بل إنها مصيبة
فهؤلاء لا يعرفون طعم الحب
ولا مفهوم الحبيبة
أنُحِتَتْ أرواحهم من صخر؟
أم أن قلوبهم بحجم الزبيبة
لابد أن يجد حلاً
سيبحث عن نقطة ضعفهم
ليزرع في قلوبهم حباً
إنها لفكرة مُصيبة
تجول كيوبيد في شوارع المدينة
فوجد على وجوه سكانها نظرة مريبة
دخل إلى منازلهم
فلم يجد قرآنا أو صليبا
فزع مما إستنتجه
وفتش جاهداً في الحقيبة

ولكن عبثاً يحاول
فكمية السهام التي إستهلكها
قد تزرع الحب في كتيبة
حرك كيوبيد أجنحته حينها
وطار بعيداً
وأقسم أن ينسى هذا المكان
وهذه الذكرى المعيبة ...

# الفصل الحادي عشر

## الجريمة الأولى

أخرج زين رأسه من تحت الغطاء كما يمد طفل الكنجر رأسه من جراب أمه لينظر للحياة التي تنتظره حالما يتمكن من المشي، وهو لم يكن مستعداً للمشي لوحده، لم يكن قادراً على استيعاب أن هذه هي الحياة الحقيقية وأن كل ما يمر في نومه مجرد هلاوس وصور وهمية يرسمها له عقله كي لا تمر ساعات نومه في النظر إلى باطن جفونه، أبعد اللحاف عنه ونهض كما تنهض العنقاء من رمادها.

جلس على حافة السرير محدقاً في معالم الغرفة، ثم وقف على قدميه بصعوبة وهو يطلق صيحة خرجت من عظامه وأعضائه قبل فمه، نظر في المرآة، وتسائل في نفسه: "يا إلهي، من هذا؟"

عينان منتفختان من نوم لذيذ أتبعته اليقظة المرة، وهالات سوداء تحت عينيه توحي بأرق طويل قاومه بكل بسالة كي يتمكن من الهروب من واقعه لبعض الوقت، ورغم أن هذا الهروب لم يعد سعيداً هذه الأيام، إلا أنه يبقى هروباً، ربما تكون كوابيسه مرعبة، ولكن الحياة أشد رعباً بكثير لو كنت تدري!.

لعن الحياة في سره، والواقع، والبشر أجمعين، وسأل نفسه مجدداً في إستياء: "لماذا يجب أن يستيقظ؟ لم لا أستطيع النوم حتى أموت وأنا نائم؟ سأموت حينها وعلى وجهي إبتسامة ساذجة غبية ولكنني سأكون سعيداً!".

النوم بالنسبة له نعمة ونقمة، هو سكين ذو حدين إن أردت الدقة، أحياناً يرى نفسه وهو يملك كل شيء، ملك من ملوك هذه الأرض، أموال قارون، وعدد من الخدم والجواري لم يملكها إمبراطور صيني في عهده الذهبي، مُهاب كإله إغريقي يهدد كل من يخالفه بالصواعق وتسلق الجبال إلى الأبد!

وأحياناً يرى نفسه وحيداً، في الظلام، محاطاً بأطياف قديمة خرجت من حياته منذ دهور، ولكنها لم تبارح عقله أو قلبه للحظة واحدة، تطوف حوله أشباه ذكريات، وأشباح مآسي، مشاهد منفصلة متصلة، بعضها حدث وبعضها لم يحدث، وجميعها مرعبة.

وكانت فقرة النوم في هذا اليوم سعيدة نوعاً ما، رغم كل ما رآه إلا أنه صحى مبتسماً، وفي هذه الأيام التي يضطر فيها لأن يصحو من ليلة نوم جميلة، ستجد زين شخصية بغيضة للغاية، يكره كل من حوله من بشر وحيوانات، حتى الطيور، يتشاجر مع ذباب وجهه، والهواء المحيط به بكل بساطة، وتنبيه هام: يرجى منك عدم الإقتراب من زين خلال ساعة على الأقل من إستيقاظه، وجب التنبيه. إنتظره حتى يتناول وجبة الإفطار أو يدخن سيجارة الصباح مع فنجان القهوة، وعندها، ربما، تجده شخصاً أفضل.

فتح زين نافذة غرفته ببطء كي لا يقلق الطيور الغافلة على حافة النافذة، لا ذنب لها في مزاجه المتعكر كي يوقظها من نومها، مد رأسه ليطل على الشارع الخالي من المارة في هذا الوقت المبكر، صباح بارد، وفي الأفق يلوح القمر بيده مودعاً حتى لقاء قريب، بعد أن رفض الإختفاء مع شروق الشمس دون أن يلقي نظرة على ذلك الوحيد الذي يطل من نافذة غرفته الخالية من طيف يألفه.

أشعل سيجارة وأخذ يفكر في نفسه، وفي حياته، في تلك الفترة كان يختبئ من الناس بأن يخفي نفسه خلف دخان سجائره الكثيف، أصبح يهرب من النوم بأن يبقي فنجاناً من القهوة على مقربة منه طوال الوقت، كي لا يرى الكوابيس التي تلاحقه كلما فكر بأن يخلد إلى النوم، ينهك نفسه بأي شيء يمكن أن يفعله، كي لا يجد وقتاً يفكر فيه بالحياة الشنيعة التي يعيشها، والتي عليه أن يتعايش معها كما يبدو، فلا مهرب منها رغم محاولاته، وإن هرب فلا يمكنه بحال من الأحوال أن يترك أمه خلفه، يدفن نفسه في دفتر يومياته، فينسى ما حدث في يومه ويرسم عالماً جديداً بأقلام الرصاص، عالماً

غائماً، عالم يحترق فيه كل من يكرههم، يرسم جثثهم المشوهة وهو نفسه مشمئز مما تخطه أنامله!

يتمنى لو كان قادراً على نسيان ما يراه في نومه، ولكنه يتذكر، يتذكر حتى أصغر التفاصيل، كان يرى عزرائيل في منامه، كل ليلة دون انقطاع، يقف محاطاً بالظلام دائماً، وجه شاحب كمصاص دماء في الألفية الخامسة من عمره، والسواد الشديد في الهالات تحت عينيه يوحي بأنه قضى سنوات عمره مستيقظاً!

عينان حمراوتان من فرط القلق وانعدام القدرة على النوم، والجحوظ فيهما يشي بكوابيسه التي تبدأ بقتيل في المجارير، وتنتهي بجثة معلقة على خازوق خشبي لتنزف حتى الموت، ذليل، منكسر، محطم من الداخل، بلا قلب، ولكنه في نفس الوقت شديد الجبروت وصاحب قوة لا ينازعه فيها بشري، ربما كان ملاكاً ساقطاً من الجنان إلى الجحيم، تعذبت روحه حتى انصهرت وتشكلت على شكل شيطان رجيم، هدفه الأول والأخير هو الانتقام!.

يحاول الهرب من هذا الجنون، وبكل قوته، ولكنه سرعان ما يدرك، مرغماً، أن محاولاته هذه "سيزيفية" للغاية، لا مفر من أمراضه النفسية، لذا يحمل أثقاله الروحية متسلقاً جبل الحكمة كما يفعل كل يوم، يصل لقمة الجبل ويتربع فوقه ليراقب الأرض من هذا الارتفاع، ولكنه سرعان ما يضجر من الفراغ في الأعلى، فيدفع صخرة إختلاله العقلي بقدمه لتسقط عن قمة الجبل، يتمطى ويرمى نفسه خلفها حتى يرتطم بالقاع، حيث يجمع شظايا الصخرة مجدداً، ويضعها جانباً ليراقب الوضع من الأسفل، لم يعد يريد أن يكون عاقلاً، وتسلقه للجبل كل يوم هو مجرد اختبار آخر لأنه لا يزال يملك القوة الكافية لمقاومة هذه الحياة القذرة!

سجين الغربة الإجبارية، غريب في أرض غريبة، لذا كانت العزلة الإختيارية هي الحل، يلملم بقاياه لوحده، يمسك بيده وينهض، يستند على جنونه المزعوم ليملك القدرة على مواجهة "العقلاء" لبقية اليوم.

رمى زين بسيجارته من النافذة، وأغلقها على نفسه، وأخرج دفتر مذكراته الأثير من تحت النافذة وكتب:

" أنا أحارب بكل قوتي، أحارب الجميع ومن بينهم نفسي، أكبلني بأحلام لا زالت حية، وأجلدني على حائط المستقبل وكأن ضربات الحياة لا تكفي كي أزيدها أنا على نفسي، أحمل على عاتقي مسؤولية قرار اتخذته كي لا أترك حياتي وحياة أمي تضيع عبثاً، لم أعرف أن دعائي قد وصل لآذان صاغية، لقد سمعني مخلوق عجيب، يسمي نفسه عزرائيل، ويحدثني في نومي ويحاول السيطرة علي، أحمل مسؤولية هذا الدعاء وجميع تبعاته، وأحارب من أجلي ومن أجل أمي.

هناك شخص آخر في رأسي!

لا أعرفه، ولم يكن هنا من قبل، كل ما أعرفه هو أنه قد جاء لسبب، إما أنه يريد مساعدتي، أو أن له هدفاً آخر مختلفاً، ونظراً لشكله وظروف ظهوره، فإن هذا السبب مخيف بلا شك!.

يا للتناقض، لا أعرف إن كنت سعيداً أو حزيناً لظهوره، ولكن هذا أمر إعتيادي، فأنت قد تفقد عقلك وأنت تحاول فهم عقليتي!

اللعنة، ما الذي أكتبه؟ لابد أن أكف عن التفكير بهذا الشكل، وأن أحاول تحسين حياتي بالفعل عوضاً عن جلد نفسي بمشاكلي التي تواصل التراكم فوق رأسي.

يوماً ما، سأموت بجرعة زائدة من التفكير!

كنت متأكداً من هذه الحقيقة، ولذا قررت أن أكتب رسالة إليه، رسالة إلى اللعين الذي يزورني كل يوم في نومي ..

من أنت؟ وما الذي تريده؟

أنا أعرف أنك تقف خلفي لتقرأ كلامي هذا من فوق كتفي الأيسر، لست بملاك، فالملائكة غير قادرة على رسم كوابيس بهذه البشاعة، أنت شيطان بكل تأكيد، وأنا فريسة سهلة بالطبع، شاب ضعيف، غريب الأطوار، يكتب مذكراته في الليل وهو يستمع لموسيقى صاخبة من سماعاته الكبيرة، في الظلام، حيث تجلس أنت وأصحابك لتراقبوني بصمت، منتظرين الفرصة المناسبة للهجوم.
هجماتكم الضعيفة على عقلي لن تفيد، مهما كان هدفكم، أنا أكتب عنكم ولكنني لا أخافكم، قد تستطيعون التغلب علي في نومي، ولكنها مجرد جولة واحدة، واجهوني في صحوي إن كنتم تجرؤون، فأنا أملك كلمة سحرية قادرة على حرقكم أحياء!"

أغلق زين مذكراته، وأخذ يفكر بمنطقية بحتة لأول مرة في حياته، والحقيقة هي أن عزرائيل هو من كان يقوم بالتفكير، لابد أن يقتل زياد، لا يمكن أن يستمر في هذه الحياة، عزرائيل يخبره أنه سيقف بجواره، وأنه هو الذي سيقوم بالضغط على الزناد في اللحظة الحاسمة، ولكن عليهما أن يجدا الطريقة المناسبة.
كان يبحث في دهاليز عقله التي انطفئت أنوارها عن طريقة لإبعاد الشبهات عنه بعد إرتكابه لهذه الجريمة، خاصة أن والدته تقضي النهار في العمل ولا تعود قبل المساء، إذا لابد أن يرتكب جريمته في الصباح!
لكن المشكلة الكبرى هي أن الشبهات ستبقى تحوم حوله ما لم يجد أحداً يلصق به التهمة، ولكن من؟
عندها شعر وكأن شمعة أضاءت في رأسه، وعرف السر كله، عرف ما يجب أن يفعله بنصيحة من عزرائيل، وخلال أسبوع خطط للأمر كله، وكل الخطوات التي فعلها أخذت تتجمع في رأسه لتكون خطة جهنمية لن تخطر على بشر، إبتسم بسعادة فتراجع كلبه "دون" إلى الجدار حتى أوشك على إختراقه إلى الجهة الأخرى من شدة خوفه.
اليوم سينهي الأمر، اليوم سيقتله!

مد يده المغطاة بقفاز جلدي لأسفل وسادته، وأخرجها حاملة مسدساً فضياً لامعاً، تأكد من أنه محشو بالرصاص، ووضعه خلف ظهره مثبتاً إياه جيداً، فتح زين بعدها باب الغرفة وخرج، ثم هبط السلالم سريعاً، ودخل المكتب ليجد زياد خلف المكتب العامر بزجاجات الكحول الفارغة، والخمر قد فعلت أفعالها في رأسه فهو يكاد لا يرى أمامه، يصدح بالغناء بأعلى صوته بأغنية غير مفهومة الكلمات، تخرج من شفتين تخدرتا تقريباً، ولسان لم يعد يستطيع التحكم به..

هذا اللعين يشرب في الصباح حتى!

إستند زياد إلى طرف المكتب متأملاً الفراغ، وعيناه مثبتتان على رقاص الساعة فتتحركان معه جيئة وذهاباً دون تركيز...

- مساء الخير

خرجت العبارة من بين شفتي زين، رفع زياد رأسه ليجد زين واقفاً أمامه في وسط المكتب وعلى شفتيه إبتسامة صفراء، تمتم بعبارات ساخطة غير مفهومة ثم زفر وهو يبحث حوله عن زجاجة مشروب لم يشربها بعد، حتى وصلت يده إلى واحدة ففتحها وسكب بعضاً من محتواها في كأس على الفور وكأنه مدمن يحتاج لجرعة بأقصى سرعة، رد زياد على زين دون أن يرفع رأسه:

- ما الذي تريده؟

- أريد التخلص منك، وللأبد!

رفع زياد رأسه لزين بإستغراب لأسلوب حديثه، وصاح به:

- يبدو أن جلدك يحكك أيها الفتى، ولن تهدأ حتى أحطم عصاي على قفاك كما كنت أفعل بك وأنت صغير!

إبتلع زين الإهانة، وجز على أسنانه غضباً، محاولاً تمالك نفسه قبل أن يتابع بهدوء كلّفه الكثير من الأعصاب:

- يجب عليك ترك البيت، واليوم!

ضحك زياد بإستهزاء وهو يرد:

- ومن سلمك زمام الأمور؟

إبتسم زين، أو عزرائيل للدقة، بطرف شفته، وأفكار شيطانية تدور في رأسه في هذه اللحظة، يبعدها قليلاً لأنه لم يحن الوقت بعد..

- لقد فهمتني بشكل خاطئ!

مد زين يده لخلف ظهره ورفع قميصه لنرى المسدس المخبئ في بنطاله، ثم أردف وإبتسامته تتسع ببطء:

- فأنا لم أكن أتحدث بصيغة الطلب.

يسحب زين المسدس من مكانه ويرفعه في وجه زياد بحزم، ويكمل:

- لقد كنت أتحدث بصيغة الأمر!

تتسع عينا زياد مع رؤيته للمسدس لثوانٍ ثم يضحك دون إهتمام لشدة تأثير الكحول عليه ويشير له بإستهزاء، وهو يقول:

- أبعد هذه اللعبة من يدك يا فتى!

- هذه ليست لعبة، هذا مسدسك أنت.

يلقم زين المسدس بحركة سريعة إستعراضية مطلقاً صوتاً عالياً، ليصبح المسدس جاهزاً لإطلاق النار مع ضغطة الزناد فحسب، وفي داخله كان عزرائيل يستجديه ليضغط الزناد، ولكن زين كان يطلب منه الإنتظار ومواصلة الخطة حتى النهاية، يبتسم زياد دون تصديق ويمد يده للدرج السفلي ويفتحه فلا يجد سوى كومة أوراق، يمتقع لونه عندما لا يجد مسدسه في مكانه المعتاد، أزاح كومة الأوراق بتوتر ليجد مسدسه تحتها بالفعل، تنفس الصعداء ورفع المسدس أمام عيني زين بإنتصار!

- توقعت، والآن أغرب عن وجهي قبل أن أفرغه في رأسك!

لقم زياد المسدس بحركة واحدة مقلداً زين، وعيناه توحيان بالسخرية، رد عليه زين بإصرار:

- لن أذهب لأي مكان

إنحنى زياد على المكتب والمسدس لا يزال مصوباً إلى زين، ليقول بصعوبة وكلماته تخرج من لسان تشنج لشدة ما مر عليه من الكحول:

- إسمعني يا فتى، لو فتحت رأسي الآن لوجدته يسبح في الويسكي حرفياً، لذا أغرب عن وجهي قبل أن أجن فجأة وأقتلك في مكانك!

ولكن زين لا يتراجع ويرد بإصرار أكبر:

- فلتفعلها، ماذا تنتظر؟

- لا تتحداني يا فتى!

- إفعلها الآن أو أخرج من حياتنا إلى الأبد.

- لن أفعل، وسأبقى هنا كالجاثوم على قلبك وقلب أمك!

يخفض زين مسدسه كدلالة الإستسلام، ثم يتابع:

- فلتقتلني إذاً، أقتلني وإلا فأنا أقسم برب السماء أن هذه الرصاصة التي كنت ستطلقها على رأسي ستكون مزروعة في قلبك مع إنتهاء هذه الليلة.

يتنفس زياد بصوت مسموع من شدة غضبه:

- لا تحاول إستفزازي أيها الحقير!

يبتسم زين وصوته يتعالى تدريجياً وهو يرد:

- حسناً، لن أستفزك، ولكنني سأخبرك بشيء آخر!

يُميل زين رأسه لليمين، وهو يتابع حاملاً نظرة عزرائيل في عينيه:

- إن لم أستطع قتلك، فأنا سأقوم بقتل نفسي، وبمسدسك هذا، وعندها من تظن بأنه سيكون المتهم الرئيسي؟

يسكت زياد دون رد أمام هذا الكلام وهذه النظرة، فيتابع زين سريعاً:

- بالضبط، لذا إفعلها الآن وأرح نفسك من جنوني!

صرخ زياد بأعلى صوته في غضب شديد:

- زيـــــــــــــــــن .....

إتسعت عينا زين بشكل مخيف حتى لتكاد ترى السواد وهو ينتشر فيهما كالنار في الهشيم، وتلاشت إبتسامته وهو يقول مشجعاً قاتله على قتله:

- لا تخف، لا أحد سيعرف، إفعلها!

إرتفع صوت أنفاس زياد أكثر فأكثر، ويده ترتجف حاملة المسدس، أخذ شهيقاً طويلاً وأطلق النار على زين ثم أغمض عينيه بعد أن فعل فعلته وصوت تنفسه يتعالى بعنف!

ساد الصمت في الغرفة لثوان، وزياد مغمض العينين، وصوت أنفاسه قد إرتفع فأصبح أقرب للهدير منه إلى التنفس، ثم فتح عينيه ببطء ليجد زين واقفاً أمامه، على وضعه، ولكن عينيه إستحالتا سوداوتين تماماً، بلا بياض، فقط السواد ولا لون غيره!

إتسعت عينا زياد وهو ينظر لزين ثم للمسدس بحيرة بالغة، فيما إبتسم زين لتزيد الإبتسامة منظره إخافة، وهو يقول:

- هذا ما كنت أريده!

سأله زياد في رعب:

- ولكن كيف؟

- المسدس الذي معك هو نسخة طبق الأصل عن مسدسك الأصلي، نفس الوزن ونفس الشكل، مطابق حتى في التفاصيل الصغيرة، حتى أنه يصدر صوت إطلاق نار كما يفعل المسدس الحقيقي عندما تضغط الزناد، ولكنه يبقى مجرد لعبة في النهاية، ولن يكون قادراً على قتل نملة!

سقط المسدس من يد زياد على المكتب، وهو يسأله بشك:

- لعبة؟!

نظر زياد للمسدس بندم بعد ما فعله للتو، صدمة ما بعدها صدمة، لقد حاول قتله، كيف سيتراجع عن مثل هذا الفعل؟

أجابه زين وقد إختفت الإبتسامة عن وجهه:

- أجل، وكل ما فعلته كان كي أتأكد من أنه يمكنك قتلي، وتمنيت ألا تستطيع، ومن كل قلبي، تمنيت أن يكون بعض الكلام الذي كنت تقوله لي وأنا صغير صحيحاً، عندما كنت تخبرني أنك ستعتبرني مثل إبنك الذي لم تحظَ به!

ترقرقت الدمعة في عيني زين، لقد كان يرجو فعلاً ألا يملك زياد القدرة على قتله، ولكن العكس هو ما حدث، والآن لابد أن يستمر في خطته التي أعدها على مدار الأسبوع الماضي، أسرع ومسح وجهه بحزم. ورفع المسدس أمام وجه زياد مباشرة وفي عينيه غضب خالص، متابعاً:

- المسدس الذي معي ليس لعبة، هذا هو مسدسك الشخصي.

يفك زين مخزن الرصاص في المسدس ويريه الرصاصات التي فيه ليؤكد صحة كلامه بالدليل القاطع، فيسرع زياد متوسلاً بخوف:

- لا، أرجوك، لا تفعل شيئاً تندم عليه

يبتسم زين بأسى وهو يرد:

- لقد فعلت الكثير من الأشياء في حياتي، والتي أعرف أنه يمكن أن أندم عليها لاحقاً، ولكنني يستحيل أن أندم على هذا الفعل بالذات في يوم من الأيام.

إهتزت يد زين الممسكة بالمسدس، كان هذا الإهتزاز نابعاً من تدخل عزرائيل محاولاً السيطرة على جسد زين، ولكن الأخير كان يمنعه بكل قوته، وعندما لم تنفع القوة أمام قوة عزرائيل، أخذ يرجوه بضعف كي يترك زمام الشفتين له لبضع عبارات إضافية، كان يريد قول هذه الكلمات بنفسه، قبل أن يستلم عزرائيل القيادة والتحكم في جسده، وسمح له عزرائيل بكل بساطة، ليس ضعفاً منه، ولكن بسبب يقينه التام بأن زين لن يمكنه القتل في حال من الاحوال، ولذا سيضطر للإستعانة به النهاية للقضاء على زياد، وإطلاق رصاصة صائبة.

- سآخذ بثأري عن كل شيء فعلته بي وبأمي، سآخذ بثأر أيام أضعتها من يدي بسبب حقارتك وقذارتك.

يرتجف زياد وصوت زين يتعالى وهو يتابع:

- هذا ثأر أمي التي كرهت حياتها بسببك، الشيطان يتحكم بجسدي الآن، وسيساعدني بكل فخر على قتلك يا أحقر مخلوق على وجه الأرض.

رفع زين المسدس بيد ثابتة، مُلِئت بالدماء السوداء، موجهاً إياه إلى زياد، وصاح بصوت عزرائيل هذه المرة:

- إقرأ على روحك السلام!.

إرتجف زياد من نبرة الصوت التي خرجت من بين شفتي زين، لم يكن هذا صوت زين، كان عزرائيل هو من يتحدث، ألقى زين نظرة أخيرة على ضحيته، قبل أن ينهي الأمر بعبارة نارية:

- سنتقابل في الجحيم!

أطلق زين العيار الناري على زياد دون تردد لتخترق الرصاصة صدره مباشرة، يرفع زياد رأسه ليلتقط نفسه الأخير بعدما شعر بالرصاصة تحطم ضلوعه وتمزق أحشاءه، قبل أن يهوي رأسه على كتفه بلا حراك. وقد فقدت عيناه بريق الحياة تماماً.

نظر زين بذهول لما فعله، تراجع عزرائيل ليترك له لذة الإنتصار، فهمس بفرحة ممزوجة بالأسى:

- فعلتها يا أمي، قتلته من أجلك!

رمى زين بالمسدس أرضاً وهو ينظر لطاولة إعتاد زياد على لعب القمار عليها مع أصدقائه، ومشى بإتجاهها ثم تناول ورقة لعب تحمل صورة الجوكر بقفازه الجلدي، اقترب بعدها من زياد واستل محفظته من جيب جاكيته، ليأخذ ما معه من مال ثم ينحني على طرف السجادة ليضعهم تحتها بعناية قبل أن يعيدها كما كانت، عاد زين بعدها لجثة زياد وتناول يد الجثة اليمنى وغمسها بالدم الذي يسيل من صدره، ثم بَصَمَ بإبهام الجثة الدامي على الورقة، نظر زين لورقة اللعب لفترة طويلة، إلى البصمة المرسومة بالدم، هذه أول ورقة وضعت على أول جثة سلب روحها بيديه الإثنين، ولن تكون الأخيرة بكل تأكيد!.

خلع قفازيه وقَرَبَ يده اليمنى من عينيه ليخلع العدسات السوداء التي يرتديها ثم وضعها داخل مستوعب خاص وأعادها لجيبه، جلس بعدها على الكرسي ناظراً للجثة، وأخذ يتحدث معها وكأنها لا تزال حية ترزق:

- هل إرتحت الآن؟ ما الذي نفعتك به حقارتك يا ترى؟

تناول علبة السجائر وأشعل سيجارة، ونفث دخانها متابعاً:

- بالمناسبة، أنا أعرف أنك كنت متزوجاً من إمرأة أخرى، وأن لديك ابناً منها، حتى أن أمي تعرف بهذا الأمر، لكنها فضلت الصمت، أما الآن فقد طفح الكيل، وكان يجب أن أخبرك بأننا نعلم هذه الحقيقة حتى وإن لم تكن تملك القدرة على سماع كلامي، ولكن لا تخف، في رأيي، يستحسن لإبنك

أن يعيش يتيماً على أن يعيش مع أب مثلك، لا نريد أن يلاحقه العار بسبب سمعتك التي فاحت رائحتها حتى بلغت عنان السماء!.

أرجع زين رأسه للخلف مدخناً سيجارته بإستمتاع، ثم إلتفت وكأنه سمع أحداً يكمله، نظر للجثة وكأنه يسمعها وهي تحدثه، ثم إبتسم وهو يرد بتلقائية على سؤال لم يُسأل حتى:

- لا تخف، لن توجه لي أي تهم في هذه القضية، فهذه الجريمة ستُنسَبُ للاعبي القمار الذين تدين لهم بالمال، وسيعتبر رجال الشرطة هذا الدَين كمبرر لإرتكابهم للجريمة، وأنهم قد قتلوك لأنك لم تعطهم أموالهم، وهكذا سأتخلص من ثلاثة كلاب أخرى، أترى؟ لقد تحول الأمر لصالحي تماماً!

ضحك زين بسعادة واضحة، وإبتسم عزرائيل في داخله، لقد نجح في الخطوة الأولى في سبيل الوصول لما يريده، فها هو قد ساعد زين في التخلص من زياد وظلمه وجبروته.
إنطلق صوت سيارات الشرطة من الخارج، ففكر زين سريعاً أن أحد الجيران قد أبلغ عن سماعه لصوت إطلاق نار من المنزل، وكأن ما يسمعونه من رصاص طوال اليوم أمر عادي كي يلتفتوا لرصاصة واحدة في هذا الصباح الباكر.
أطفئ زين السيجارة بيد مرتجفة محاولاً التظاهر بالثقة ونهض ليخرج من الغرفة نحو باب المنزل ليستقبل الشرطة بنفسه!

**********

جلس زين أمام اثنين من رجال الشرطة وهم يستجوبونه بملل وكأنهم قد جائوا للتحقيق في هذه الجريمة بالإجبار.

- أخبرنا بما حدث بالتفصيل.

إبتلع زين ريقه وأجاب بصوت مرتجف وعينين دامعتين:

- كنت جالساً في غرفتي، عندما سمعت صوت طرق على باب المنزل، فتحت الباب لأجد ثلاثة رجال إعتاد أبي زياد على لعب القمار معهم، دخلوا إلى المنزل وأخذوا يهددونه بأنهم سيقتلونه إن لم يعطيهم ما يدين لهم به من مال، وعندما أخبرهم أنه لا يستطيع لأنه لا يملك المبلغ الذي يريدونه، قاموا بقتله!.

بدأ زين بالبكاء بدموع سَخِيَة تعجز التماسيح عن سكبها، متصنعاً الحزن، كان بارعاً في التمثيل لدرجة أنه تمكن من جعل الشرطيين يتعاطفان معه، لقد رقت قلوبهم لمرآى هذا الشاب المفجوع لمقتل زوج أمه الذي يعتبره كما لو أنه والده الذي من لحمه ودمه، تابع زين الكلام بذات الأسلوب التراجيدي:

- قتلوه دون أن تهتز لهم شعرة ثم هربوا سريعاً، وكانوا سيقتلونني عندما لاحظوا وجودي لولا أن أحدهم طلب منهم تركي لأنني لن أقول شيئاً، وهددني بأنه سيقتلني إن فتحت فمي بحرف واحد، قتلوا أبي زياد بدم بارد، هؤلاء المجرمون!

دفن زين وجهه بين كفيه بحزن وأجهش بالبكاء المصطنع، فتركه الشرطيان مع مأساته المزيفة. وتوزعا في أنحاء الغرفة ليواصلا عملهما ويعاينا مسرح الجريمة دون تركيز بإعتبار أنهم قد عرفوا القتلة بالفعل، هم ليسوا متفرغين للبحث فعلاً في المكان، فهم "برأيهم" لا يتقاضون أجراً كافياً ليلاحقوا المجرمين ويقبضوا عليهم بالفعل.

لو كان إبليس بشحمه ولحمه واقفاً يراقب المشهد، لرفع القبعة لزين إحتراماً، فهذا الشاب قتل ضحيته الأولى للتو دون أن يشعر بذرة ندم أو تأنيب للضمير، ثم تباكى أمام رجال الشرطة مبعداً التهمة عنه تماماً، وملصقاً إياها بثلاثة رجال آخرين ليتخلص منهم كذلك كي لا يعودوا ويطالبوا بالأموال التي يدين بها زياد لهم.

كان إبليس ليتأكد حينها من أنه لا زال لديه تلاميذ مطيعون، وأنه لو قرر في يوم من الأيام الإعتزال من عمله، وتسليم مسماه الوظيفي "الشيطان" لشخص ما، لكان هذا الشخص هو زين، وبكل جدارة، أما عن عزرائيل، فقد كان يطير من الفرح، إن كان يملك القدرة على الشعور بمشاعر مثل الفرح، لقد خطى أول خطوة في طريق التطهير الموعود لهذه المدينة، والقادم أعظم بكل تأكيد!.

**********

# الفصل الثاني عشر

## عزرائيل وملاك

اليوم التالي للجريمة...

مقهى هادئ ذو جو حميم، مكتظ بالشباب وكأنه ملتقى العشاق الرسمي!

في زاوية من زوايا المطعم، شاب وصبية يتهامسان بحب ورومانسية واضحة، تبتسم له بخجل ويواصل هو إراقة كل ما يملك من الكلام المعسول فوق رأسها وسائر جسدها، لعله يحظى بلمسة من يدها في آخر النهار، أو ربما، لو كان محظوظاً، سيسترق منها قبلة على غفلة.

مجموعة فتيات يتحاورن بصوت عالٍ، بنبرة تفوح منها رائحة الدلع الزائد عن حده، وفي أياديهن كمية ذهب وأساور فضية تكفي لتؤمن حياة كريمة لأسرة كاملة، وبجوارهن تماماً مجموعة شبان إختاروا مكانهم بعناية ليكونوا قريبين منهن، وقد دار بينهم حوار حماسي مازح، بدأ على شكل محادثة عادية، ثم تحول لمسابقة إستعراض عضلات حول من يعرف أكثر حول موضوع ما، ومواضيعهم لا تكاد تخرج عن عدة تصنيفات؛ كرة قدم، ونساء، وسيارات، وبالطبع ستنتهي حواراتهم هذه بسيل من الشتائم والصرخات العالية التي يليها الصمت المطبق، كما هي نهاية أغلب محادثات الشباب هذه الأيام، ووسط المطعم كان زين جالساً، سارحاً عن الدنيا بأكملها في أفكاره، وعلى الطاولة إستلقت علبة السجائر الثالثة له منذ ليلة أمس، ترجوه بحق رئتيه ألا يقترب منها مرة أخرى!

لم يذق زين طعم النوم في الليلة الماضية، لم تغفُ عيناه ولو لثانية واحدة، لذا قرر الخروج في النهار رغم كراهيته للشمس، كي يحصل على جرعة ضرورية من الكافيين، بعدما فشل النيكوتين في مَدِه بما يكفيه من النشاط ليكمل النهار.

إختار هذا المقهى الذي إعتاد القدوم له ليلاً لخلوه من البشر، ليفاجئ بكم هائل من الناس في داخله، عشاق، وأصدقاء، وثلل من الشبان والصبايا في حوارات تافهة حول مواضيع أتفه، إختار طاولة وجلس عليها محاولاً الإحتفاظ بوعيه أطول وقت ممكن.

من بعيد كانت النادلات يتصارعن على من سيأخذ طلب زين كالعادة، وها هو ذا في مكانه منذ خمس دقائق دون أن ينتهي الصراع، قبل أن تنتصر إحداهن بحجة أنها لم تأخذ طلبه من قبل، ثم إتجهت نحو زين بعد أن تأكدت من شكلها عشرين مرة في مرآة الجيب الصغيرة خاصتها.

وصلت إلى طاولة زين، الذي لا يشعر بكل ما يحدث حوله، وتنحنحت لتخرجه من شروده، ثم سألته محاولة تنعيم صوتها قدر المستطاع:

- تفضل، كيف يمكنني أن أخدمك؟
- فنجان قهوة سادة، وفطيرة شوكولا لو سمحتِ.

وقفت النادلة مكانها، دون أن يبدو أنها قد سمعته، متأملة في عينيه الساحرتين، كانت الحكايات تدور بين النادلات عن جمال عينيه، ووسامته الصارخة، لذا كانت النادلة متوترة للغاية وهي تتحدث معه، وهي تُقدر شعور كل شاب إرتبك قبل أن يقترب ليحادثها.

تمر ثوان وهي على وضعها، يبتسم زين وقد فهم الأمر، ولكنه لم يلقِ له بالاً بعدما إعتاد ردة الفعل هذه من النساء عند الإنتباه للون عينيه، ينظر في عينيها بدوره مباشرة ليمنحها الفرصة لتمتع ناظريها أكثر، ويتأملها، كانت على شيء من الجمال، وتوحي عيناها بالذكاء رغم التوتر البادي عليها، فكر في إعطائها رقمه، ثم قرر تناسي الأمر، فهو لا يحب السهل، يحب أن يتعب للحصول على الشيء، وإلا فما العبرة في الأمر من البداية؟

وكنوع من الحاجة الملحة للكافيين في صباح باكر كهذا، كان يجب عليه الحصول على فنجان قهوته بأسرع وقت ممكن، فناداها بهدوء كاسراً شرودها اللذيذ في أسف:

- هل أنتِ معي؟

أفاقت من تأملاتها على صوته، وهزت رأسها لتعود إلى كوكب الأرض، بعدما كانت تسبح معه في الفضاء، حيث لا أحد غيرهما:

- بلى، ولكن ذكرني ما كان طلبك مجدداً؟

أملى عليها طلبه للمرة الثانية، وانسحبت في خجل بعدما أحرجت نفسها أمامه هكذا، مفكرة في طريقة لتعطيه رقمها دون أن تنتبه لها زميلاتها، تتمايل في مشيتها متعمدة، قبل أن تتوقف في منتصف الطريق، لتستدير نحوه وكأن لديها ما تريد أن تقوله، ولكنها سرعان ما هزت برأسها نفياً، وقد بدا أنها اكتشفت غباء الفكرة، فإستدارت بسرعة وتابعت المسير.

جال زين بعينيه حول المقهى، فوقعت عيناه على صَبيتين تتهامسان ناظرتين إليه بإعجاب، يبتسم في وجهيها ثم يشيح بناظريه بعيداً، ليتابع مسح رواد المقهى المكتظ بعينيه، ناظراً لكمية البشر الهائلة التي إتسع لها هذا المكان الصغير، شَعَرَ وكأنه في المقهى الوحيد في المدينة.

وصل بناظريه إلى ثلة الفتيات، وأخذ يتأملهن، من أعلى لأسفل، ملابسهن تدل على تحرر زائد حتى في مدينة كهذه، والسبب الثاني لإستغرابه هو أنهم في فصل الشتاء، الجو بارد، والشمس مجرد مصدر للضوء دون أدنى حرارة منبعثة، ولكن يبدو أنهن لا يشعرن بالبرودة، وفي رأسه، وكهواية قديمة لم يتمكن من التخلص منها، أخذ يستنتج ماضيهن، وحياتهن العائلية والعاطفية حتى، لابد أن لهن أماً لا تهتم بشيء سوى مظهرها أمام الناس، ومقابلة صديقاتها، وأب لا يكاد يراهن إلا كل شهر مرة أو مرتين

على الأكثر، منشغل بتكديس الأموال الطائلة التي لن تفيده ساعة زيارة عزرائيل على الإطلاق، فالموت لا يقبل الرشاوي!

مر بعينيه على الشباب الذين احتدمت المناقشات بينهم وأصبحت الشتائم والبذاءة تتسلل من أفواههم بصوت خفيض، وسرعان ما تحولت لصيحات عالية لابد أن كل من في المقهى قد سمعها، ودارت بينهم معركة أشبه بصراع الديكة على النفوذ، وانتهى الأمر بنهوض عدد منهم في إنزعاج وخروجهم من المقهى، وهنا عادت هواية زين للعمل، لابد أن كلاً منهم قد قرر أنه لن يحادث الآخرين مجدداً في حياته، ولكن هذه الحرب بينهم ستنتهي بإتصال من صديق محايد ليدعوهم لحضور مباراة ما في منزله، فيعودون أصدقاء وأحباباً كما كانوا، فتجمعهم الكرة كما فرقتهم، يا لهؤلاء البشر!

كان يفكر في كم الغباء والمشاعر المصطنعة في هذا الحيز الصغير من الكون، فكيف بالكم الذي تحويه هذه المدينة؟ لهذا كان يكرههم، أنانيون، ومتطلبون، لا يرضيهم العجب، ولا يقتنعون بأموال قارون، مدينة كاملة قائمة على الاستغلال، والتسلط، مدينة كاملة تعبد المال، وتصلي للدولار!

فكر زين في كمية الوقود التي سيحتاجها ليغرق المدينة، ثم يطفئ سيجارته لتشتعل أحيائها كاملة، ويحترق سكانها كلهم عن بكرة أبيهم!

يكرههم، يكره المدينة بأكملها، بكل سكانها دون إستثناء، ويكره أن يحسبه الناس كواحد منهم، كفرد من هذا المجتمع المفكك، حيث يشرب الإبن من دم أمه طالباً رضاها، ويقتل الأخ أخاه لأجل حفنة من الوريقات النقدية.

مدينة معزولة عن العالم، ذاعت شهرتها بأن هناك مروج مخدرات بين كل عشرة أشخاص، ومن بين هؤلاء العشرة قاتل، ومغتصب، وتاجر أعضاء بشرية، ولص، ومُختَطِف، وفتاة ليل، وقواد، إن قلبت الأمر في رأسك فستكتشف أن هناك ثمانية أشخاص سيئين على الأقل بين كل عشرة أشخاص فيها وهي نسبة مرعبة بالفعل،

ولذا كانت سمعة المدينة مخيفة لهذه الدرجة، فهي مرتع للمخدرات، ومنبع لا ينضب من الكحول والرذيلة تكفي ليعيش العالم بأسره في سُكر وعهر لسنوات قادمة،
كل هذه الكراهية في قلبه، كانت تجعله يتمنى الخروج في كل لحظة، ولكنه رغم هذا يعرف أنه لن يخرج، فهذه مدينته الأم، وسيبقى فيها عذاباً لسكانها، موتاً للخاطئين، ورعباً لكل من يمكن أن يفكر في أن يخطئ حتى!
ووسط أفكاره السوداوية، ووسط كل هؤلاء الناس، لمحها هي ..
في إحدى زوايا المطعم، كانت هي، صبية منعزلة عن العالم تماماً، بخيره وشره، في يدها كتاب تقرأ منه بإهتمام ونهم، شعرها أشقر، وعيناها خضراوان، نقية لم تتلوث بقذارة هذه المدينة بعد، ناعمة، وشديدة الجمال، وقد زادها الكتاب الذي بين أناملها جمالاً ..
إنها "ملاك" ..
تأملها زين بإهتمام متناسياً الفتاتين اللتين تنظران له، والنادلات اللاتي يسترقن النظرات إليه، وقد بدا أنه يبحث عن الأصعب فعلاً، وكأنه في نوع من التحدي مع نفسه ...

- تفضل!

توقظه النادلة من تأمله في "ملاك" على صوتها، حيث تضع فنجان القهوة على الطاولة، وتبتسم له وهي تبرر إحضارها للفنجان وحيداً:

- أخبرتني إحدى النادلات أنك تحب شرب فنجان القهوة قبل تناول الفطيرة، فأحضرت لك الفنجان قبلها كي لا تبرد فطيرتك.
- هذا صحيح، شكراً جزيلاً.
- بالهناء والشفاء.

تقف النادلة مكانها، متأملة في عيني زين أكثر، وكأنها لم تشبع ناظريها منهما بعد، وفي عينيها إعجاب واضح، ثم تقرر الإعتراف بما في قلبها:

- لون عينيك مميز للغاية!

- أعرف، وشكراً على المجاملة.

تتأمله جيداً، ثم تسأله وكأنها لم تنتبه لهذه النقطة، محاولة إطالة الحديث قدر الإمكان:

- خضراء وزرقاء، أليس كذلك؟

- بلى

كانت إجاباته مقتضبة، وزين يسترق النظرة تلو الأخرى لـ"ملاك" التي لا زالت في عوالم الكتاب الذي تقرأه، عندها فهمت النادلة معنى نظراته لتلك الفتاة، وتجاهله لها هي، فأخفضت رأسها وذهبت وهي تجرجر أذيال الخيبة.

يتناول زين علبة السجائر ويسحب سيجارة منها ويشعلها، ينفث النيكوتين في الهواء، ويرشف رشفة من فنجان القهوة، وهو يعدل جلسته بحيث تصبح "ملاك" أمام ناظريه مباشرة.

كانت "ملاك" مندمجة في الكتاب الذي بين يديها، وقد بدا وكأنها إختارت العزلة الاختيارية عن العالم، لتذهب في عالم الرواية!.

"مرحباً!"

ينطلق صوت زين الذي أصبح واقفاً أمامها، ونفهم أن ملاك قد سمعته، ولكنها قررت تجاهله، ربما لأنها لا تريد أن تقطع قراءتها!

يستغرب زين من تصرفها، ليس معتاداً على تجاهل النساء له، فهو الذي يتجاهلهن في العادة ويتظاهر بأنه لا يسمع محاولاتهن لبدء حوار معه، يسألها بإستغراب واضح:

- هل أنتِ هنا؟

ترفع رأسها ببطء، وتتلاقى أعينهما، فيلوح لها زين بيده مبتسماً، محاولاً فرض سحره عليها، ولكن ردها يجعله يكتشف أنه لم يفلح في هذا:

- لا، أنا لست هنا!

يسألها بإستغراب أكبر:

- وكيف هذا؟

ترفع الرواية التي في يدها أمام عينيه، وترد على سؤاله بسؤال آخر:

- ألا ترى الكتاب الذي في يدي؟

يجيب زين دون أن يفهم إلام ترمي بهذا السؤال:

- بلى

ترد ببساطة وتلقائية بالغة:

- إذا فأنا لست هنا!

يبتسم وقد فهم مقصدها أخيراً، ويسألها:

- وأين أنت الآن؟

- أنا في عوالم "تولكين"!

تتسع إبتسامته أكثر لإجابتها، ويسألها محاولاً جعل الحوار يستمر لمدة أطول، وهو يشعر بالسحر وهو ينقلب على الساحر:

- وما الذي تفعلينه هناك؟

- أنا في خضم معركة ملحمية، في الأرض الوسطى، ومعي عدد كبير من "الهوبيت"، هذا إن كنت تعرف ما تعنيه هذه الكلمة أصلاً.

يهز زين رأسه متفهماً، ومتجاهلاً الإهانة المقصودة، ثم يسألها بإهتمام:

- أين وصلتِ في الرواية؟

تستغرب لسؤاله، ولكنها تجيب بأي حال:

- الفصل الخامس

يومئ برأسه بأسلوب العارف بخفايا الامور، ويقترب منها كثيراً، ثم يهمس بلهجة تحذيرية:

- إذا إحذري في الفصل القادم!

تسأله بدهشة بالغة، مستغربة من تحذيره:

- عفواً؟!

- كما قلت لكِ، إحذري فهناك مفاجأة لن تخطر على بالك، وركزي جيداً كي تتابعي دون أن تضيعي في متاهات "تولكين" الشائكة!

يبتسم لنظرتها المستغربة، ويقرر أنه حان وقت الرحيل، فيستأذن منها:

- لا أريد أن أعطلك عن القراءة أكثر، فأمامك مغامرة مشوقة لتعيشيها، ولا تنسي تحذيراتي فهي مهمة، وعذراً على الإزعاج!

يستدير زين ويمشي مبتعداً، ولكن "ملاك" تناديه:

- لو سمحت!

يتوقف زين مع صوتها، ويبتسم، مدركاً أن الطعم قد علق في السمكة، فيعود لجديته ويستدير نحوها عائداً لطاولتها، ويقف أمامها متسائلاً عما تريد، وكأنه أصبح منشغلاً فجأة:

- تفضلي

- هل قرأت الرواية؟

- بالطبع، وإلا فكيف لي أن أعرف كل هذه المعلومات، ومعلومة إضافية؛ أنا قرأت كل حرف كتبه "تولكين" في حياته.

يتحدث زين بتواضع مصطنع، فيما بدت "ملاك" منبهرة:

- يا لحظك!

يبتسم، شاعراً بالفخر لقدرته على جذب إنتباهها بعدما كادت ترميه بالكتاب منذ دقائق، ويقرر أنه سيتابع مع هذه الفتاة الغريبة ليعرف إلى أين سيصل معها في النهاية.

- أنت تشبهينني على فكرة!

تستغرب للأمر، وتسأله:

- من أي ناحية؟

يقترب زين أكثر، ويسحب الكرسي المقابل لها، مجيباً:

- سأخبرك

يجلس زين على الكرسي، دون ممانعة من "ملاك"، ثم يتابع:

- أنا مثلك تماماً، فعندما أمسك الكتاب، يختفي العالم الذي حولي من الوجود، فأصبح أنا البطل، وحياته هي حياتي، ومشاكله تؤرقني في الليل حتى أصحو في اليوم التالي لأعرف ما الطريقة المناسبة لحلها.

تعجب ملاك بالتشابه بينهما، فترد بحماس:

- بالفعل، أنا أشعر وكأنني أغرق بين الكلمات، حتى أصل للمعنى والإحساس الحقيقي الذي أراده الكاتب ساعة الكتابة.

يبتسم لوصفها الوردي للأمور، ويسألها:

- هل أنتِ شاعرة؟

تضحك لسؤاله الذي خرج من العدم، فتسأله بإستغراب:

- شاعرة؟!

- أقصد، هل تكتبين الشعر؟

- كلا!

- ولكن التشبيه السابق يقول عكس هذا الكلام.

- أي تشبيه؟

يجيب بطريقة مسرحية، محاولاً تقليد أسلوبها في الحديث:

- الغرق بين الكلمات!

تضحك بشدة، وكأنها لم تنتبه لما قالته، وتتلاقى أعينهم سوية، ويسود الصمت لبعض الوقت، وهما ينظران لبعضهما مباشرة، ثم يقرر زين أنه حان الوقت للانتقال للمرحلة الثانية، يقترب منها ويهمس بإعجاب شديد:

- هل أخبرك أحدٌ اليوم أنك أجمل صبية في هذا المكان؟

تمط شفتيها وكأنه لم يعجبها أن تكون الأجمل في هذا المكان فقط!

- في هذا المكان فقط؟

يستدرك زين سريعاً وقد إستشعر هذا:

- وبهذا المكان فأنا أعني الكرة الأرضية بأسرها.

تبتسم بخجل لمجاملته، وترد بحياء:

- شكراً على المجاملة.

يستغرب زين من خجلها، وحيائها البالغين، فأي فتاة في هذه المدينة تخجل من كلمة جميلة، وتقرأ في الأماكن العامة؟ بل وتستحي من الغرباء!

إنها ليست فتاة عادية بالتأكيد!

تضرج خداها بحُمرة الحياء، وكأن طوابيراً من كيانات سماوية قد اصطفت في طوابير لتقبيلها! وما هذا الإحمرار إلا تسارعٌ للدم كي يحصل على نفحة من النور، شفتان مزينتان بأحمر الشفاه وكأنهما مسرح عليه فتاة وحيدة رمى عليها الجمهور الحاشد بالورود لشدة جمالها حتى تلونت شفتاها باللون الأحمر بهذا الشكل.

يتابع زين وهو يشعر بأن الكلام يخرج من فمه لوحده دون أن يحتاج لصياغته وترتيبه كما يفعل في العادة:

- ليست مجاملة، بل حقيقة مبنية على دراسات.

تضحك ملاك وتقرر أنه يجب أن ترد المجاملة بمجاملة مثلها:

- وهل أخبرك أحد اليوم أن لديك أجمل عيون في هذا المكان؟

يفتح زين فمه ليرد، ولكنها تردف بسرعة:

- وبهذا المكان فأنا أعني الكرة الأرضية.

يضحك لأسلوبها، ويجيب بتواضعه المصطنع:

- ثلاثة!

يبدو أنها لم تفهم ما يعنيه بإجابته، فيتابع موضحاً أكثر:

- سمعت هذه المعلومة من ثلاثة أشخاص اليوم.

تضحك بقوة، ويضحك زين بدوره رغماً عنه لشدة جمال ضحكتها التي وقعت على مسامعه كأنغام موسيقى كلاسيكية هادئة:

- يبدو أنك شخصية خطيرة في هذه المدينة؟

يبتسم زين، ويجيب ببساطة، وكلامه يحمل ألف معنى:

- أكثر مما تتوقعين!

تبتسم ملاك لثقته البالغة قائلة:

- يا لك من متواضع!

يمد زين يده ليصافح ملاك وهو يقول:

- أنا زين

تصافحه ملاك بيدها الرقيقة وهي ترد:

- وأنا ملاك

- توقعت هذا!

تسأله ملاك ضاحكة:

- ما الذي توقعته؟!

يجيب زين بتلقائية:

- أنكِ ملاك!

تبتسم ملاك وتخفض رأسها في خجل، لتقع عيناها على خبر في الصحيفة المرمية على الطاولة، تمسك بها وتقرأه بإهتمام محاولة إشغال نفسها عن الشاب الساحر الذي يسكب بأجمل الكلام في أذنيها، يراقب زين عينيها وهما تتحركان على السطور.

- ما الأمر؟

تناوله ملاك الجريد ليقرأ، كان الخبر يقول:

- "ديون القمار تتسبب في مقتل رجل على يد أصدقائه!"

تتسع عينا زين وهو يقرأ، ولاحظت ملاك انتباهه للخبر فعلقت مبتسمة:

- هذه المدينة تحمل أعجب الأخبار، ولا أنكر أنه قد لفت إنتباهي كذلك، المصيبة هي أن الفاعل سيبقى مجهولاً كالعادة، لا تدع عبارة "على يد أصدقائه" تخدعك، فهم لن يدخلوا السجن بالتأكيد، سيتملصون من التهمة ويخرجون من الأمر كما تخرج الشعرة من العجين.

لم يرد زين وهو يقلب صفحات الصحيفة باحثاً عن تفاصيل الخبر، هذه جريمة الأمس، كيف وصلت إلى الجرائد بهذه السرعة؟

قرأ الخبر بسرعة، لم يكن واضحاً للغاية، بضع كلمات عن زياد وكيف أنه كان زوجاً مخلصاً وأباً مُحباً لابن زوجته، وكيف عامله كابنه الذي من صلبه، وتستمر الحكايات الخيالية في رفع قدر زياد، وكأنه ملاك مُنَزَل، لكن هذه عادتهم، يبقى الرجل حقيراً حتى يموت، وعندها يتحول لحمل وديع ويتحسرون على خسارتهم له!

يا لهذه الأكاذيب، الجميع يعرفون من هو زياد، وما فعله في حياته!

- لم أنت مهتم بالخبر لهذه الدرجة؟

رفع زين رأسه لملاك مع سؤالها، واخترع كذبة بسرعة:

- لقد سمعت عن هذه الجريمة ليلة البارحة، ولكنني أردت الحصول على تفاصيل أكثر بخصوصها، أنت تعرفين أن الناس ينقلون الأخبار مُبهرة ويبالغون في تفاصيلها لتصبح أكثر تشويقاً.

تومئ ملاك برأسها متفهمة فيما أردف زين:

- ذكرت الصحيفة أن الجريمة سببها مبلغ سخيف.
- يا له من رجل مسكين، لقد قتل من أجل فكة!

لم يتمالك زين نفسه وهو يرد بضيق:

- مسكين؟ من أين تعرفين أنه رجل مسكين؟ ربما كان يستحق الموت بطريقة أبشع حتى!
- لا أحد يستحق الموت على يد آخر، هناك إله يحكم الأمور، لو أن كل شخص قُتِل لمجرد أنه إستدان من غيره ولم يستطع رَدَ الدَين، لأصبحنا نعيش في مدينة أشباح.
- أن نعيش في مدينة أشباح أفضل بكثير من الحياة في مدينة الشياطين الملعونة هذه! في رأيي، هناك أشخاص يجب نزعهم من التربة لنترك مجالاً كي يرى من هو خير منهم نور النهار، لا أستطيع تشبيه هذه الكائنات إلا بالأسنان اللبنية، لابد من سقوطها لتظهر الأسنان الدائمة، وإن بقيت في مكانها فلن ترى الأخيرة النور أبداً.

هزت رأسها في عدم إقتناع وهي ترد:

- لا أتفق معك، كان "غاندي" يقول أن سياسة العين بالعين ستجعل العالم بأكمله أعمى، لو أنه رأى ما يحدث في هذه الأيام لإقتلع عينيه مستخدماً ملعقته التي لا يستخدمها، سياسة الإنتقام جعلتنا عمياناً رغم أن عيوننا لا تزال في محاجرها، سياسة العين بالروح، والروح بأرواح الجماعة المعادية،

هذه السياسة لن تجعل العالم أعمى فحسب، هذه الطريقة في التفكير ستقتلنا جميعاً يوماً ما!

- أتفق معكِ في أن الأمر لا يجب أن يكون عشوائياً، لكن لابد من ظهور من يأخذ حقوق الناس بأن يسلب حقوق الظالمين بالقوة، فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة!

- أفهم وجهة نظرك، ولكن المصيبة أن هذه الجرائم أصبحت معتادة بالنسبة إلينا، نقرأها شذراً لمجرد التشويق، بل أننا أصبحنا نستمتع بقراءتها، كنوع من السادية المنتشرة، ولكننا لا نبالي بها حقاً، والجرائم تزداد فظاعة كل يوم، وكأن الشرطة عديمة الفائدة في هذه المدينة اللعينة.

- لقد خانتك مفرداتك، لا يجب أن تقولي "كأن"، لأن الحقيقة هي أن الشرطة عديمة الفائدة بالفعل، أنا شخصياً أعتقد أن الجرائم في هذه المدينة لا تُحل إلا بقدوم القاتل إلى قسم الشرطة ليعترف بكل أفعاله لهم، أما فكرة ملاحقتهم له فهي ضرب من الخيال العلمي!

هزت ملاك رأسها في إقتناع بما قاله، ثم نبهته لنقطة وهي تضحك:

- ما الذي نفعله هنا؟

إبتسم زين في بلاهة وهو يقول:

- لم أفهم السؤال!

إقتربت ملاك منه وهي تقول مبتسمة وكأنها سعيدة بما حدث:

- أعني أننا نعرف بعضنا منذ متى؟ خمسة دقائق؟ عشرة؟! وها نحن نتناقش في مواضيع عديدة متتابعة وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن.

إتسعت إبتسامة زين أكثر، لم ينتبه للامر، كان يتحدث معها وكأنها صديقة طفولته، إختار الصمت والتأمل في عينيها مباشرة بإعجاب شديد، وكأنه يرى في عينيها

الخضراوين الواسعتين جمالاً لم يره من قبل في حياته، وطهراً لم يعهده في بنات هذه المدينة.

إستمرت النظرات المتبادلة بينهما، وعيونهم تحكي ما لم تقله ألسنتهم ..

ليس بَعد..

**********

# الفصل الثالث عشر

## عرض لا تستطيع رفضه!

أشعل زين سيجارته الأولى منذ بداية حديثه مع ملاك، ونفث دخانها في الهواء، إستمر الحديث لأكثر من ثلاثة ساعات، ولم ينته بعد، تمكنت ملاك في هذا الوقت من جعله ينسى كل ما حدث ليلة أمس، أوشكت على جعله ينسى أنه مدخن لولا أنه شعر بعلبة سجائره تتنحنح في جيبه معلنة إستيائها لهذه الفترة الطويلة من الإنقطاع عنها!

تحدثا في الأدب، والسياسة، والفن، والحياة بمجملها، وكان الحوار أشبه بحديث بين صديقين قديمين، وليس حديث غريبين لم يعرفا بعضهما قبل بداية هذه الجلسة!

- كلمة "أحبك" أصبحت عبارة مستهلكة لشدة ما قيلت من أناس لا يعرفون معنى الحب الحقيقي، أصبح نوعاً من الابتذال أن أخبر حبيبتي بأنني أحبها، لو كان الأمر بيدي، لقلت لها: "أكرهكِ" كنوع من كسر الروتين مثلاً، ولن أخاف، فلمعة عيني ستحكي عن حبي رغم نطق شفتي لما هو مغاير لهذا!

رشفت ملاك من فنجان قهوتها مُستمعة لكلام زين، ثم قالت بصراحة:

- هذا صحيح، سأخبرك بسر، لم أتوقع أن تملك هذا الكم من الثقافة والوعي، فأغلب الشباب في جيلنا يعجزون عن فهم الحروف، ويكادون يهربون من أي شيء يتعلق بالقراءة.
- لا تنخدعي بي، كل هذه الكتب هي محربي الوحيد من الوحدة، هؤلاء الكتب هم رفاقي في الليالي الباردة.
- ولهذا أتيت لطاولتي؟ لأنني أقرأ مثلك؟

- ربما جذبتني عفويتك، أنا لا أرى الكثير من الفتيات القارئات في هذه المدينة، ثم أن ذوقي غريب في النساء، لا أحب المتشابهات، أبحث عن المختلفة التي لا تهتم إن ظن الجميع أنها غريبة أطوار، لا أريد عارضة أزياء لا تأكل إلا القطن، أريد فتاة أستمتع بوجبة دسمة معها، ربما تأكل أكثر مني، لا أبالي، المهم أن تكون على طبيعتها، لا أريدها أن تتناول سلطة القيصر أمامي متظاهرة بالإستمتاع بها فيما تعجز عن نطق اسم الشيء الذي تأكله بالشكل الصحيح، والأسوء من هذا أنها تسرق حبات البطاطس المقلية من طبقي كلما أدرت رأسي.

ضحكت ملاك حتى كاد الشاي يخرج من أنفها، مسحت وجهها سريعاً بالمنديل، وتمالكت نفسها وهي ترد:

- أعجبني تفكيرك، ولكن لا تدع المسميات تخدعك، فتلك المجموعة المتصلة من قصاصات الورق في حقيبتك تدعى بالمفكرة، بينما أنت من تقوم بالتفكير كله، وهناك بعض البشر الذين تناديهم بالأصدقاء بينما الحقيقة هي أنهم لم ينطقوا بحرف واحد صادق في وجهك، لذا فالقدرة على تمييز الكاذب من الصادق، والمزيف من الأصلي، مهمة جداً، إنها أشبه بحاسة سادسة لتفرقة الغريب عن القريب من القلب.

أومئ زين برأسه موافقاً بشدة، وصمت، وساد الصمت بينهما وكلاهما يسترقان النظرات لبعضها بين الحين والآخر.

- لدي سؤال!

قالتها ملاك بتردد وحرج، ليرد زين سريعاً:

- تفضلي.

ترددت لثوان ثم تشجعت وهي تسأل:

- لقد رأيتُ كل الفتيات في المقهى وهُن ينظرن لكَ بإعجاب، وكان يمكنك إختيار أي واحدة منهن لتحادثها، ولكنك إخترتني أنا!

تظاهر زين بالغباء وهو يسأل:

- لم أفهم ما السؤال!

إبتسمت له وقد فهمت أنه يريد سماع ما بقلبها فعلاً، دون مواراة، فسألته:

- لماذا؟ لماذا إخترتني أنا؟

أجابها زين بتلقائية بالغة:

- لأنك مختلفة.

- كيف؟

- لا أعرف بالضبط، كما قلت لكِ، أنا لست معتاداً، على فتيات مثقفات يجلسن في المقهى الذي يعج بالعشاق للقراءة، رغم أنه ليس مكاناً مثالياً لمثل هذا الفعل إن أردت رأيي، بسبب الضجة و.....

إستدرك سريعاً عندما لاحظ أنه يستطرد:

- المهم أنك كنت مختلفة عن كل من حولك، وربما هذا هو ما جذبني لك من بين الأخريات.

إبتسمت ملاك لتبريره، فيما تابع زين:

- وهناك شيء آخر ..

- ما هو؟

- لقد لاحظتِ ما كان يحدث حولك بالتفصيل، ورغم هذا قررت التظاهر بالإندماج بقراءة الرواية عندما أتيت لأحدثكِ، لماذا؟

إبتسمت ملاك وقد إفتضح أمرها بسبب سؤالها، أخفضت رأسها قليلاً وكأنها مترددة في الإجابة، ثم أجابت في خجل:

- لا أعرف، توقعتك ستأتي لتستعرض قدراتك ووسامتك عليّ، ولكنك كنت مختلفاً كذلك، فلم أتوقع أن شاباً مثلك قد يقرأ لـ"تولكين"!

أطفئ زين السيجارة وهو يشير لنقطة هامة:

- إذا، نحن الإثنان مختلفان!

- بالضبط!

قالتها ملاك وصمتت، كانت معجبة به، لا يمكنها الإنكار، فهو يكاد يكون فتى أحلامها القادم على صهوة كتاب!

شاب غامض، ذكي، وخفيف الظل، ساحر وجذاب، حيوي، ومرح، والأهم أنه يفهمها، ويملك قدرة على إدارة الحوار دون أن يجرح الطرف المقابل له، وهي نقطة شديدة الأهمية في رأيها، أما عن شعور زين تجاه ملاك، فهذا موضوع يطول شرحه!

**********

فتح زين باب المنزل ببطء، ومد رأسه للداخل ليجد الظلام يعم المكان، فأمه قد نامت في بيت جده ليلة البارحة بعدما عجزت عن النوم في سريرها، قالت مُبررة عدم نومها في المنزل أنها أخذت تتخيل زياد وهو نائم بجوارها، والذي هو كابوس حقيقي، سواء أكان زياد حياً أو ميتاً!

أغلق باب المنزل ومشى في الظلام نحو زر الإنارة، وضغطه ليعم الضوء الصالة، شعر بشيء يجذبه لمكتب زياد، فإقترب منه بهدوء، ووقف على بابه، كان المكتب مظلماً نسبياً إلا من ضوء يتسلل من الشارع عبر النافذة، وعبر هذا الضوء رأى شخصاً آخر في الغرفة جالساً على مقعد زياد خلف المكتب، ولكن ملامحه غير واضحة بسبب الظلام الدامس.

ضغط زين زر الضوء بسرعة، ليجد رجلاً في أواخر الأربعينيات من العمر جالساً خلف المكتب، وفي يده صورة قديمة لزياد يقلبها بين أصابعه متأملاً إياها، ذو شعر أسود، وشارب كثيف مهذب بعناية، ولحية حليقة، وجسد رياضي رغم عمره..

- من أنت؟

رفع الرجل رأسه لزين، وإبتسم في وجهه وهو يرد:

- أنا صديق!

أجابه زين بحزم:

- ليس لدي أصدقاء

- هذا أفضل!

لم يكن زين في وضع يسمح بإجراء حوار في هذه الساعة المتأخرة من الليل، خاصة بعد يومين كاملين لم يذق فيهما طعم النوم.

صاح بالرجل بعصبية:

- من أنت؟ وكيف دخلت إلى منزلي؟

رد الرجل بتلقائية بالغة، دون أن يهتم لعصبية زين:

- أنا "فارس"، ولكنك لا تعرفني ولم تسمع عني كما يبدو، لأنه لو كنت تعرفني لما سألتني عن كيفية دخولي للمكان، ولكن لا بأس سأعذرك هذه المرة!

إستغرب زين من برود فارس المبالغ فيه، خاصة مع عصبية زين المتزايدة مع كل كلمة، فتمالك نفسه قليلاً وهو يسأله:

- تعذرني على ماذا؟! وما الذي تريده مني؟

- أريد مساعدتك!

ضحك زين للإجابة وهو يسأله بإستهزاء:

- وما نوع المساعدة التي تعرضها بالضبط؟

تابع فارس وكأنه لم يسمع السؤال حتى:

- أنا أعرف ما الذي فعلته!

دارت عشرات الأفكار في رأس زين مع هذه العبارة، هل يعقل أن هذا الرجل يعرف بما فعله فعلاً؟ وإن كان الأمر كذلك فلماذا لم يحضر معه الشرطة، وأتى وحيداً عوضاً عن هذا معرضاً حياته للخطر على يدي زين؟ تسارعت الأسئلة في رأسه دون أن يجد إجابة شافية، ودام صمته أطول من اللازم عاجزاً عن الإتيان بحركة، أو قول شيء.

أخذ فارس يقلب صورة زياد بين يديه وهو يتأمل ملامحه، ثم تابع وعيناه مصوبتان إلى الصورة، دون أن يرفع رأسه لزين حتى:

- أنت فنان حقيقي، ولديك قدرة غير معقولة على الصبر، إن كنت مكانك، لما إستطعت العيش تحت سقف واحد مع شخص كهذا، ولكنك مختلف، تركته يتمادى لتبرر لنفسك ما فعلته، لتستطيع النوم مرتاحاً في الليل

وأنت تؤمن بحقيقة أنك أرحت العالم من شخصية حقيرة مثله، وهي حقيقة أوافقك عليها بشدة!

كان كلام فارس مبهماً ويحمل عشرات المعاني، وأهمها هو أنه يعرف بما فعله زين، فشعر الأخير بالدم وهو يصعد لرأسه غضباً، وهو يصيح بفارس:

- هل ستخرج من بيتي أم أنك ستضطرني لطلب الشرطة؟

إنفجر فارس ضاحكاً بعنف، لتهتز جدران المكتب لضحكته المدوية، ويتراجع زين معها إلى الخلف وهو يراقبه بحذر.

أخذ فارس نفساً عميقاً وهو يقول بإستغراب:

- قاتل يستعين بالشرطة؟ أي عالم نعيش فيه يا ترى؟!

إتسعت عينا زين وهو يسأله بتردد:

- قاتل؟

أجابه فارس بتلقائيته المريبة:

- بالطبع، وقاتل محترف كما يبدو، فقد تمكنت من إخفاء آثارك كلها، وتوجيه إصبع الإتهام لأشخاص آخرين، مع ذكر المبرر كذلك، أنت أيها الفتى قد نجحت في فعل ما يعجز عنه عُتاة الإجرام، لقد قمت بالجريمة الكاملة!

هز زين رأسه نفياً وهو يجيب بمزيج من الإعتراف والتهديد:

- ليست كاملة طالما هناك آخرون يعرفون بشأنها!

- لا يهم، وإن عرف سكان المدينة كلهم، المهم هو ألا تعرف الشرطة بالأمر، فيبحثوا في الأمر ويجدوا دليلاً لم يلقوا له بالاً من قبل.

إبتسم زين بإعجاب متناسياً إقتحام فارس لمنزله تماماً، وهو يطري عليه:

- يبدو أنك محترف!

- أنا الأفضل في المدينة!
- الأفضل في ماذا بالضبط؟
- ستعرف لاحقاً!

أشعل فارس سيجارة، فيما سأله زين:

- ما الذي تريده مني؟
- أريد مساعدتك

زين لا يصدق هذه الكذبة، ويسأله بشك:

- إذا كنت تعرف أنني قد قتلت زياد، وبالأدلة، فلماذا إخترت القدوم إلى هنا وحيداً، لماذا لم تحضر معك الشرطة؟
- كما قلت لك، القاتل لا يستعين بالشرطة!

ينتبه زين لإعتراف صريح في إجابته، فيسأله:

- إذا فأنت تعترف بأنك قاتل؟
- ليس بالضرورة!
- لماذا لستُ خلف القضبان إذاً؟
- لأن عملك أعجبني فعلاً!
- أعجبك؟
- بالطبع، أنت شخص مميز للغاية يا زين، وتحمل في طيات دماغك عقلية إجرامية من الطراز الأول، وهذا ما جعلني أزورك شخصياً.

يضحك زين للمصطلح وهو يعيده بإستغراب:

- عقلية إجرامية؟!
- أجل، وسأخبرك لماذا!

يرمي فارس سيجارته على الأرض رغم أنه لم ينهها، ويدهسها بقدمه وكأنه في الشارع، ثم يتابع وكأنما لم يفعل شيئاً:

- لقد قتلت زياد، ولكنك لم تقتله كما قد يفعل أي شخص آخر، بتهور وجموح، أنت جهزت خطة مسبقة، وضعت قائمة بالمتهمين الذين ستوجه لهم أصبع الإتهام لتبعد عن نفسك التهمة تماماً، ونجحت بالفعل في إبعاد الشكوك كلها عنك، لهذا أعجبني ما فعلته فعلاً، لأنك مختلف، كما أخبرتك.

لم يفهم زين حتى الآن ما المغزى من كل هذا الحوار، فسأله محاولاً إنهاء الحديث الغامض:

- والآن ماذا؟ ما هو المطلوب مني؟ هل أتيت كي تصفق لي على جريمتي بفخر ثم تمضي؟

إستند فارس إلى المكتب، وأجاب ببساطة:

- طبعاً لا، لقد أتيت لأقدم لك عرضاً لن تستطيع رفضه!

- وما هو؟

- أن تصبح واحداً من رجالي، وتغرق في الثروة والسلطة أنت وأحفاد أحفادك! ولكن إن قمت برفض هذا العرض فإن سرك الصغير سيذهب للشرطة، وعندها ستقضي بقية عمرك في السجن.

أجابه زين بعناد:

- أفضل السجن!

إبتسم فارس لتسرعه، وهو يقول:

- لا تكن عصبياً هكذا، لقد أعجبتني فعلاً، ولهذا أتيتك بنفسي في الوقت الذي كان يمكنني فيه إرسال أحد رجالي إليك، وهم لن يكونوا ودودين

معك مثلي بالمناسبة، إن كنت كما أتوقع أن تكون وأرجو أن تكون، فستصبح يدي اليمنى يا فتى، وسأعلمك كل شيء أعرفه حتى تصبح الأفضل.

أمال فارس رأسه لليمين وفي عينيه نظرة مرعبة، وهو يسأله:

- أخبرني، ماذا تريد أن تكون؟

صمت زين متردداً، ثم أجابه بصدق تام:

- أريد أن أصبح عزرائيل هذه المدينة!

لم يتوقع فارس هذه الإجابة، ولكنها كانت دليلاً أكبر على أن هذا الشاب كان يستحق هذه الزيارة الخاصة منه شخصياً!

- لك هذا، سيعرفك الجميع، وسيهابونك، سيخشون المرور في الشارع الذي تمر به.

تابع زين وكأنه لم يسمعه، وكلامه يفوح بجنون العظمة:

- أريد أن يخافني الجميع، يرتعبوا لرؤيتي، سأكون عقاباً لهم على الأرض، لكل من يذنب ويخطئ، سأعاقبه قبل أن ينتقل إلى الجحيم ليلقى عقابه الأكبر.

- فليكن، سأساعدك، وستكون ما تريد!

مرت دقائق من الصمت وزين سارح في أفكاره يتخيل حياته القادمة، قبل أن يسأل فارس:

- فلنفترض أنني قد وافقت، ما الذي يجب علي فعله بإعتباري أحد رجالك يا ترى، ويدك اليمنى كما تقول؟

- أي شيء!

- أي شيء؟

- بالطبع، وطالما أن القتل ليس مشكلة بالنسبة لك، فإن كل شيء آخر سيكون لعب أطفال عندك، والآن، هل أنت معي؟

فكر زين في الأمر، ثم إتخذ قراره بسرعة:

- أنا معك.

إرتسمت إبتسامة على وجه فارس، وهو يمد يده لجيب معطفه ويخرجها حاملة مسدساً، يصوبه لزين الذي يتجمد في مكانه عاجزاً عن الحراك، وهو يسأل نفسه عن فائدة هذا الحوار كله إن كان سيقتله في النهاية!

تمر ثوان من التوتر قبل أن يرخي فارس قبضته الحاملة للمسدس، ثم يرميه نحو زين ليلتقطه الأخير بصعوبة.

ألقى زين نظرة على المسدس، كان مختلفاً، فخماً وغالياً كما يبدو، وأثقل من المعتاد، ذهبي اللون، والأهم أنه كان محشواً بالرصاص.

سأله زين بإستغراب:

- ماذا يفترض بي أن أفعل به؟

- إحتفظ به كهدية، هذا أحد مسدساتي المفضلة، وتقديمه لك ما هو إلا بادرة ثقة وأرجو أن تكون أهلاً لهذه الثقة.

- وكيف تثق بأنني لن أقتلك؟

- لأنك ذكي، ولابد أنك قد استوعبت أن وجودي هنا وحيداً لا يعني أنه ليس هناك دستة من الرجال الواقفين خلف الباب والمستعدون لإقتحامه وقتله إن فكرت في تلقيم المسدس!

يومئ زين برأسه متفهماً، وهو ينظر في عيني فارس، دون أن يعرف أن هذا الرجل سيكون أستاذه في المستقبل، وسيساعده فعلاً على تحقيق حلمه المرعب، وبفضله سيناديه الجميع بالإسم الذي يريد منهم أن ينادوه به، عزرائيل!

أما في داخل زين فلم يكن يهتم بكل طموحات عزرائيل في الظهور، لقد كان زين يفكر في ملاك، تلك الفتاة قد حركت شيئاً في داخلها، ليس الحب، ربما كان حاجة لصديق يسمعه، أو هو إحساس بالألفة، أن تجلس مع شخص يسمع، ويصغي لتفاصيلك وأفكارك حول أي شيء، والجميل أنه كان قادراً على الحديث معها في أي موضوع، ولكنه كان خائفاً من أن يتحول الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، فالحب في هذه المدينة مؤذي، وأشد خطورة من جولة في زقاق مظلم في الليل!

صعد زين لغرفته وفي رأسه سؤال واحد..

متى سيكون لقاؤه القادم بملاك؟

**********

# الفصل الرابع عشر

## رجال الظلام

وقف زين أمام منزله ينتظر قدوم فارس، كما إتفقا ليلة أمس، وأخذ يمضي وقت الإنتظار في تأمل البشر من حوله، يمشون بجواره وكأنهم يعبرون من خلاله، لا يرونه ولا أحد يركز فيه، دون أن يعرف أنه في يوم من الأيام سيقف الوقفة ذاتها، ولكن الشوارع ستكون خالية تماماً، وأي بشري قد يفكر في المرور في الشارع الذي يوجد فيه زين سيغير طريقه على الفور عندما يلمحه، وسيهمس هذا الشخص في قلبه بإسمه في خوف ..

عزرائيل في هذا الشارع فإحذروا!

كان ينتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، حين سيخافه الجميع، وتكون له سلطة عليهم، فيعاقب كل من يستحق العقاب، وسيكون عقابه شديداً.

تمالك نفسه بصعوبة، كي لا يصرخ في هذه الجموع كلها: "أهربوا إلى منازلكم أيها الأغبياء قبل أن تخسروا أرواحكم على يدي!"

ظهر فارس في سيارته من بعيد، وكانت سيارة من أحدث طراز، وتوقف أمام زين الذي لم ينتبه له، فأخفض زجاج السيارة وناداه:

- زين

إنقطعت أفكار زين بغتة ليستدير نحو فارس الذي أشار له أن يركب، فأسرع بالركوب فيها لتنطلق السيارة بهما مبتعدة.

- أراهن على أنك كنت تفكر في مستقبلك.

قالها فارس بثقة، فرد زين معترفاً:

- بالفعل!

- أعتقد أنك كنت تفكر في من ستقتله أولاً، أليس كذلك؟

- على العكس، كنت أفكر في من سأتركه حياً!

إبتسم فارس وكلام زين يزيده إصراراً بأنه قد إختار الشخص الصحيح.

أخرج علبة سجائره من جيبه وتناول إحداها وناولها لزين، ثم أشعلها له، وأشعل لنفسه واحدة بعدها، وسأله بإهتمام:

- من إخترت على قائمتك البيضاء؟ أعني قائمة الأشخاص الذين لن تقتلهم، بإعتبار أن قائمتك السوداء ممتلئة لا محالة.

- أمي فقط، ولا أعرف إن كان هناك أي أحد آخر سيتمكن من الوصول للقائمة.

- ولماذا هي بالذات؟

- لأنها الوحيدة التي تعرف وجعي الحقيقي، وتفهمني دون أن أتحدث أو أشكو حتى.

- ولكنها لا تعرف بما فعلته بعد.

- ولا أريدها أن تعرف.

- لماذا؟

- لأنها ستحزن، ليس على زياد بالطبع، ولكن عليّ أنا.

أومأ فارس برأسه متفهماً، ثم سأله:

- هل كانت تحبه؟

- كلا، كان مجرد زواج قائم على مصالح متبادلة، هي تحتاج أحداً لينفق على المنزل بعد وفاة والدي، وهو يحتاج أحداً يخدمه ويعد له الطعام، ويغسل له ملابسه.

- ولماذا لم تطلب منه الطلاق؟
- طلبت الطلاق منه كثيراً، ولكنه من صنف حقير من البشر، ذلك الصنف الذي يفضل أن يعيش مع إمرأة لا تطيقه على أن يقول الناس أنها قد رفضته ولم تكن مرتاحة بالحياة معه، مثل هذا الفعل سيزعزع ثقته الواهية بنفسه، ويُعَدُ في نظر رجل من هذا النوع طعناً في رجولته.

ضحك فارس للمصطلح بشدة وهو ينعطف بالسيارة إلى طريق فرعي، ثم يخرج إلى طريق رئيسي آخر، ولاحظ زين كل هذه الإنعطافات وفهم أنه يحاول جعله يتوه عن الطريق، ولهذا فتح هذا الحوار من الأساس كي لا يتمكن من حفظ الطريق من أول مرة..

سأله مبتسماً:

- إلى أين نحن ذاهبون؟
- سترى!

لم يزد فارس على هذه العبارة، فأخذ زين يتأمل الطريق والناس ريثما يصلون، دون أن يهتم بحفظ الطريق حتى، كانت الشوارع الفرعية والحواري الضيقة أقذر من شوارع المدينة بعشرات المرات، بجوار كل مستوعب قمامة لابد أن تجد عدة مشردين بشعور كثة ولحى طويلة، وقد تحولت بشرتهم للون الكحلي بسبب حماماتهم السنوية! هناك بائعة هوى عند كل ناصية طريق، وتاجر مخدرات عند كل مفترق طرق، وقاتل في كل زقاق مظلم، وفي كل شارع لابد من ملهى ليلي يفوح بالخمور والرذيلة حتى في النهار!

ولابد من حانة رخيصة تستعمل كملتقى للقتلة المأجورين للبحث عن زبائن.

أخفض رأسه مفكراً، ما الفارق بينه وبينهم؟

لقد أصبح يشبههم، يشبه أكثر شيء يكرهه في حياته، إقشعر بدنه لمجرد الفكرة، وهز رأسه محاولاً إبعادها عنه، ولكن الفكرة أبت الإبتعاد، لقد سقط في الهاوية فعلاً، والآن لا مجال للخروج، لذا فإن كل ما يستطيع فعله هو مواصلة الحفر أكثر وأكثر، ليسقط إلى ما بعد الحضيض، لعله يخرج من الجانب الآخر من الكرة الأرضية، ومن يدري؟ ربما يخرج ليجد نفسه في المدينة الفاضلة.

منذ ثلاثة أيام فحسب، كان يعيش مع زوج أم يكرهه بشدة، ولا يوازي كرهه لهذا الشخص إلا كرهه لمدينة المجانين هذه، وأخذ عقله يستعيد ذكريات أيام مضت في حسابات الأيام، ولكنها لا تزال حاضرة في ذهنه، عندما أخبرته أمه أنها ستتزوج بعد أبيه، لم يصدق، ونفى الفكرة ورفضها قطعياً، ولكنها لم تكن لتعيش وفقاً لرغباته، خاصة مع الضائقة المالية الحرجة التي يمرون بها منذ وفاة والده، فكان عليها العثور على عمل آخر، أو معيل جديد، وإلا فإن هذه المدينة لن ترحمها، وهنا ظهر زياد في حياتها، لا يعرف كيف ولا متى ولا أين ظهر لها، ولا كيف تعارفا ولكنه ظهر، لابد أنه رآها وأعجب بها ثم استفسر من أهالي الحي فعرف قصتها كاملة منهم، وفهم ما تمر به، وقرر إستغلال هذا الموقف لصالحه، ونجح بشدة، لابد أنه قد إرتدى أجمل ما لديه من ملابس، بعدما قلب الخزانة رأساً على عقب ليختار ما سيرتديه محاولاً لفت إنتباهها، وربما مرّ على جاره العطار ورش كل ما وقع تحت يديه من العطور والروائح على جسده، فأصبح يفوح بخليط من الياسمين، والعنبر، وربما الأناناس!
لابد أنه قد أوقفها ودعاها لإحتساء كوب من القهوة في مقهى قريب، فوافقت بعد تردد دام لحظات قليلة، فلابد أنها قد فهمت معنى هذه الدعوة التي جاءت من العدم، لابد أنه قضى الليلة كلها يتغزل بجمالها من رأسها إلى أخمص قدميها!، ولابد أنه لم يتحمل إنقضاء الليلة دون أن يطلبها للزواج، ففعل، ولابد أنها طلبت مهلة للتفكير وذهبت وهي تقلب الموضوع في رأسها!.

لم يفهم لماذا كان يحاول معرفة ما حدث بينهما، وما الذي جذب إنتباهها في شخص كهذا، ولكن ما يعرفه هو أنه رفض الأمر بشدة عندما أخبرته بالأمر، ولكنها قررت الزواج من زياد على أية حال، لتقلب حياتها بأكملها لشكل آخر..

زياد هو السبب..

كان يعرف هذه النقطة جيداً، فلولاه لما تحول إلى الوحش الذي هو عليه الآن، ولما فكر في القتل كوسيلة لإنهاء المشاكل والخلافات التي قد تدور بين أي شخصين عاديين..

في البداية كانت العلاقة بينهما شائكة، فحاول زياد كسبه لصفه بأساليب طفولية، ولكن زين لم يعطه الفرصة، ولكن بعد محاولات عديدة من والدته وبعد أن لاحظت رفض زين التام لزياد ووجوده في المنزل، قرر زين إعطاء زياد فرصة أخيراً، وقرر زياد أن يستغل الفرصة لتنهال الوعود على رأس زين، كان يذكر كلماته جيداً، ووعوده بالذات.

قال له زياد ذات يوم، عندما كان ووالدته لا يزالان مخطوبين فحسب:

- ستكون أنت ابني الذي لم أحظى به بعد، وسأكون لك الأب الذي خسرته، أعطني فرصة فقط.

كان هذا وعداً عظيماً، لو أنه كان صادقاً فحسب، ولكنه كان مجرد أكاذيب، فبعد أسبوع واحد من زواج أمه من زياد، ظهر وجهه الحقيقي، ذلك الوجه الذي حاول إخفائه طوال فترة الخطوبة، ثم كشفه دفعة واحدة بعد الزواج، كان زياد يدعي أنه لا يعاقر الكحول، ولكن زين اكتشف أن زياد قد ملأ خزانة مكتبه بزجاجات المشروب، وأن الأخير يدعي قضاء الليل في مكتبه بحجة العمل، فيما هو في الواقع يشرب حتى يثمل، ثم يصعد ليغط في النوم كالجثة، هذا عدا عن سهراته الطويلة مع أصدقائه في غرفة المكتب، والتي كانوا يلعبون فيها القمار طوال الليل، وغالباً ما تنتهي

السهرة بخسارة زياد لمبلغ كبير من المال، ولكن هذه الخسارة لا تمنعه عن المحاولة في اليوم التالي لعله يعوض خسارته.

مرت سنوات كره فيها زين حياته بكل ما فيها، سنوات من القهر مع شخص كهذا، مدمن على الكحول، فيدور في المنزل أغلب الليل كالدابة، لا يميز بين الباب والنافذة، فيرتطم بالجدار بعنف لأنه لم يره، ويقع أرضاً دون سبب!

وإن لم يكن سكراناً فهو غالباً يلعب القمار مع أصدقائه السكارى!

عض زين شفته حقداً وهو يتذكر تلك اللحظات، فرغم أنه قد قتل زياد، إلا أنه يشعر بأن الأخير كان يستحق عقاباً أبشع، أخذ يفكر في لذة تعذيب زياد حتى الموت!

لمعت عيناه بشر خالص، وهو يفكر في الأمر ويقلبه في رأسه، وحتى أنه فكر في الأسلحة التي سيستخدمها لتعذيبه، قد يقلع أظافره، أو يقطع أطرافه، وربما يفقأ عينيه!

وغاص في أعماق عقله، عائداً لأيام أقدم ..

في ليلة زواجهما لم يدخل زين إلى البيت، وقضى الليلة في الخارج، أحرق علبتي سجائر في ساعات الليل القصيرة، وجلس على أحد المقاعد في حديقة بعيدة، ثم عاد للمنزل متردداً.

كان زياد يبدو كرجلاً طيباً، ولكنهم جميعاً يبدون هكذا في البداية، يتمسكنون حتى يتمكنوا مما يريدون!

ثم يظهرون وجههم الحقيقي!

كانت وعود زياد تتساقط على رأس زين كالمطر، محاولاً جذبه لصفه، ولكنه لم ينجح قط، لأن زين يمتلك قدرة على معرفة الكاذب منذ الصغر، وكان أحياناً يقول لزملائه في المدرسة أنه يمتلك جهاز إستشعار للحقارة في داخله!، وأن هذا المستشعر قد

إكتشف أقصى كم ممكن منها في زياد، لذا لم يتمكن من أن يحبه يوماً، وإن كان يقوم بمجاملته كاذباً في السنة الأولى من زواجهما كي لا تحزن أمه فقط..
وعود كاذبة، لم يحقق زياد أياً منها ..
كان يقول له أنه سيعتبره كإبنه الذي لم يحظ به حتى الآن، وكان هذا الوعد يحمل كذبتين في آن واحد، فزياد لم يعتبره كإبنه على الإطلاق، والكذبة الثانية هي أن زياد كان متزوجاً من إمرأة أخرى ولديه منها إبن صغير يشبهه..
ومرت سنوات وسنوات، وها هو الآن في سيارة واحدة مع أحد أخطر رجال المدينة، إن لم يكن أخطرهم، بعد يومين فقط من قتله لزياد بدم بارد، دون أدنى شعور بالذنب أو الندم حتى هذه اللحظة، ربما كان السبب في ما فعله هو تأثير المدينة، فلهذه المدينة تأثير سلبي للغاية، فهي كمستنقع خنازير، مستنقع من الكحول والدم، يجمع أقذر أنواع البشر وأحقرهم.
من أخطر مدن العالم، حسب إحصائيات حديثة، حيث تساوي روحك حفنة من الدولارات فقط، وتعد المخدرات من أكثر السلع شيوعاً وتوافراً!
" لقد وصلنا "!
قطع فارس حبل أفكار زين عنوة بهذه العبارة، وهو يوقف السيارة أمام قصر في وسط الغابة، حيث هناك طريق واحد يؤدي إليه، لم ينتبه كيف وصل إليه ولا متى، ولم يهتم، ترجل من السيارة مع فارس ووقف يتأمل القصر برهبة.
كانت نظرات زين مليئة بالإنبهار، والإعجاب الشديد بهذه التحفة الفنية، وعيناه مختلفتا اللون تلمعان تحت ضوء الشمس، وهو ينظر للقصر بإحترام وكأنه منزله!

- هذا المكان من أكبر أسراري، ويعادل سرك الكبير الذي لا تريد لأحد أن يعرفه قط، لذا فإن كشف سر هذا المكان يعني النهاية، لي ولك، وإحضارك معي إلى هنا يعني أنني واثق بك، فهل أنت أهل لهذه الثقة؟

قالها فارس دون أن ينظر لزين، وعيناه على القصر.

- لم أخن ثقة أحد في حياتي، ولا أريد أن تكون خيانتي الأولى معك، لأنني أعرف أنها ستكون أغبى قرار أقوم به في حياتي!.

يستدير فارس نحو زين ويرد:

- قرار سليم، لأن من يخونني يجب أن يتذكر أن هذا القرار ليس فقط أغبى قرار، ولكنه آخر قرار سيقرره في حياته بأكملها.

يومئ زين برأسه، فيمشي فارس ويتبعه زين حتى يصلا إلى باب القصر الضخم الذي تتدلى منه جمجمة فضية بإعتبارها مدقة له، يدق فارس الباب مرتين فيفتح رجل مغطى بالوشوم الباب فوراً، ويفسح الطريق لفارس ما أن يراه، ليسمح له بالدخول بإحترام بالغ.

يدخل فارس ويتبعه زين والرجل ذو الوشوم يرمقه من أعلى لأسفل بنظرات غير مريحة على الإطلاق، ثم يغلق الباب خلفهم، ويقف زين ليتأمل المكان بإنبهار أكبر، كان المشهد داخل القصر مختلفاً عما توقعه، الأثاث فخم للغاية، وهناك عدة طاولات في الصالة يجلس عليها عدد من الرجال مفتولي العضلات، الذين تغطيهم الوشوم تماماً، وأمام كل منهم مسدس يعمل على تنظيفه، أو أوراق يراجعها، وشكلهم يوحي بالإجرام بقوة.

تأمل زين الرجال بشيء من الخوف، وإن حاول ألا يظهر شعوره هذا أمامهم، إلا أن منظرهم كان مرعباً فعلاً، يشير فارس لزين كي يتبعه ويصعد الأدراج للطابق الثاني، فيمشي زين خلفه منقاداً وقد شعر بأنه دخل غابة الذئاب بقدميه، يتبعه زين حتى يصلا لغرفة في نهاية الرواق، يخرج من جيبه مفتاحاً ويولجه في القفل ثم يفتح الباب ويدخل فيما وقف زين خارجاً متردداً لا يعرف إن كان يجب عليه الدخول أم لا، ينطلق صوت فارس من الداخل يناديه:

- أدخل، ما الذي تنتظره؟

يدخل زين إلى الغرفة الواسعة، ليجد فارس يمشي نحو خزنة حديدية في زاوية الغرفة، تحتل نصف الجدار، فيما وقف زين مكانه متأملاً فخامة الأثاث، والسرير الملكي الضخم، والسجاد الثمين، بالإضافة للوحات المتوزعة على جدران الغرفة كما هو الحال في الصالة في الأسفل.

- إقترب.

يقولها فارس بعدما فتح الخزانة الحديدية، فيقترب منه زين ليلقي نظرة على محتوى الخزانة، ليكتشف أنها تحوي غرفة كاملة في الداخل، يدخل فارس ويتبعه زين لتكون مفاجأته أكبر مع رؤية محتوى الغرفة.

كانت الغرفة كبيرة فعلاً، وقد إرتصت على جدرانها كل أنواع الأسلحة التي قد تتوقعها، بالإضافة لأسلحة لم يستطع زين التعرف عليها حتى، وهناك العديد من الصناديق المفتوحة على أرضية الغرفة، إمتلأت بالقنابل ومخازن الرصاص والذخيرة لجميع أنواع الأسلحة الموجودة، إقترب فارس من أحد الصناديق الذي يحتوي على سُتَرٍ غريبة المظهر، تناول أحدها وأعطاها لزين الذي بدا مستغرباً وهو يتوقع أنه سيعطيه سلاحاً من هذه الأسلحة، سأله زين بإستغراب:

- ما هذا؟

- هذه سترة مضادة للرصاص، وبما أنك أصبحت أحد رجالي الآن، فسلامتك تهمني للغاية، وأريد منك إرتدائها طوال الوقت، وحتى عند نومك!.

رد زين معترضاً في إنزعاج:

- ولكنني عزرائيل!

إبتسم فارس لإعتراضه الغريب، ثم أجابه:

- في هذه المدينة، حتى عزرائيل يحتاج لسترة مضادة للرصاص!

يبتسم زين بعدما أفحمه فارس برده، وأكمل تأمله للأسلحة عديدة الأشكال والأنواع والإستعمالات، وعيناه تلمعان بالرغبة في إستعمالها، لاحظ فارس النظرة في عينيه، فإبتسم وهو يقول:

- أعرف ما الذي تفكر فيه، لا تخف، سأقوم بتعليمك على إستخدام جميع هذه الأسلحة، وستمتلك بعضاً منها حتى، ولكن كل شيء في أوانه، ولا أريد أن نتسرع، وأريد أن تعرف أنك لن تجد أستاذاً أفضل في هذه المدينة، فأغلب الباقين يفضلون قتلك قبل أن يقوموا بتسليمك مسدساً ملقماً في وجودهم.
- أعرف، ولهذا إخترتك أنت.

إبتسم فارس وهو يرد مستفزاً:

- ولكنك لم تخترني، أنت عالق معي كما يبدو!
- على العكس، ربما أرسلك الموت إلي، كي تعلمني القتل، فآخذ مكانه في هذه المدينة، وأريحه - أي الموت - من عملية قبض أرواح السكان القذرة.
- ربما!

كانت هناك خزانة حديدية أخرى تتوسط الحائط المقابل لباب الغرفة المخفية، اقترب منها فارس وأولج في القفل مفتاحاً خاصاً، ثم فتح الباب لتظهر من خلفه كميات ضخمة من الرزم النقدية، وسبائك من الذهب بإرتفاع الخزانة، عدا السندات وغيرها.

كان محتوى الخزانة يكفي لشراء المدينة بأسرها، مع سكانها!

إتسعت عينا زين وهو ينظر للمبلغ الأكثر من ضخم، فيما تناول فارس رزمة سمينة من الأوراق النقدية، ومرر أصابعه عليها وكأنه يعدها، ثم مد يده الحاملة للرزمة نحو زين ليأخذها، ولكنه رفض أخذها في إصرار رغم أنه يعرف كم يحتاج لهذه الأموال.

- من أخبرك أنني أريد المال؟

- لا أحد، ولكنني أحب ترك بعض السيولة بين يدي رجالي، في حال إحتجت منهم إحضار شيء ما لي في أي وقت!

إبتسم زين لتبريره، وهو يسأله:

- إذاً فأنت تعطيني المال من أجلك، وليس من أجلي؟

- بالضبط!

أخذ زين الرزمة منه، وأمسكها بين أصابعه بإستغراب، فهو لم يحمل مثل هذا المبلغ من قبل في حياته، رفع رأسه لفارس مستغرباً مما يفعله معه هذا الغريب، أغلق فارس الخزانة، ثم إستدار إلى زين ليقول:

- أهم نقطة يجب عليك تذكرها، في حال أصبح لديك رجال تحت إمرتك في المستقبل، هو أن تحافظ على كرامتهم، لا تحاول التقليل من قدر أي منهم لأي سبب كان، وإنتبه للكلمات التي تقولها لهم، لأن فرصة قتل أي واحد منهم لك في هذه اللحظة أكبر من فرص قدرة ألد أعداءك، هل تفهمني؟

- بلى

- وكذلك، لا يجب عليك أن تشعرهم بأن ما تقدمه لهم كمقابل لأتعابهم هو مجرد حسنة منك، كلا، أشعرهم بقيمة عملهم، كي يواصلوا ما يفعلونه بأمانة، أعطهم ثقتك، ولكن ليس على الفور، فالأيام هي التي ستحدد إن كانوا يستحقون هذه الثقة أم لا، إرفع من مقامهم، ليرفعوك إلى السماء، فلتكن هذه الكلمات مبدأ حياة بالنسبة لك.

- وهو كذلك.

- ممتاز، والآن فلنذهب

خرج زين من الغرفة السرية، وتبعه فارس بعد أن أغلق الخزنة، ثم أشار له كي يتبعه، وخرجوا من الغرفة بأكملها، وأخذوا يمشون متجاورين في الرواق نحو السلالم.

وضع زين الرزمة في جيب معطفه الداخلي، ومشى خلف فارس وفي رأسه العديد من الأفكار، لقد دخل عالم الإجرام للتو، وسيغوص في هذا العالم حتى القاع في الأيام القادمة، دون خوف من الغرق، وكله ثقة في أن لديه هدفاً في حياته، فهو لم يخلق عبثاً بالطبع، هناك سبب لوجوده في هذه المدينة، ولتعرضه لكل هذه الظروف التي نحتت شخصيته بهذا الشكل، حتى وصلت به في النهاية إلى هذا المكان، إلى مقر أكبر عصابة إجرامية في المدينة، ليتعلم على يد رجل من أعتى عتاة الإجرام والقتل في المنطقة بأسرها، لقد دخل عالم الإجرام للتو، وتلك الجريمة الأولى التي إرتكبها كانت المفتاح لحياة الإجرام التي سيقضي بقية عمره فيها، دخل من بوابة كبيرة في قلب عالم الجريمة، لا يفتحها إلا رجل بيدين ملطختين بالدماء!

**********

# الفصل الخامس عشر

## تهديد!

ثلة من المجرمين المحترفين ..
هذا كان أقرب وصف يمكن لزين أن يصف به تلك العصابة المرعبة المجتمعة حوله، فقد سمع في ليلة واحدة قصصاً منهم أكثر مما قد يسمعه في حياته كلها، فهذا قتل عائلته كلها ليستولي على الورث، وذاك أصبح القتل عنده مجرد ضغطة زناد، وآخر تحول لقاتل مأجور بعدما تركته زوجته لتهرب مع عشيقها، فما كان منه إلا أن قتلهما في سرير الخيانة.
أخذوا يستعرضون أمام القادم الجديد، وزين ينتظرفي مزيج من الصبر والحذر، حتى وصل الدور إليه، فحكى لهم قصته، أخبرهم كيف قتل زياد بدم بارد، ثم لفق التهمة لأشخاص آخرين، وشرح الجريمة بالتفصيل، وكيف توصل إلى الفكرة، والأسباب التي دفعته لفعل ما فعله، ليرى الإنبهار يطل من أعينهم لهذا الشاب الذي لم يتم العشرين من عمره، وفي رقبته قتيل لم يندم على قتله لحظة واحدة.
أخذوا يتحدثون في مواضيع شتى، ولكن زين لم يكن معهم، كان عقله يسبح في مكان آخر، في منزل زياد، قبل أسبوعين من الجريمة.
كان زين جالساً في طرف غرفة الجلوس يلاعب كلبه الأسود، وعيناه مصوبتان على زياد وعلى وجهه ملامح الضيق، وكان زياد جالساً مع ثلاثة من لاعبي القمار وقد إلتفوا حول طاولة تناثرت عليها أوراق اللعب والأوراق النقدية وكؤوس الشراب، تعلو أصوات اللاعبين وزياد معهم مع فوز أحدهم وجمعه للمال الموجود على الطاولة ساخراً، ثم يبدؤون باللعب مرة أخرى ويرمي كل منهم بمبلغ من المال على الطاولة كرهان منه، ويصل الدور لزياد الذي يبحث في جيوبه فلا يجد شيئاً يراهن به معه، يصيح به أحدهم بضيق:

- ما الذي تبحث عنه؟

يرد زياد بإحراج بالغ:

- لا أملك شيئاً أراهن به في اللعبة.

- فلتراهن على شيء آخر، المنزل مثلاً!

ينظر زياد حوله متفكراً ثم يتوقف بصره عند الكلب "دون" فينهض سريعاً ويمسك بالكلب ويسحبه من بين يدي زين الذي يصيح به بإستهجان:

- ما الذي تفعله؟

- سترى!

يسحب زياد الكلب حتى الطاولة، ثم يجلس على مقعده ويشير للكلب:

- سألعب على الكلب!

زين يهب ويسرع نحو زياد ثم يمسك برسن الكلب ويجذبه بقوة:

- على جثتي!، هذا كلبي أنا.

ينهض زياد عن المقعد، ويقترب من زين ببطء، ويهمس له:

- سأفعل، كل شيء في هذا المنزل ملك لي، لهذا إن زدت كلمة أخرى، فسأراهن بك في اللعبة، وسأخسرك عن قصد لأرتاح منك ومن هذا الكلب المزعج!

يتراجع زين ويفلت رسن الكلب مع هذه الكلمات القاسية، فيمسك زياد بالرسن ويسحبه نحو الطاولة مجدداً، يجلس ويشير للكلب ثانية:

- ما رأيكم؟

يمد أحد الرجال يده ليلاعب الكلب بإهتمام، لكن "دون" يعوي في وجهه ويوشك على قضم أصابع الرجل لولا أنه سحبها في اللحظة الأخيرة.

- ما نوعه؟

يسأله الرجل وقد بدا أن الكلب قد أعجبه رغم شراسته.

- هذا كلب (الراعي الألماني)، وهو نوع غالي للغاية، يمكنكم بيعه بمبلغ كبير إن فزتم به، ما رأيكم؟

- أنا موافق.

راقبهم زين في قلة حيلة وهم يتساومون على كلبه، يوافق الرجال على رهان زياد، وتبدأ اللعبة، ترتمي الأوراق على الطاولة، حيث يتناوب الرجال على رمي الأوراق بتركيز، وزين يبدو مركزاً أكثر منهم وهو يتمنى، على عكس العادة، ألا يخسر زياد هذه المرة، تتكشف الأوراق ببطء، حتى يصل دور زياد فيكشف أوراقه لنكتشف أنه صاحب اليد الأقوى.

يبدأ بجمع الأموال عن الطاولة لناحيته في إنتصار، يمسك زين برسن الكلب ولكن زياد يجذب يده بعنف ليهمس في أذنه بأسلوب بالغ الحقارة:

- يا لحظك!

يجر زين كلبه ويخرج كالعاصفة موشكاً على الإنفجار بزياد وأصحابه، يقهقه زياد ضاحكاً وهو يراقب خروج زين بهذه الطريقة المسرحية، يجرع ما تبقى في كأسه بسعادة، ثم يعود للعب.

في اليوم التالي قضى زين النهار في غرفته العائمة بالفوضى، والتي تليق بغرفة مراهق في السابعة عشر من عمره، قضى يومه كاملاً في الغرفة، لم يستطع الخروج منها، يدخن بشراهة كمدخنة قطار، وبجواره صديقه الوحيد في هذه الليالي، كلبه العزيز "دون".

كان مستلقياً على سريره، واضعاً يداً خلف رأسه، وباليد الأخرى يمسك سيجارة مشتعلة، يدخن بغضب والدخان يوشك على الخروج من أذنيه!

أطفئ السيجارة، ومد يده لعلبة السجائر وسحب سيجارة أخرى! فهو تكاد لا تنطفئ السيجارة في يده على الإطلاق، خاصة عندما يكون متضايقاً أو عندما تكون هناك موسيقى تحجب عن مسامعه أصوات البشر أجمعين، لكن الموسيقى لم تكن عالية بما يكفي!

نفض زين رماد سيجارته في المنفضة، ثم جذب نفساً طويلاً منها ونفثه في الهواء، هناك صوت موسيقى ينبعث من راديو قريب، ومن خارج الغرفة تعالى صوت فتح باب المنزل، فتغيرت ملامح زين فجأة للضيق، ومع إغلاق الباب، عرف أن زياد قد عاد إلى المنزل.

وضع زين السيجارة جانباً، وأخفض صوت الراديو كي يسمع ما يدور في الأسفل، في البداية سمع صوت عراك كلامي بين والدته وزياد كالعادة، ثم سمع صوت ارتطام وتحطم شيء على الأرض، هب زين سريعاً بعصبية، خرج من الغرفة، وأسرع يهبط السلالم حتى وصل للطابق السفلي، حيث وجد زياد يقف مستنداً لباب المنزل، وقد بدا عليه السكر، ورائحة الكحول تفوح منها حتى وصلت إلى موقع زين!.

بجوار زياد مزهرية مكسورة، كان يفترض بها أن تكون على طاولة قريبة، والورود التي كانت في المزهرية تملأ الأرض، ووالدة زين تقف بعيداً وهي تنظر لزياد بأسى، والدمعة تترقرق في عينيها ثم تسيل على خدها نادبة حظها التعس، وصعد الدم لرأس زين مع رؤيته لدموع أمه، صاحت في زياد بإنكسار:

- كفى، أستقضي حياتك بهذا الشكل؟

صاح زياد بها بصوت أعلى:

- دعيني وشأني، سأعيش حياتي كما أريد، أتفهمين؟

لم ترد، فيما انحنى زياد على الورود بحزن خلقه الكحول، وأخذ يحمل الورود من على الأرض ثم ينثرها في الهواء ضاحكاً، ثم يعود فيجمعها مرة أخرى، ويعيد الكرة مجدداً،

تصيح به أم زين بأسى:

- كفى، أرجوك، هذا يكفي!

يصرخ في وجهها بعصبية:

- لا تتدخلي، لا تعكري مزاجي!

إنحنى زياد بعدها على الورود ليواصل اللعب بها، وزين يراقبه والشياطين تتراقص أمام عينيه فعلياً.

تقترب أم زين من زياد وتمسك به محاولة إيقافه، لكنه يصفعها بقوة ويدفعها بعيداً فتسقط على الأرض وهي تبكي بحرقة، يغلي الدم في رأس زين بعد ما رآه، ويسرع نحو زياد، وفي عينيه نظرة عزرائيل الذي يتحكم في جسده الآن لشدة غضبه، ويلكمه بكل ما أوتي من قوة على وجهه، ثم ينهال عليه بالضرب بكل عصبية.

كانت صدمة زياد لا تقارن بصدمة أم زين، التي تعرف ضعف إبنها، وكيف لم يكن يجرؤ على رفع رأسه أمام زياد، من أين أتته القوة ليضربه ، بل من أين تعلم القتال بعدما كان يعود كل يوم إلى المنزل وقد ضُرِبَ من مُتنمري المدرسة، كان يبدو لها وكأن الشيطان قد تَلَبَسه!

تساقطت اللكمات على وجه زياد بكل قوة، لتتفجر الدماء من أنفه وفمه، مع تحطم أنفه وعدد من أسنانه ، يتوقف زين عن ضربه فجأة وهو يلهث من فرط الغضب، ينظر حوله ليجد قطع المزهرية الزجاجية المحطمة وتلمع في رأس عزرائيل فكرة مرعبة. مد زين ، الذي لم يعد زين، يده ببطء وأخذ قطعة زجاجية كبيرة، نظر لها يرى إنعكاس وجهه عليها، مع الإضاءة رأى عينيه سوداوتين تماماً، وكأن البياض الذي فيهما قد إختفى تماماً، ليظهر بشكل شيطاني مرعب، كان والد زين يقول له:

- العيون هي مرآة القلب

تذكر هذه المقولة الآن، وأدرك مدى صدقها، فها هو يرى عينيه سوداوتين، من شدة السواد الذي زرعه زياد وعزرائيل فيهما على السواء، في تلك اللحظة، كان مستعداً لقتل زياد فعلاً.

رفع زين يده الحاملة لقطعة الزجاج المكسورة وأخفضها نحو صدر زياد، لكن أمه أوقفه في اللحظة الأخيرة، أمسكت بيده قبل أن يصل طرف القطعة الزجاجية الحاد إلى صدر زياد بسنتيمترات، وهمست له متوسلة:

- لا تفعلها، أرجوك.

رفع زين رأسه لأمه لينظر لعينيها السابحتين بالدموع، سالت دمعة على خد زين لشدة تأثره في هذه اللحظة، هذه الدمعة خرجت من قلب زين، الذي تمكن من إيقاف عزرائيل قبل قتل زياد، لأنه لم يكن مستعداً لأن يراه مقتولاً بعد، وكذلك فهو لا يريد لأمه أن تراه وهو يقتله، تابعت أمه في رجاء:

- لا تفعلها أرجوك، هو ليس بوعيه، ولا يعرف ما الذي يفعله.
- دعيني أقتله، أرجوكِ، دعيني أخلصك منه فهو لا يستحقك.
- كلا، لن أدعك تلقي بنفسك إلى التهلكة بسببه، ولن أسمح بأن يضيع مستقبلك بهذه البساطة، لا تخسر نفسك من أجله، دعه فالموت أقرب إليه مما تتوقع.

زاد زين من ضغطه على القطعة الزجاجية حتى بدأت تقطع جلده، لتسيل دماؤه دون أن يشعر بهذا حتى من شدة الغضب الذي يصارعه مجبراً، ولأن دماء عزرائيل السوداء التي كانت تجري في عروقه منعته من الإحساس بالألم، فكيف للسبب في الأوجاع أن يشعر بأي منها؟

كان زين يحاول السيطرة على شفتيه بكل طاقته، ولكن الكلمات خرجت من فمه بصوت عزرائيل رغماً عنه:

- بالفعل، والدليل أنه يمكنني أن أسلمه للموت الآن!

إستشعرت أم زين إختلافاً شاسعاً في نبرة صوته، هذا ليس صوت إبنها ولا نبرته في الكلام، وليس هذا طبعه بالتأكيد، لم يمد زين يداً على زياد رغم أنه كان شاهداً على أفعال أفظع منه تجاهها، ما الذي تغير بهذه السرعة؟

مسحت على كتفه وهي تقول بصوت مبحوح من شدة البكاء:

- أرجوك، دعه من أجلي.

تجمد زين ونظره مركز على زياد الملقى على الأرض فاقداً للوعي، والدماء تسيل من أنفه وفمه بعد لكمات زين، أو عزرائيل، الوحشية، مرت لحظات من الصراع الداخلي بين زين وعزرائيل، إنتهت بتأجيل قتله لزياد كرامة لأم زين فقط، وليس لسواد عيني زياد بالتأكيد.

رمى زين بقطعة الزجاج على الأرض وهو يزفر زين زَفرةً غضب كفيلة بإذابة القطب المتجمد، زَفرةٌ بِطعم الجحيم!

نهض ومشى مبتعداً بهدوء ثم توقف وإستدار نحو أمه الجالسة بجوار زياد على الأرض،إختنقت الكلمات في حلقه وهو يقول بصوت زين هذه المرة:

- لا تخافي، لن يتذكر هذه الليلة بأسرها عندما يصحو، كالعادة في كل مرة يثمل فيها، رغم أني كنت أتمنى أن يتذكر ما حدث.

ألقى نظرة أخيرة على زياد وتابع:

- تحسباً، أخبريه أنه قد سقط من على السلالم!

صعد زين السلالم فيما نهضت أمه وتجلس على أريكة مجاورة لتجهش بالبكاء، تتشنج ملامح زين مع سماع صوت بكائها ومعرفته بأن سبب هذه الدموع مستلقٍ على أرضية الغرفة، وأن مصيبتها ستنتهي بمجرد زرع سكين في صدره، أو رصاصة في رأسه.

أغلق زين باب غرفته ووقف مكانه وهو يرتجف من الغضب، متخيلاً ما ستكون عليه حياته إن قام بقتله بالفعل، كل شيء سيكون أفضل حينها، وسيقضي على مشاكله كلها بهذا الفعل على الفور..

"زين!"

يفيق زين من ذكرياته على صوت فارس وهو يناديه، يستدير نحوه بحدة بعد قطع حبال ذكرياته بهذه السرعة، ليجد نفسه لا يزال في مقر المنتقمين، وحوله رجال العصابة الذين كانوا ينظرون له وهو غارق في أفكاره التي تعود لسنوات مضت..

- أين شردت يا فتى؟
- لا شيء، ذكريات قديمة فحسب.

يدفن زين رأسه بين كفيه، ويزفر في إنزعاج، ومن حوله يعود الرجال لحواراتهم مجدداً، ويعود هو لحياته التي قام فيها بقتل زياد فعلاً، يُفكر في إن كان قد تسرع في قتل زياد، وكان السؤال يتكرر في رأسه بقوة دون أن يتمكن من إبعاده، ولكن الجواب كان واحداً في كل مرة ...

كلا!

لم يكن ضرب زياد لأم زين أمراً جديداً، ولكن هذه المرة كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، أو ربما هي القشة التي ستقصف عُمر زياد!.

كان يمكن لزين أن يتحمل المعيشة مع زوج أم سكير مقامر، وغبي، ولكن أن يعيش مع زوج أم يضربها، لا يمكنه أن يتحمل هذا أبداً، ولكنه لم يكن يستطيع فعل شيء في السابق سوى محاولة منعه أو إيقافه من ضربها، وكانت كلها محاولات فاشلة تنتهي بأن يُضرب زين بدوره، ولهذا كان ظهور عزرائيل مفيداً للغاية، فلولاه لما نجح زين في الحصول على ثأره، لأن ضعفه لم يكن يسمح له بالرد في وجهه حتى، فكيف له أن يقتل ما لا يجرؤ على شتمه!

إحترق زين لمدة طويلة، وهذا الإحتراق أحاله إلى رماد، ولكن، ومن رماد زين، نهضت عنقاء الإنتقام ...

عزرائيل!

**********

جلست أم زين على الأريكة، مرتدية الملابس السوداء الخاصة بالحداد، والصمت يلف الغرفة والمنزل الفارغ، لم يكن إرتدائها للأسود تمثيلاً، فلا أحد سيأتي ليُعزيها سوى بضع صديقات يعرف أنها لن تحزن على زياد، وإن فعلت فهي ستكون كالعُنق التي تُقدس السكين التي تذبحها!

كان السواد الذي ترتديه تعبيراً عن نهاية مرحلة، وبداية حياة جديدة، كسواد السماء في الليل، والذي سيتبعه الشروق لا محالة، والشمس ستقتل كل آثار الظلام التي كانت تحتل المكان.
لم يكن الحزن بادياً عليها، ولكنها كانت مصدومة بعد ما حدث، رغم أنها تكره زياد، وتتمنى له الموت كل يوم، إلا أنها لم تتوقع أن يكون هناك من ينصت لأمنياتها ودعائها!

مرت ثوانٍ إضافية من الصمت، قبل أن ينطلق صوت طرقات قوية على باب المنزل ليقطع السكون بعنف، نهضت أم زين فَزِعة من الطرقات المفاجئة، مشت نحو الباب بحذر ووقفت خلفه، نظرت من العين الساحرة لتجد عدة رجال مألوفين، وكانوا آخر من تريد رؤيتهم في هذا الوقت، كانوا أصحاب زياد الذين إعتاد على المُقامرة معهم، وهم الذين قاموا بقتله حسب كلام الشرطة، فما الذي يفعلونه بعودتهم لمسرح جريمتهم، سألت بصوت عالٍ:

- ما الذي تريدونه؟

يأتي صوت رجال يتكلمون بعبارات غير واضحة من الخارج، ثم يظهر صوت رجل يرد عليها بصوت جهوري مخيف:

- إفتحي الباب!

إرتجفت بقوة وهي تقول محاولة إخفاء رجفة صوتها:

- زياد لم يعد هنا، لقد قتلتموه وانتهى الأمر، لا يوجد أي مبرر لقدومكم إلى هذا المنزل، إما أن تخبروني عن سبب مجيئكم أو اذهبوا في حال سبيلكم قبل أن أطلب الشرطة.

ينطلق صوت ضرب قوي على الباب، والرجل من الخارج يصرخ وكأنه لم يسمع أياً مما قالته:

- إفتحي قبل أن أحطم الباب!

إرتجفت أم زين للفكرة بخوف، في الوقت الذي إرتفع فيه صوت الطرق على باب المنزل حتى شعرت به يتخلخل وكأنه سيتحطم بالفعل، أخذت نفساً عميقاً محاولة تمالك أعصابها، ثم مدت يدها لمقبض الباب مرتجفة، وفتحته ببطء، ولكن ثلاثة رجال دفعوا الباب بعنف من الخارج لتسقط أرضاً والرجال يدخلون للمنزل عنوة، نظر الرجال الثلاثة حولهم حتى وقعت أعينهم على أم زين وهي تنهض ببطء عن الأرض لتقف أمامهم وهي ترتجف، يسألها أحدهم بغلظة:

- أين زياد؟

تطرق وهي تقلب الإجابة في رأسها، كيف يسألونها سؤالاً كهذا بعد أن قتلوه؟، وفي نفس الوقت ترددت في إتهامهم بقتله كي لا تُغضبهم أكثر..

- زياد ميت

ينظر الرجال لبعضهم بجدية وإستغراب، ثم ينفجرون ضاحكين وكأنهم سمعوا نكتة، يقترب منها أحدهم ويسألها بإنزعاج:

- يا لهذه الكذبة! لقد كنا نلعب معه قبل أسبوع

- لقد قُتل قبل عدة أيام

يبدو عليهم عدم التصديق، يصيح بها أحدهم:

- أخبرينا بمكانه دون كذب

كان الصدق يبدو عليهم، هؤلاء لا يعرفون بمقتل زياد، كانوا يتبادلون النظرات المُستغربة وكأن ما يسمعونه خبر جديد، وفي رأسها كانت الأفكار تتسارع بعنف، إن لم يكونوا قاتلي زياد، فمن قَتَله؟

نَهرها أحد الرجال لمّا طال صمتها:

- أجيبي يا إمرأة!

- زياد قُتل، كما أخبرتكم

حك أحد الرجال رأسه بعصبية وهو يقول:

- ألم تجدي كذبة أفضل من هذه؟ أنا أدعى "الغُراب"، إن لم تَسمعي بي من قبل فسأكون مسروراً بأن نتعرف!

إبتلعت أم زين ريقها وهي تشعر أن الرجل سيضربها وهي تقول محاولة قدر إستطاعتها ألا تُغضبه أكثر:

- إذهبوا للمقبرة إن لم تصدقوني

إقترب منها "الغُراب" وأمسك بها من يدها بقوة، وهو يقول:

- إسمعيني جيداً، زوجك إستلف مالاً منا، ونحن الآن هنا لأخذ أموالنا، لا يهمني إن كان ميتاً أو حياً، أريد مالي بأي طريقة كانت، عشرون ألفاً بالتمام والكمال.

أفلتها الرجل فيما أخذت ترجوهم بيأس:

- كيف سأؤمن هذا المبلغ الكبير؟

أمسكها رجلٌ آخر من شعرها وجذبها نحوه بحدة ليهمس لها:

- لا يهمني، قومي ببيع المنزل، أو بيع الذهب الذي تملكينه، يمكنك بيع جسدك حتى، صدقيني أنا لا أهتم!، المهم هو أن تحضري لنا المال،

سأعطيكي مهلة إلى الغد في نفس هذا الوقت، وإلا فأنتِ لا تعرفين ما قد نفعله بك.

سكتت أم زين دون أن تجد رداً، نادى "الغراب" الرجلين في لهجة آمرة:

- فلنذهب.

خرج الرجلان أمامه فيما إستدار "الغراب" لأم زين مهدداً:

- ٢٤ ساعة، وسنعود بعدها لنأخذ مالنا.

خرج "الغراب" من المنزل فأسرعت أم زين لتغلق الباب خلفهم، إستندت للباب وهي تبكي حتى سقطت أرضاً وفي عينيها نظرة مظلومة، لم يدعها زياد تعيش حياتها وهو حي يرزق، والآن سيمنعها من أن تعيش حياتها حتى وهو جثة هامدة، هو كاللعنة التي أصابت هذا المنزل، وستحمد الرب كل يوم لأنها تخلصت منه، وستُمَجِد القاتل!

**********

# الفصل السادس عشر

## أرواح رخيصة

" ما الأمر؟"

قالها زين ما إن دخل المنزل ورأى والدته منكمشة على نفسها في زاوية الغرفة وهي ترتجف من شدة البرد، أسرع نحوها وساعدها على النهوض، خلع معطفه ولفه حولها ليوقف إرتجافها وأجلسها على الأريكة ببطء.

- أخبريني

أعاد سؤاله فيما كانت تمسك بأطراف المعطف لتحتمي من البرد، ووَدت لو أنها كانت قادرة على الإحتماء من الظلم والخوف بواسطته كذلك، أجابته وفي صوتها بَحة حزينة:

- زياد، لم يكن ليتركنا نعيش من بعده بسعادة.

أخفض زين رأسه مصدوماً لكلامها، ثم سألها:

- ما الذي حدث؟

- لقد جاء لاعبوا القمار الذين إعتاد زياد على اللعب معهم، وقالوا أن زياد يدين لهم بمبلغ ضخم، وهددوني بأنهم سيؤذوننا في حال لم نؤمن لهم المبلغ.

إرتفع الدم لرأس زين بعصبية وهو يرد:

- وما ذنبنا نحن؟ فليذهبوا ليستردوا دينهم منه هو!

سألته بإستغراب:

- وكيف سيستردونه من رجل ميت؟

- لا أهتم، لسنا نحن من إستلفنا هذا المبلغ منهم، ولسنا نحن من يجب علينا إعادته لهم، فليذهبوا إلى الجحيم وهناك يمكنهم مطالبة الرجل بأموالهم!

إرتجفت وهي تُذكره بنقطة هامة:

- هذا الكلام لا يُغني ولا يُسمن من جوع، أنت تعرف أنهم لن يترددوا في إيذائنا إن لم نؤمن لهم المبلغ.

أمسك زين بيد أمه وقبلها بصدق، ثم رفع عينيه لينظر في عينيها مباشرة وهو يقول مُطمئناً:

- لن أسمح لأحد بأن يؤذيكِ في أي ظرف كان، أنتِ لا تعرفين ما يمكن أن أفعله، وفعلته بالفعل، من أجلك، لذا فأنا لن أسمح لثلة من السُكارى الأغبياء بأن يؤذوا الشخص الوحيد الذي يهمني أمره في هذه المدينة برمتها.

وضمها إلى صدره بحنان، محاولاً منحها بعضاً من ثقته، لتخف رجفتها بقوة مع دفقة الحب التي منحها إياها زين، قَبَلَ الأخير رأسها فإبتسمت وهي تقول من وسط دموعها:

- لا أحد غيرك يعرف كيف يُعدل مزاجي.

شد على يدها وهو يرد مبتسماً:

- هذا لأنني أعرفك كما أعرف نفسي، كما أنك الوحيدة التي تعرفين كيف تنتشلينني من حزني المطبق، نحن لا نملك إلا بعضنا في هذه المدينة، وسأكون كتفك الذي سيَسندك بقية عمرك.

إحتضنته أمه بشدة أكثر، وفي داخل زين كان عزرائيل يراقب في صمت، لا يُصدق أن هذا الحب الصادق نابع من شاب يحمل في قلبه كراهية خالصة كانت خاتمتها جريمة قتل لم تَجف دماء ضحيتها حتى الآن.

سألته أمه دون أن تجرؤ على إفلاته:

- وماذا سنفعل؟

- لا تخافي، سأهتم بالأمر.

- ولكن كيف؟

إبتعد عنها زين بصعوبة، ونهض فجأة وهو يقول:

- سترين!.

أسرع زين خارجاً من المنزل بأكمله، وسط نظرات أمه المستغربة، تاركاً لها معطفه لتتدفأ به، فيما خرج هو لتضربه موجة من الهواء المتجمد وهو يمشي نحو سيارة زياد ليركبها ويغلق الباب خلفه.

ضرب زين مقود السيارة بعنف وصرخ بأعلى صوته، صرخ ملئ حنجرته، صرخ على المدينة بأكملها، وعلى روح زياد التي لن تتركه يستمتع بالحياة بدونه كما يبدو، ولكنه لن يسمح بهذا، لن يسمح لأحد بأن يسلب منه ما فعل المستحيل حتى يحصل عليه، لن يسمح لهم بإيذاء أمه مهما كان الثمن، فقد قتل مرة من أجلها، ولا يمانع القتل ثانية!

**********

إرتجف زين من البرد وهو واقف في كابينة الهاتف الصغيرة، ممسكاً بالهاتف الذي يخرج منه صوت فارس وهو يقول:

- من أين أتتك هذه المصيبة الآن؟ لم تكد تفرح بالإنجاز الذي فعلته ليأتي هؤلاء ليعكروا عليك صفو إنتصارك!.
- لا أدري، هذا ليس وقتهم، وكذلك لم أتوقع عودتهم لحياتنا على الإطلاق، فلك أن تتخيل صدمتي عندما عادوا بهذه السرعة!
- وماذا ستفعل؟

رد زين بحيرة بالغة:

- لا أعرف، إنصحني.
- لا تقلق، إن أردت، قم بإعطائي أسماء الرجال الذين تتحدث عنهم وسأدع رجالي يتصرفون معهم.
- لا أعرف أسماؤهم، لأنه لو كنت أعرف لكنت ذهبت إلى الشرطة وبلغت عنهم، فهؤلاء الأغبياء الثلاثة بالتحديد هم من كنت أفكر فيهم عندما فعلت ما فعلته بزياد، وكان يفترض أن ألصق التهمة بهم، ولكنهم إختفوا فجأة، والآن عادوا ليطالبوا بالمال.

أتاه صوت فارس وهو يقول مُنبهاً:

- كما قلت لك، أمثالنا لا يستعينون بالشرطة!
- أعرف، ولم أكن لأفعل هذا، ولكنه مجرد خيار من بين الخيارات المطروحة أمامي والتي يجب أن أفكر فيها، خاصة أنني لا أعرف أسمائهم ولا أعرف أي شيء عنهم.

رد فارس مُطمئناً:

- سأعرف أسماؤهم بنفسي، وسأتصرف معـ ....

قاطعه زين بسرعة قبل أن يكمل:

- كلا، لا تفعل، هذه مشكلتي، ولا أحد غيري سيحلها، أنا من بدأت هذا الأمر وأنا الذي سأقوم بإنهائه بنفسي.

يأتي صوت فارس حاملاً نبرة إعجاب واضحة:

- إجابة ممتازة، هذا هو ذراعي اليمنى، يحل مشاكله بنفسه دون حاجة لأحد، لقد أعجبتني بالفعل يا فتى، لو كنت قبلت بالعرض الذي قدمته لك لتغيرت نظرتي لك، ولكنك دائماً عند حسن ظني.

أومأ زين برأسه في وعيد وهو يقول:

- سأجد حلاً، حتى لو أضطررت لقتلهم جميعاً!

- والعرض الذي قدمته لا زال سارياً، وأنا أعنيه من كل قلبي، أنا ورجالي جاهزون لحمايتك أنت وأمك إن تعرضتم لخطر، ومستعدون لمساعدتك في حال إحتجت لمساعدة.

- لا تقلق، عزرائيل لن يخاف من أمثال هؤلاء.

- أعرف، ولكنني لابد أن أذكرك بأن لا تنسى إرتداء السترة المضادة للرصاص، ويمكنني إرسال بعض رجالي لمنزلك كي يتدخلوا إن أفلتت الأمور من بين يديك.

يبتسم زين لذكر السترة إياها، ويرد:

- بالنسبة للسترة، فأنت تعرف شعوري تجاهها، وثانياً، لا تخف فلن تُفلت الأمور من يدي، وإن حدث، فستكون النهاية مقتلهم جميعاً، فهذه هي نهاية كل من أفقد سيطرتي في وجهه.

- يا لثقتك التي لا تنتهي، أنت تستحق أنت تكون ذراعي اليمنى بالفعل، وتثبت لي كل يوم أنني لم أخطئ في إختيارك.

- شكراً جزيلاً
- إنتبه لنفسك يا فتى، فأنا لا أريد أن أخسر شخصاً مثلك.
- سأفعل، لا تقلق

يُغلق الخط من الجانب الآخر، ويضع زين سماعة الهاتف مكانها، يخرج من الكابينة راكضاً نحو السيارة، يركبها ويقوم بتشغيلها، يجلس فيها منتظراً ارتفاع حرارة المُحرك التي إنخفضت بحدة كطائر أُصيب برصاصة في السماء فسقط صريعاً.

أخذ يفرك يديه ببعضها ليدفئ نفسه، وعندها ينتبه لشيء يلمع في المقعد الخلفي من خلال مرآة السيارة، إستدار لينظر إليه جيداً، فكان أن وجد الحل لمشكلته هذه نُصب عينيه.

لمعت عيناه والأفكار تتسارع في رأسه، ستكون ليلة الغد مَجيدة، وسيحتفل فيها بقوته في وجه ثلاثة كلاب بشرية!

**********

في اليوم التالي ..

الساعة تشير للتاسعة مساءاً، أم زين جالسة على الأريكة وقد بدا عليها التوتر الشديد، وفي عقلها تتساءل عن مكان زين في هذا الوقت، ولماذا لم يعد حتى الآن، تسأل نفسها عن مكانه، يستحيل أنه قد هرب، فهي تعرف أن ابنها الوحيد لن يتركها وحيدة بين يدي هؤلاء السفلة.

من أين أتته هذه الثقة؟ كيف كان متأكداً من أنه سيستطيع التغلب عليهم، وحل المشكلة دون أن يدفع المال الذي يريدونه لهم؟!

تقف وتمشي جيئة وذهاباً في الصالة في تحفز، وهي تنظر للساعة بين الحينة والأخرى وتوترها يزداد ببطء، ثم تسمع صوت طرقات على باب البيت، فتحسبه زين، تسرع وتفتح الباب لتتفاجأ بالرجال الثلاثة أمامها.

يبعدها أحد الرجال عن الطريق ويدخل الثلاثة للمنزل وهم ينظرون حولهم بعصبية، وتتراجع أم زين إلى الخلف بخوف، يسألها أحدهم بغلظة:

- أين المال؟

- لم أستطع تأمينه

إقترب منها "الغراب" بعصبية، وصاح بها:

- ألم أخبرك أنني سأعود غداً لآخذ أموالي؟

نظرت أم زين للساعة بتوتر دون أن ترد، فأمسكها الرجل من يدها بقوة وجذبها نحوه بعنف، ثم صرخ بها بكل غضبه:

- أريد أموالي الآن، وإلا فأنت لا تعرفين ما قد نفعله بكِ

في تلك اللحظة، إنطلق صوت إطلاق شيء ما، كصوت فتح زجاجة مكتوم، ثم إخترق سهم صغير كتف "الغراب"، فتركها ليمسك بكتفه بألم بالغ، رفع الرجال رؤوسهم نحو مصدر السهم ليجدوا زين واقفاً على أعلى الدرج ممسكاً ببندقية صيد،

ينظر لأمه نظرة ذات مغزى فتسرع خارجة من الغرفة، ولكنها تقف خلف الباب لتراقب ما سيحدث وهي خائفة على إبنها الوحيد مع هؤلاء المجرمين.

هبط زين عدة درجات وهو يقول بحزم وعصبية:

- ألم تعلمك أمك أن الرجل لا يفترض به إيذاء إمرأة أياً كان السبب، أم أنك مُصنف مع النساء في بطاقة هويتك يا صديقي؟

يفتح "الغراب" فمه ليقول شيئاً، ولكنه يمسك بذراعه فجأة وقد بدا عليه الإنزعاج الشديد مما أجبره على السكوت، يصيح "الغراب" بدهشة:

- ما الذي فعلته بي؟ لا أستطيع الإحساس بذراعي!

نزل زين الأدراج بهدوء، مصوباً بندقيته نحوهم مباشرة، مجيباً:

- هذه بندقية صيد، إعتاد زياد على صيد الكلاب بها، وما أصابك مجرد إبرة مخدر، ويمكنها تخدير كلب ضخم في ثواني.

يسقط "الغراب" على الأرض وقد سرى فيه مفعول المخدر مع نهاية كلام زين، فينهار فاقداً للوعي كالقتيل وسط أنظار رفاقه المرتعبة، يبتسم زين وهو يقول بسخرية:

- فعلاً، مفعول هذه الإبرة قوي جداً على الكلاب!

تفقد الرجلان "الغراب" على الفور ليتأكدا أنه لا يزال حياً، ثم نهضا وهما يتأهبان للهجوم على زين لولا أن الأخير حرك بندقيته نحوهم مخيفاً إياهما بسهم آخر قد ينطلق في أي لحظة، فتراجعا بتوجس، يحذرهما زين:

- الشرطة ستأتي في أي لحظة، لذا أهربا بسرعة!

رد أحدهما في شك:

- صدقتك!

هز زين رأسه مبتلعاً التكذيب في نبرة الرجل، وقال:

- لا تصدق، ولكن هناك معلومة صغيرة يجب أن تعرفوها، وهو أن زياد يا أعزائي لم يمت ميتة طبيعية!

نظر الرجلان لبعضهما بإستغراب، ثم سأله الثاني:

- وكيف مات؟

يجيبهما بتلقائية:

- لقد قتل!

يصدمان للمعلومة، يسألانه وكأنهما لا يصدقان:

- قُتل؟

أومأ زين برأسه وهو يقول:

- أجل، وأنتم المتهمون الرئيسيون في هذه الجريمة، لأنكم الوحيدون الذين لديهم الدافع الكافي لقتله، والذي هو المبلغ الكبير من المال الذي يدين به لكم.

- وما معنى هذا الكلام؟

- يعني أن الشرطة ستأتي في أي لحظة لتقبض عليكم بتهمة قتل زياد، لذا خذوا نصيحتي واهربوا من المكان بأقصى سرعة.

صاح أحدهما بحزم:

- لا يهمنا أي من هذا الكلام، لن نخرج من هنا دون أموالنا، حتى وإن اضطررنا لحرق هذا المنزل بأكمله على رأسيكما!

إبتسم زين وهو يقول:

- كلام كبير من كلبين حقيرين.

يبتلع الرجلان الإهانة خوفاً من البندقية التي يوجهها زين نحوهما، ينظر زين للبندقية بلا مبالاة، ثم يتابع:

- في هذه الحالة، لا أعتقد أن بندقية الصيد ستنفع معكم.

رمى زين البندقية على الأرض، وأخرج مسدسه من خلف ظهره، وقام بتلقيمه بصوت مسموع كعادته كي يقوم بإخافة ضحاياه، ووجّهه نحوهما..

يبدو عدم التصديق على الرجلين، فيضحكان بسخرية وهما ينظران للمسدس، ولكنهما لا يجرؤان على الإقتراب من زين رغم هذا..

- أبعد هذه اللعبة من يدك يا فتى، حتى لا تؤذي نفسك بالخطأ.

قالها أحد الرجلين محاولاً التشجع، ولكن زين إبتسم وهو يقول:

- أولاً، هذه ليست لعبة...

فتح زين مخزن الرصاص في المسدس ليريهم الرصاصات الحقيقة التي في داخله، ثم أعاده لمكانه مجدداً، وهو يلوح بالمسدس أمام أعينهم متابعاً:

- هذا مسدس حقيقي كما رأيتم.

أردف بعدها وعيناه تحملان شراً مستطيراً:

- ثانياً، الوحيدون اللذين يمكن أن يتأذوا هنا هم أنتم، لهذا أنصحكم أن تخرجوا من المنزل أحياء، عوضاً عن الخروج أمواتاً على حمالة.

رد عليه أحدهم بثقة مصطنعة:

- وإن كان مسدساً حقيقاً، أتظن أننا سنخاف منك؟ سأحلق شاربي إن كنت قد أستعملته من قبل وإن كنت تعرف كيف يعمل حتى!

رد زين وفي عينيه نظرة مخيفة فعلاً، هزت ثقة الرجل بقوة:

- أنتم المتهمون بقتل زياد، ولكنكم تعرفون أنكم لم تقتلوه فعلاً، لذا ألم تسألوا أنفسكم من الذي قتل زياد فعلاً؟ وبهذا المسدس!

نظرا لبعضهما وقد دارت في رأسيهما الفكرة ذاتها على ما يبدو، فيفهم زين أنهم قد فهموا قصده، يبتسم وهو يتابع:

- بالضبط!

يسأله أحدهما بتردد:

- أنت القاتل؟

- أجل، ولا مانع لدي في زيادة ثلاثة أرواح إضافية إلى قائمة ضحاياي، لهذا أنصحكم أن تخرجوا من هذا المنزل وتنسوا أنكم قد عرفتموني أو عرفتم زياد في يوم من الأيام، خذوا نصيحتي فأنا أقولها لمصلحتكم.

إستجمع أحد الرجلين شجاعته ليسأله:

- وماذا عن المال؟

- لن تمسوا ورقة نقدية منها، وفي رأيي فهذه صفقة عادلة للغاية، ستربحون أرواحكم، وستخسرون عشرين ألفاً فقط!

أخفض الرجلان رأسيهما ولكن زين لم ينته بعد، فتابع:

- وإن عرف أحد بأنني من قتل زياد، أو عدتم وذكرتم أمر المال مرة أخرى، فستكون هناك زيارة خاصة مني لكل واحد منكم، وسيكون مصيركم كمصير زياد، وهو مصير بشع إن أردتم الصراحة.

نظر الرجلان لبعضهما بخوف، ثم إستدارا لزين ليجدا حاله قد تبدل، والنظرة في عينيه قد تغيرت تماماً، كانت نظرة مرعبة بحق، كانت يده الحاملة للمسدس ترتجف بعنف، وعيناه تحويان نظرة متعطشة للدماء، وبداخله شهوة من نوع خاص يحاول كبت جماحها بصعوبة بالغة.

أمامه أرواح رخيصة، أرخص من التراب، والعذر جاهز ولا يحتاج لتفكير، سيقتلهم ويقول أنهم حاولوا قتله بعدما ظنوا أنه قد يقول شيئاً ما في المحكمة، فيشهد ضدهم، وسيضيف ثلاثة أرواح إلى قائمة ضحاياه تحت مسمى الدفاع عن النفس.

إرتجفت يده بقوة، وشعر وكأن المسدس يستحثه كي يقتلهم، أخذ يضغط عليه مستشعراً كَم الأرواح التي أزهقت بهذا المسدس تحديداً، فمالكه السابق لم يكن يستعمله لمجرد الدفاع عن نفسه بالطبع.

العرق يتجمع على جبهته رغم برودة الجو، عزرائيل يتنحنح، والشيطان يقف خلفه ويهمس في أذنيه بصوت أقرب للفحيح:

- إفعلها يا بني، إقبض هذه الأرواح الرخيصة، وأرِح المدينة من شرورهم، فلتمارس حقك الشرعي بإعتبارك عزرائيل هذه المدينة!

كان إبليس بذاته واقفاً خلفه، لم يثق بعزرائيل، فجاء بنفسه ليهمس لتلميذه النجيب ورفض إرسال أي من أبنائه ليقوم بفعل الوسوسة، لقد جاء ليرغمه، ويقنعه بالأمر حتى يفعله.

أغمض عينيه محاولاً مقاومة الرغبة العنيفة بالقتل، ورأى نفسه في الظلام الدامس، في جانب مظلم للغاية من عقله، وأمامه رجل متشح بالسواد، يخرج من رأسه قرنان عظيمان، وهناك ذيل أحمر طويل مُشعِر يتسلل من أسفل العباءة السوداء.

إستدار الرجل نحوه، كان وجهه أحمر كالدم، وعيناه صفراوان، إبتسم له بفم يحوي أنياباً كمصاصي الدماء، وأسنانٍ تقطر دماً.

كان يقف وجهاً لوجه مع الشيطان، ينظر في عيني لوسيفر الملعون، ويستشعر هالته السوداء التي أحاطت بهما في عقله، شعر بالظلمة، والغضب، أحس وكأن دمه يتحول للون الأسود مع الضيف الذي دخل عقله، والذي قرر عدم الخروج حتى يقنعه بقتل هؤلاء الرجال الثلاثة.

فتح عينيه بصعوبة، ونظر أمامه ليكتشف أن الرجال قد هربوا بالفعل، ولكن "الغراب" ما زال ملقى على الأرض، ويبدو أنهم قد نسوه من شدة رعبهم، ثم يظهر الرجلان عند باب المنزل فجأة، ويدخلان بأقدام مرتجفة، مقتربين من "الغراب"،

وأعينهم مصوبة على زين مباشرة، ينحنيان ليحملا "الغراب" بصعوبة نظراً لوزنه الثقيل، ويجرانه نحو الباب دون أن تسمح لهما قواهما بحمله.

تهدأ أنفاس زين ببطء، ويمسح العرق المتجمع على وجهه وهو يزفر بإرتياح، ثم يفك تلقيم المسدس، وينظر حوله ليجد أمه واقفة عند باب إحدى الغرف وقد إعتلى وجهها نظرة حزن وأسف، وعلى خديها تسيل دموعها الحارة بغزارة شديدة، كانت مصدومة، مُحطمة بعد الكلام الذي سمعته وهو يخرج من بين شفتي زين للتو، لقد إعترف بلسانه بقتل زياد.

نظر لها زين دون أن تحمل عيناه أي نوع من الندم، لم يتمكن من التظاهر في وجه الإنسانة الوحيدة التي تعرفه، أو هكذا تَحسب، على حقيقته، كانت عيناها تحملان حسرة بالغة، هذه الحسرة نابعة من الحزن الذي تسبب به في قلبها، ساد الصمت وقد بدا أنهما يتبادلان حواراً طويلاً بلا كلمات، يتبادلان العتاب بالنظرات، تسأله بتردد وهي تعرف الإجابة:

- هل قتلته حقاً؟

أومأ زين برأسه بالإيجاب، فتسأله وقد احمرت عيناها من شدة البكاء:

- لماذا؟

إستجمع زين شجاعته وهو يقول:

- تعرفين السبب، لقد فعلت ما فعلته من أجلك، لم أتحمل أن أتركك تعيشين مع شخص بهذه المواصفات، أنت تستحقين شخصاً أفضل، شخصاً يحبك بحق، ولا يَمَسُك إلا بِحُب، ولا يطاوعه قلبه على إيذاءك.

رفع زين قميصه وثبت المسدس في بنطاله من الخلف بعناية، وإقترب منها ليحتضنها، ولكنها إبتعدت عنه وهي تقول:

- إبتعد عني!

رفعت رأسها لزين وهي تسأله مجدداً:

- لم فعلت هذا بنفسك؟ لا أهتم لزياد، وسأكذب إن قلت أنني لم أرتح عندما قتل، ولا أنكر أن فكرة قتلك له قد راودت تفكيري، ولكنني كنت أنفيها على الفور، كنت أقول دائماً أن زين الصغير الجميل لن يحمل في قلبه الكراهية الكافية ليقتله، ولكنك فعلت، لا أصدق أنك القاتل، لا أصدق!

أخفض زين رأسه وقد بدأت الدموع تتجمع في عينيه بسرعة دون أن ينتبه لها، وهمس دون أن ينظر لها:

- تذكري شيئاً واحداً، وهو أنني فعلتها لأجلك، ربما كنت أكرهه، ولكنني لم أقتله لأنني أكرهه وحسب، لقد قتلته لأنني أحبك!

يعبث زين بشعره في توتر وهو يتابع:

- لم أتحمل تركك معه، لم أستطع تركك تعيشين حياة من الإهانة والضرب مع رجل كهذا.

أطرقت أم زين دون أن تتمكن من الرد، وأدرك زين أنه يجب أن يتركها لوحدها لتستوعب الصدمة على مهل، تأكد من وضع المسدس خلف ظهره ليخفيه عن الأعين جيداً، ثم انحنى ليأخذ البندقية وخرج من المنزل بأكمله.

وبقيت هي مكانها، مصدومة مما اكتشفته وقد بدا أنها تحاول ألا تصدق ما سمعته، ولكنه إعترف لها بنفسه، بل وحاول تبرير فعلته تلك.

إستندت للجدار وكأن قواها قد خارت فجأة ولم تعد قدماها قادرتان على حملها، فسقطت على الأرض منهارة وهي تبكي بقوة أكبر، أخذت تهمس لنفسها بحرقة بالغة:

- لماذا فعلت هذا بنفسك؟!

*********

مقر المنتقمين ..

كان زين جالساً على الكرسي المقابل لفارس الذي بدا سعيداً للغاية، يضحك من كل قلبه مع إنتهاء زين من سرد ما حصل له الليلة بالتفصيل، ثم صفق له مقهقهاً بعد إنتهائه.

- أحسنت، لقد أثبتت نفسك لي للتو، أنت أحد رجالي منذ اليوم، وسأعلمك كل ما أعرفه كما وعدتك، لأنك تستحق، وستصبح مثلي في يوم من الأيام، وربما تصبح أفضل حتى!

- وأنا جاهز.

أومئ فارس برأسه، ثم يضحك مجدداً بقوة ويسأل زين وسط ضحكاته:

- أعِدّ عليَّ ما قلته لهم؟

إبتسم زين وهو يقول:

- مفعولها قوي للغاية على الكلاب.

ضحك فارس بشدة وهو يكرر:

- مفعولها قوي على الكلاب، أيها اللعين.

ضحك فارس بشدة، وزين يراقبه بفخر من ردة فعله، ثم هدأ فارس متابعاً:

- ستصبح ذراعي اليمنى، ستكون عزرائيل هذه المدينة، هذا وعد مني لك، وأنا رجل لا أعطي وعداً لا يمكنني الوفاء به.

**********

# الفصل السابع عشر

## شياطين وملائكة!

وقف أمام المرآة مرتدياً بذلته الرسمية الفخمة التي يصل سعرها لأضعاف رواتب موظفي شركة كاملة، سرح شعره جيداً وبطريقة معينة كي يخفي القرون الملفوفة الصغيرة التي تخرج من مقدمة رأسه، ثم عدل ربطة العنق بعناية بالغة، إبتسم بشدة وهو ينظر للمرآة ليرى شكله وهو يبتسم، فبرزت أنيابه للأمام وظهرت أسنانه البيضاء الناصعة، ثم أضاف اللمسة الأخيرة بنفحة عطر يُقاس سعر الرشة الواحدة منه بحزمة منتفخة من الدولارات وأعاد زجاجة العطر لمكانها بتأنٍ، تأمل عينيه في المرآة، كانتا غريبتين فعلاً، لإحداهما لون أخضر، وللأخرى لون أزرق، تلمعان ببريق مخيف وتعكسان محتوى عقلياً مرعباً.

تفحص نفسه من أعلى لأسفل وفي عينيه إعجاب شديد بما يرى، وألقى نظرة على ساعته الذهبية المرصعة بالألماس فإكتشف أنه تأخر على موعده المهم، تلاشت الإبتسامة عن شفتيه، وهمس لنفسه:

- حان الوقت، لا أحد آمن مني.

في عينيه نظرة غريبة، نظرة متعطشة للدم، تتوق لتلك اللحظة التي سيتلاقى فيها نصل سكينه مع رقبة ضحيته التالية، ولكنه سينتظر مُرغماً، كي سيستمتع بالأمر حتى النهاية.

دار حول نفسه نصف دورة بحركة إستعراضية حتى أصبح يعطي ظهره للمرآة، وخطى بخطوات واثقة مبتعداً عنها نحو موعد لا يحتمل التأجيل، ولكنه لم يعرف أنه قد نسي، وسط كل هذه العجالة، شيئاً مهماً قد يفضح شخصيته بالتأكيد، وسيتسبب في

جعله محط الأنظار في الشارع، لقد نسي إخفاء ذيله الأحمر الطويل، وها هو ذا يتدلى من أسفل ظهره فيما يبتعد أكثر بخيلاء وكبرياء شديدين!

لم يكن من قابلناه للتو سوى إبليس الذي قرر التجسد بجسد زين لتنفيذ مهمة لم ينجح أولاده جميعاً في تنفيذها، وعلى الجدار كانت هناك صورة لرجل مألوف، وعليها علامة (X) كبيرة مرسومة بأحمر شفاه ذي لون أحمر داكن تعني بوضوح أن هذا الشخص سيكون جثة هامدة مع نهاية هذه الليلة، وعلى يد آخر شخص يمكن أن يتوقعه!

فتح زين عينيه ..

فتحهما فجأة، وإعتدل في جلسته بحدة ليصرخ ملئ حنجرته، صرخ خوفاً مما رأى، وصرخ توقاً لتلك اللحظة!.

دخلت أمه للغرفة بعدما أيقظتها صرخة زين المرعبة، أقبلت عليه بلهفة وعيناها تُطلان بالقلق، جلست بجواره على السرير، وسألته وهي تمسح على رأسه محاولة طمأنته:

- ما الأمر يا عزيزي؟ تبدو وكأنك رأيت الشيطان في منامك!

قالتها ببساطة، ولم تعرف كم كانت محقة فيما قالت، فقد كانت هذه زيارة خاصة من "الرجيم" لزين في أحلامه، ليخبره أنه قد إختاره ليُتم ما بدأه، ويكون ما أراد أن يكون طوال حياته.

لم يرد زين، إستلقى مجدداً، وأغمض عينيه، وهو يعرف أن من كان يراه في منامه هو الشيطان بعينه، وهذا يعني أنه سيتسلم مقاليد المنصب الذي أراده، وسيكون عزرائيل الذي تحتاجه هذه المدينة لتتطهر من ذنوبها، والوسيلة الوحيدة لهذا التطهير هي الدم، ولا شيء غيره!.

**********

مر أكثر من شهرين على الجريمة الأولى ...
تعلم فيها زين الكثير، لينحت شخصيته بشكل مختلف، تمكن يفي هذه المدة القصيرة تعلم إستخدام المسدس بحرفية بالغة، وكان أفضل تلميذ يمكن أن يتمناه أي معلم حسب ما قال فارس.

أمسك زين بدفتر مذكراته وكتب:
"إن كان الأمس قادرا على النطق، ماذا كان سيقول؟ هل كان سيتفهم ظروفي، ويعذرني على القرارات الخاطئة العديدة التي اتخذتها، أم أنه سيلومني بعدما أخبره الغد عن حالي الآن؟ بعض الأمنيات حينها كانت تشفي أوجاع قلبي، ولكن الحال تغير ولم تعد الأمنيات تفيدني، لقد راقبت أمنياتي وهي تمحي من الوجود لتترك أثراً غائراً في قلبي، لم تتحقق ولن تتحقق أبداً، ولذا أخلق أهدافاً جديدة، ما تحطم من الأمنيات كان دافعاً لأن يصبح جلدي أقسى كجلود التماسيح، وشظايا الأحلام التي لم أنجح في تحويلها إلى واقع رسمت خطاً طويلاً على طول ظهري لتجعل شكلي أقرب للتمساح أكثر، وهكذا أعيش، أمشي حاملا تلك القطع الحادة المغروزة في ظهري لتثقل كاهلي أكثر، وكأنني أحتاج لوزن زائد يمنعني من مواصلة المسير!

إن كان الأمس قادرا على الكلام، لاستجدى الحاضر كي يخفف من وطأة عذابي، ولطلب من المستقبل نهاية قريبة لهذا العذاب، لأن كل يوم يمر يجعل من شخصيتي شيئاً آخر، يحولني لشخص آخر، أكثر ترويعا من كل المخلوقات المخيفة التي رأيتها في أفلام الرعب، هذا الشخص بدأ مسيرة الظهور ببطء في ملامحي، فذبلت عيناي وانطفئ بهما وميض الحياة، ورسم هالات سوداء تحت عيني، ثم نثر بضع شعيرات بيضاء في لحيتي التي تبدو سوداء في الظل، هذه الشعيرات لا تظهر في الشمس، لأنه لا يجرؤ على الظهور في النهار، بل يفضل زيارتي في إنعكاس صورتي في المرآة، في أحلامي، وفي لحظات خلوتي الروحية بنفسي، يتجسد أمامي ويتأملي بتشفٍ

واضح، لقد تمكن ببساطة من تحويل شاب دائم الإبتسام، يضحك من كل قلبه على نكتة سخيفة حتى، إلى آخر انمحت الضحكة من قلبه، رغم أنها لا زالت ترتسم على وجهه بنفس الشكل، ولكنها هذه المرة ليست نابعة من القلب. إنها نابعة من كراهية الشفقة الحقيرة التي تظهر في عيون الناس عندما يرونني مرهقاً بهذا الشكل.

قلبي مات، أو هكذا حَسِبته، ولكن هذه الفكرة كانت تختفي من رأسي تماماً عندما أتواجد مع شخص واحد ..

ملاك!

لا أعرف ما المميز فيها ولكني أعرف أن هناك شيئاً يجذبني نحوها وكأنها أقوى مغناطيس للقلوب في الكون!

أتأرجح على شفا الهوى، ترتجف حبال الأرجوحة مع نسمات اللقاء، وتزداد غُلظة مع كل نسمة، تضعف مع الغياب حتى أشعر بأنني سأسقط في هاوية الضياع، حتى أرتطم بصخور الشوق القاسية.

هناك أصوات في رأسي، تهمس لي كي أبوح بما في قلبي، النفس الأمارة بالإعتراف تهرني كي أخبرها، ولكن من أين سآتي بالطاقة الكافية ليتحرك لساني ناطقاً حروفها الأربعة؟

تلك الحروف التي تزن أطناناً من المشاعر المكبوتة منذ زمن، عقلي ينزف من الهموم والضغط النفسي الذي أمارسه على نفسي مجبراً كي أمنع نفسي من التفكير الزائد، وفي الوقت الذي يتعذب فيه عقلي وجسدي في النار، ستجد قلبي في حالة مُتناقضة معهم تماماً، إنه يرقص فرحاً بوجودها بجانبي.

هذا هو نعيم القلب في بؤس أهله!

لكني وبكل حب، أسقي بذرة الهوى التي لا تزال مختبئة في تربة الإهتمام، حتى يحين الموعد المناسب لتخرج وتظهر للعلن، حينها ستخالف هذه النبتة الجميلة كل ما يعرفه علماء النبات عن طبيعة النباتات، فهذه النبتة لن تتبع النور، بل ستتبع الحبيب، ستسير نحوه حتى تصل إليه، ثم ستلتف حوله حتى تغطيه تماماً، وكأنها تحميه من

العالم الخارجي، المشكلة الوحيدة هي أنها قد تخنقه خوفاً عليه، كالقطة التي تأكل أطفالها كي تحميها من الوحوش التي في هذه الدنيا!

أنا مجرد شاب سقط في وسط المحيط من سفينته التي كان يحسب أنها تتحمل الإبحار في طوفان نوح، ليكتشف بعد أول موجة عشق أنها كانت أوهن من أن تتحمل نظرة واحدة من عينيها، وسقطتُ في بحر الحب، ولا زلتُ أطوف قريباً من شاطئ الاعتراف دون أن أملك القوة للسباحة نحوه، وفي نفس الوقت كنت أفقد القدرة على التحمل أكثر من هذا، إني أغرق، ولا أملك القدرة على التنفس تحت الماء!".

وضع زين القلم فوق دفتر المذكرات، لقد كان يكتب عن ملاك دون أن يشعر، كان من الصعب عليه إبعاد صورتها عن خياله، وكأنها ملتصقة بباطن جفنيه، فيراها في كل مرة يغمض فيها عينيه، ما الذي فعلته به تلك الفتاة؟
رغم كل ما حدث، وكل ما فعله في هذين الشهرين، وكل المُجرمين الذي اختلط بهم، إلا أنه كان يشعر بقلبه الذي كان يحسبه ميتاً وهو ينبض فيما هو بحضرة تلك الملاك، كانت تبتسم له فتختفي كل هموم الدنيا من الوجود، ولم يكن يصدق كيف، كيف يمكن لها تغييره بهذا الشكل؟ كيف يمكن له العيش بوجهين؟ وجه يقابل به الناس جميعاً، ووجه يقابل به ملاكه؟!

أخذت العلاقة بينهما تتطور ببطء، وكلاهما يشعر بمشاعر الآخر، ولكنه يرفضها، وربما ينتظر من الآخر المبادرة بالإعتراف أولاً، وكلاهما من النوع المكابر الذي لم يكن ليعترف بمشاعره بهذه السهولة، لذا كانت العلاقة التي بينهما غريبة بالفعل، كل منهما يجذب الحبل الذي يمسك الآخر بطرفه الثاني، وكأنه يريد أن يأخذه في حضنه، ثم يخفف من قوة جذبه للحبل تاركاً لغيره فرصة جذبه قليلاً ..

ملاك وشيطان ..

كان هذا أقرب تشبيه يمكنه وصف ما كان يجري بينهما..

كانت الهالة البيضاء التي تحيط بها تغمره في وجودها، فيشعر بأن الدنيا لا زالت بخير، وأن هناك سبباً لكي يواصل الحياة، ولكن ما أن يخرج من المقهى حيث كانا يتلاقيان غالباً، حتى كان يعود لشخصيته القديمة، الكارهة لكل شيء، والحاقدة على كل المخلوقات، بقلب أكبر من المدينة، طيب ورقيق، ومتسامح، وإبتسامة تقتل همومه بمجرد مباعدة شفتيها عن بعضهما، وعينين خضراوين كان مفعولهما كالرصاص عندما تلمعان تحت الشمس، فتزيد تلك اللمعة مظهرها ملائكية أكثر، وتزيدها جمالاً وفتنة، هذا صحيح، كانت فتنة، وقد فتنته دون أن تحاول حتى.

عندما رآها من بعيد، لم يعرف ما الذي حدث حينها حتى الآن، ولكن شيئاً في داخله قد تغير، ولم يعد كما كان قط، وأصبح مخلوقاً آخر لا يظهر شخصه لأحد إلا في وجودها ..

كان عزرائيل مع الجميع، وزين معها!

أما عنها، فقد إقتحمت كيانه كعاصفة هوجاء..

فتاة بقلب من ذهب، يجري في عروقها ماء الورد، رقيقة بحيث يمكن لكلمة أن تكسرها، وقوية كقطة برية لن تتوانى عن الدخول في عراك ..

كانت ملاك ..

إسم على مسمى بالفعل ..

ثبتت الملاك ياسمينة على مقدمة رأسها، بين خصلات شعرها الذهبي الناعم، فزادتها جمالاً وإغراءً وفتنة، على شفتيها إبتسامة خَجِلة، وقد بدت متفائلة لا تعرف ما يخبئه لها القدر من فواجع ستكسر روحها لأجزاء، بل ستحطم روحها النقية لشظايا، حبات العرق التي بدأت تتجمع على وجهها في هذا الجو الحار، طجعلتها تبدو وكأنها تلمع من أعلى لأسفل، وقد بدت كبياض الثلج، لو كانت "بياض الثلج" حقيقية،

وبإعتبارها خيالية فيمكن القول جزماً أن مؤلف القصة قد إستوحى فكرته متخيلاً وقفة ملاك وسط الفلاء، وخدودها شديدة البياض متوردة بالأحمر بسبب الخجل والحرارة المرتفعة ..
روح ملكة إغريقية، لا تطلب العون، وقلب أم حنون، وعقل ديكتاتوري كفرعون!

كانت عذراء، من رأسها لأخمص قدميها، عذراء الروح والجسد، لم تعرف روحها معنى للكراهية أو الحقد أو الكذب، تحب عائلتها وحارتها وجيرانها، لم تعرف الخيانة بعد، ولم تشعر بحرقة كشف الأقنعة، ولم تذق طعم تكشف المكائد والخدع ..
جسد أنثى بالغة، وعقل طفلة بريئة، وروح نقية ..
روح عذراء بحق ..
لم تعرف حينها أن الأيام كانت تخبئ لها ما لم تتوقعه!.

كانا يجلسان متقابلين، ويتحدثان في كل موضوع يخطر في بالهم، يفعلان هذا كل يوم تقريباً، كانوا يبحثون في الصحيفة عن أفكار عندما يسود الصمت، ليجدوا أحاديثاً جديدة، كانت الصحيفة تحوي خبراً عن مجزرة في قرية على حواف المدينة، وكيف أن القتلة حفروا مقابر جماعية للضحايا ورموهم فوق بعضهم وكأنهم لا يستحقون أن يُهال التراب فوقهم حتى!
رمت ملاك بالجريدة على الطاولة وهي تصيح في إستياء:

- هذا غير معقول، ما هذا الإجرام الذي يحيط بنا؟
- أنت في "ديستوبيا" اللعينة، لابد أن تكوني محاطة بالإجرام، وإلا لكان الإسم على غير مسماه!
- أعرف، ولكن ما يحدث إغتصاب لحقوق الإنسان، وهتك لكل الشرائع الدنيوية، وكسر صريح لكل المحرمات الدينية، هذا فرض قسري لشريعة

الغاب، شريعة "البقاء للأقوى"، ولكن في حالتنا هذه لم تعد القوة كل شيء، فظهرت بقية الصفات الحيوانية المكبوتة في داخلنا، فأصبح الأصح "البقاء للأحقر، أو الأنذل، البقاء للأكثر قذارة!".

أومأ زين برأسه موافقاً وساد الصمت من جديد، صمت ناتج عن بحث كل منهما عن حديث جديد يفتحه ليستمر الحوار بينهما أطول فترة ممكنة، وكأنهما لا يريدان له أن ينتهي ..

"أنتَ صديقي الوحيد في هذه المدينة!"

قالتها ملاك بعد صمت طويل وهي تبتسم لزين، إبتسامة أنعشت وأيقظت قلبه الذي لم يكن يظن أنه قد يستفيق بعد هذا السبات، رباه، وكأنها تتحكم بأوتار قلبه!

تأمل شفتيها وعينيها وملامحها، وغاص فيها بكل روحه وكأنه يسبر أغوارها، وشعر وكأنه يغرق في النور!

لم تترك له ملاك فرصة الرد وهي تسأل بإهتمام:

- ما هو لونك المفضل؟

نظر إلى شفتيها المغطاتين بأحمر الشفاه، وخديها المتوردين بحمرة الخجل، وشعرها الأشقر الذي يبدو وكأنه ينبض تحت الشمس، وثم إلى عينيها الخضراوتين اللامعتين، وأجاب بثقة:

- الأخضر

إبتسمت وهي تسأله:

- أخضرٌ مثل لون الأشجار والمروج الخضراء؟

أجاب زين سريعاً، دون أن يعرف من أين أتته الجرأة ليتحدث بهذه الصراحة في وجهها:

- كلا، أخضر مثل لون عينيكِ، كل تدرج للون الأخضر في عينيكِ هو لوني المفضل، لم أكن أفضل لوناً معيناً بذاته عن بقية الألوان حتى رأيت هذا اللون المميز الذي تحملينه معكِ، وتُجملين به كل مكان تتواجدين فيه دون أن تنتبهي، ولكنني سأحتفظ بلوني المفضل لنفسي، وإن سألني أحد سؤالك، فسأقول: "بلى، أخضر كلون الأشجار والمروج الخضراء!"

قالها وهو يراقب الإبتسامة في شفتي الملاك خضراء العينين وهي تتسع ببطء حتى ظهرت أسنانها البيضاء من تحتها، والتجعيدات تتجمع في زاوية عينها لتُظهر صِدق إبتسامتها.

ردت بخجل شديد:

- لا أعرف بمَ أرد على هذا الكلام.

إبتسم ناظراً في عينيها، وفي رأسه فكرة جامحة تحثه على الإمساك بيدها ولكنه لم يكن ليفعل بأي حال من الأحوال، كان يمنع نفسه ...

كان يعرف أن لمسة يدها سترد إليه الروح التي فقدها منذ زمن، وستلملم أجزاء قلبه الميت والمحطم لأشلاء عديدة، وكان يعرف أنه في أشد الإحتياج لهذه اللمسة الحانية في هذا الوقت بالذات، ولكنه لم يجرؤ على لمس يدها قط، لم يكن يريدها أن تشعر بالدم الذي لم يجف بعد عن يده، لا يريد لمس يدها لأنه لم يكن يريد أن يجرح بشرتها الناعمة بخشونة يده.

كانت مختلفة عن جميع النساء، ورغم أنه لم يحب من قبل، إلا أنه كان مع الكثير من النساء من قبل، فوسامته كانت تمكنه من الحصول على ملكات جمال المدينة حتى، فكيف بفتاة بسيطة خجولة كهذه؟

رد زين بصدق:

- أتصدقين أنكِ الملاك الوحيد في مدينة تعج بالشياطين؟!

لمعت عيناها وهي تخفض رأسها في إستحياء، ثم مدت يدها نحوه ببطء حتى لامست يده، لترسل قشعريرة حارة عبر جسده، وكان للمستها أثر كتيار كهربائي أشعل أنوار قلبه!

ولكن زين لم يكن سعيداً، كان يشعر بالذنب، يشعر بنفسه وكأنه يكذب عليها في كل دقيقة يجلس فيها معه، وهي لم تكن تستحق كاذباً بكل تأكيد.

جمع أشياءه عن الطاولة سريعاً، وخرج من المقهى بأقصى ما يستطيع، لم يودعها كما إعتاد أن يفعل قبل أن يذهب، لأنه هذه المرة يحاول الإبتعاد عنها لأكبر مسافة ممكنة، كي لا يسحبها معه في دوامة عميقة من الدم والحقد، تلك الدوامة التي سحبته بإرادته منذ زمن ..

لم يكن يستحقها..

وكان يعرف!.

ولكنها كانت تملك رأياً مخالفاً، فقد أحبته بصدق، رغم أنها إستشعرت الطاقة السلبية المحيطة به، والهالة السوداء التي تنبعث من جسده، إلا أنها لم تهتم، كانت تريده بصدق، وبغض النظر عن كل عيوبه ومساوئه، كانت ترى خيراً في داخله لم يتمكن هو ذاته من رؤيته، وكانت تؤمن أنه لا يوجد شيء أسود تماماً، ولا وجود لشيء ناصع البياض، لذا كانت تعرف أن هذا الشاب ليس سيئاً تماماً كما سمعت عنه، وكانت تعتقد أن في داخله شيئاً ما طيباً، وهذا من أهم الأسباب التي كانت تدفعها للخروج معه في كل مرة، كان يخاف عليها، وكانت تستشعر هذا الخوف، كانت تشعر بالأمان معه، ذلك الأمان الذي إفتقدته في مدينة مرعبة تعيش فيها مرغمة، حيث يتهددها خطر الإغتصاب عند كل ركن، وقد تقتل على يد سكارى عند كل مفترق طرق دون سبب يذكر، ولهذا كانت تحبه ..

شعور غريب، مع شاب مختلف ..

قد يكون عقله إمتلأ بسواد المدينة، ولكنها متأكدة من أن في قلبه شيئاً من الرحمة التي فقدها سكان هذا المكان منذ دهور طويلة.

خرج زين بأقصى سرعته بعدما أدرك نقطة مهمة جداً، كان يعرف أنها ستكون نقطة ضعف قاتلة له في مدينة كهذه، لا وجود للحب في هذه المدينة، ليس حسب ظنه، وما كان يشعر به مع هذه الفتاة لم يكن حباً، بل كان عشقاً خالصاً، أبعد من عشق الجسد، كان عشق الروح، جذبته روحها البيضاء إلى عالم آخر لم يكن يعرف بوجوده، فإقتحمت دنياه عنوة لتغير شخصيته بعنف، وتجبره على تغيير شخصيته وطبائعه في وجودها، لتحطم كل الصفات التي زرعتها فيه هذه المدينة، وتضع مكانها خصالاً أخرى.

في الواقع، لم يُغير شيئاً، كان يتصرف على طبيعته، زين في حضرتها، وعزرائيل في حضرة الجميع.

لقد أفاق في هذا اليوم على حلم زاره فيه إبليس شخصياً، وختم يومه بزيارة من ملاك، يا لسخرية القدر، كيف يمكن أن يكون ما يحدث معه واقعياً أو منطقياً حتى؟

ولكن سؤالاً سيبقى يؤرقه للأبد ..

كيف فعلت به هذه الفتاة كل هذا؟

**********

# الفصل الثامن عشر

## قاتل بلا أجر

كان زين جالساً على سريره وقد صوب نظره إلى السقف، بعدما فشل في محاولات النوم ، فقد أصبح الأرق عادة منذ تلك الليلة، وأصبح لا ينام إلا بعد أن يبتلع عدة حبوب منومة، على الأرض بجواره كان كلبه "دون" نائماً، والغرفة يعمها الظلام إلا من ضوء صادر من مصباح صغير بجوار سريره.
لم ينم إلا ساعات قليلة في الشهور الثلاثة الماضية، والتي قضاها في التدريب مع فارس، وإن لم يكن مع فارس فهو مع ملاك بالتأكيد، لم يعد يدخل منزله إلا ساعة النوم، وكثيراً ما كان يقضي الليل خارجاً، ولكنه كان مجبراً على العودة للإعتناء بوالدته التي أخذت حالتها تتدهور بسرعة في فترة قصيرة كهذه، وكأنها شاخت فجأة بعد ما عرفت من معلومات أكثر من مرعبة عن إبنها الوحيد.

إستشعر شيئاً يتحرك في الغرفة، وأحس به الكلب "دون" قبله، حيث أفاق من نومه وتراجع لزاوية الغرفة متحفزاً وهو ينظر لشيء ما في الزاوية المقابلة منه، حيث كان هناك ما يشبه الطيف الأسود، لم يتوقع أن يرى درجة شديدة من اللون الأسود كهذه، كان الطيف يقف هناك، متخفياً في الظلام ولكن عينيه الحمراوين كالدم كانتا تلمعان في الظلام كمصباحين صغيرين.

إعتدل زين في جلسته بعنف وهو ينظر للشيء وهو يقترب منه لتظهر ملامحه بوضوح أكثر، لقد كان متلحفاً بعباءة سوداء تغطيه من رأسه إلى أخمص قدميه، ومن يده كان يتدلى منجل طويل لامع، ووجهه مختفي تماماً في العباءة ما عدا عينيه المشعتين بشكل مرعب ..

كان هذا هو الموت!

لابد أنه هو، وإلا كيف للموت أن يبدو؟!

لم يجرؤ زين على الحراك أو الكلام حتى، ثم سمع صوتاً عميقاً كأنه قادم من قعر بئر، ولكن هذا الصوت لم يكن يخرج من هذا الكائن المرعب الذي أمامه، بل كان يخرج من داخل رأسه، وكأن الصوت ينبعث من تلافيف مخ زين ذاتها، كان الصوت المرعب يقول:

- أنت هو، أنت هو!

إبتلع زين ريقه، وفي داخله إلتمعت عينا عزرائيل في حماس، والصوت يتابع كأنه صادر من أبواق في رأس زين:

- أنت هو، عزرائيل المنشود الذي كنت أبحث عنه!.

**********

"اليوم ستذهب في مهمتك الأولى لوحدك"
قالها فارس لزين بصيغة الأمر، فيما كان جالسين في سيارة فارس، أومأ زين برأسه وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة منذ زمن طويل.
لقد ذهب في العديد من المهمات مع فارس طوال هذه الفترة، راقبه وهو يقتل العشرات، وقتل بنفسه العديد منهم دون أن يهتز له جفن، ولكنه لم يذهب في مهمة لوحده من قبل، والآن حان الوقت ليبدأ مسيرته وحيداً دون أن يكون معه من يحمي ظهره.

قام بفظائع لا تعد ولا تحصى في هذه المدة القصيرة، تراكمت الذنوب والآثام فوق رأسه وهو لا يشعر، قتل وتعذيب وتهديد، في الواقع، كان عزرائيل يقوم بكل العمل القذر، أما عن زين فهو لم يقتل زين أحداً حتى الآن، عزرائيل هو من يضغط الزناد في كل مرة، وزين يراقب من خلف الكواليس في إنبهار وهو يعرف أنه لن يكون قادراً على مثل هذا الفعل مهما حاول وأياً كان السبب.

إبتسم زين وهو يرد في حماس:

- وأنا جاهز.
- أعلم، لقد دربتك جيداً.

أومأ زين برأسه في ثقة، ثم سأله بإهتمام:

- من؟ ومتى؟
- لا تخف، سأخبرك بكل شيء.

أخرج فارس ملفاً من حقيبته، وأعطاه لزين الذي أخذ يقرأ بيانات ضحيته التالية بإهتمام، أخرج فارس من جيبه رزمة من المال، وناولها لزين كذلك..

- إمسك!

تأمل زين رزمة المال بإستغراب، ثم سأله:

- ما هذه؟

- هذا ثمن ضحيتك الأولى!

سأله زين في شك:

- ومن أخبرك أنني أقتل من أجل المال؟

ضحك فارس وفي عينيه دهشة واضحة، ثم قال:

- الدم الذي على يديك لا يزال سائلاً، وتقول لي أنك غير مستعد للقتل، ماذا عن هذا الحديث الطويل عن عزرائيل والموت؟ أكان كله كذباً؟ أم أنك خائف من الذهاب في مهمة لوحدك؟

هز زين رأسه نفياً ثم رد بحزم:

- كلا، أنا مستعد لأن أقتل، وقتلت العديدين أمامك بالفعل، لم أقتل إلا من إقتنعت أنهم يستحقون الموت، ولكنني لن أقتل شخصاً بريئاً لمجرد أن هناك من يريده ميتاً، سأقتله إن أعطيتني سبباً كافياً لقتله، سبباً يجعله يستحق الموت، فيصبح في عيني روحاً رخيصة كزياد وخُلفائه، ولن أتردد حينها في ضغط الزناد عليه بكل تأكيد.

إتسعت إبتسامة فارس وهو يقول:

- يعجبني مبدأك، وقد توقعت أن تقول هذا، إقلب الصفحة.

قلب زين الصفحة ليجد في الخلف صورة لفتاة صغيرة، مقتولة في زقاق قذر، وجثتها تسبح بدمائها، وفهم زين على الفور معنى هذه الصورة.

سأله فارس مبتسماً:

- هل هذا سبب كافي لجعلك تقتله؟

لم يرد زين وهو يتأمل الصورة بتمعن، لم تضايقه فكرة موت هذه الطفلة بقدر ما ضايقته فكرة أن قاتلها حر طليق، ويعيش حياته الطبيعية دون خوف من الحساب القادم.

- بالمناسبة ...

إستدار زين لفارس الذي تابع بعدما لفت إنتباه زين:

- هذه إبنة زوجته!

لمعت عينا زين ببريق ذي معنى مرعب للغاية، فمد فارس رزمة المال لزين مرة أخرى وهو يقول:

- إعتبر هذا المبلغ كهدية شكر من المدينة لك على تخليصها من شخص كهذا!

رفع زين عينيه لينظر في عيني فارس، ثم هز رأسه بعنف رافضاً فكرة تقاضي المال مقابل تأدية واجبه، لأن هذا الفعل مخالف لكل مبادئه، يعتبر نفسه قاتلاً تطوعياً، غير مأجور، لا يتقاضى المال مقابل أتعابه.

أعاد فارس المال لجيبه وهو لا يصدق أن شاباً بهذا العمر قد يرفض مبلغاً بهذه الضخامة، فيما سأله زين:

- متى التنفيذ؟

- الليلة، هل أنت جاهز؟

- لم أكن جاهزاً هكذا في حياتي!.

توقفت السيارة أمام منزل زين الذي هبط منها بسرعة ومشى نحو منزله بخطوات مسرعة، وفارس يتأمله بإستغراب، أي فتى هذا؟

عندها أيقن من الأمر، سيكون له شأن كبير في المستقبل، وسيحكم العالم السفلي في هذه المدينة بقبضة من حديد مُشتعل، ليخضع كل مجرم فيها تحت قدميه متوسلاً وطالباً للرحمة، ولكنه كان متأكداً من أنه في تلك اللحظة، ورغم كل التوسلات والدموع التي سيسكبها المجرمون على حذائه، لن يجد زين، أو عزرائيل، في قلبه الرحمة الكافية ليتركهم أحياء، سيطهر المدينة عن بكرة أبيها، حتى وإن أحرقها كاملة وهو يفعل، ولكنه ما لم يكن يعرفه هو أن تلميذه سيتفوق عليه بمراحل!

**********

كانت الساعة تشير الى الواحدة بعد منتصف الليل، كان زين واقفاً أمام المرآه، وهو يرتدي معطفاً أسود واسعاً، وقفازات جلدية سوداء، تأمل نفسه جيداً في المرآة، ثم إستدار ليخرج من الغرفة، وعندها لمح السترة الواقية من الرصاص مرمية على الأرض، ألقى نظرة عليها مفكراً ثم نفى فكرة إرتدائه لها من الأساس، وخرج من الغرفة.

تسلل ببطء خارجاً من غرفته ليمر من أمام غرفة أمه، وضع أذنه على الباب ليتأكد من أنها نائمة، ثم تابع طريقه حتى خرج من المنزل، مد يده لجيب معطفه كي يتأكد من وجود المسدس للمرة الثالثة، فهذه المهمة لا تحتمل الأخطاء، وعلى أساسها سيتحدد مركزه في جماعة "المنتقمين"، ومنصبه عند فارس، لذا لم يكن ليدع مجالاً للخطأ، ركب السيارة وأدارها، وانطلق بها نحو هدفه لهذه الليلة.

كان منزلاً متهالكاً في المدينة القديمة، وهو الجانب الأقرب للعشوائيات من المدينة، حيث لا يجب عليك التجول بعد الساعة السادسة مساءاً لأسباب تتعلق بسلامتك، وها هو ذا يمشي بسيارته في شوارع الحي القذرة بعدما تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

فمن ذا الذي سيقف في وجه الموت وهو يؤدي عمله؟

وقف أمام المنزل مدخناً سيجارته في ملل، وعيناه على إحدى النوافذ، رمى عقب السيجارة واقترب من باب المنزل بهدوء، ووقف أمامه لثوان ثم أخرج من جيبه مفتاحاً وضعه في ثقب الباب ثم فتحه، لم يكن من الصعب عليه الحصول على مفتاح المنزل، زيارة صغيرة للخادمة وبضع كلمات، ووعد بزيارة أخرى تحمل مؤهلات ليلة حمراء، كانت هذه الأشياء أكثر من كافية لتعطيه نسختها من المفتاح!.

لم يحتج لتهديدها حتى، كان شاباً قادراً على حل كثير من مشاكله بإستخدام عينيه فقط، وإن كانت عيناه تعطيان وعوداً مسائية مُبشرة!

دخل المنزل وأشعل النور، كان يعرف أن ضحيته يعيش وحيداً الآن، خاصة بعد طلاقه من زوجته، وهو أمر غير مستغرب بعدما قتل إبنتها! وبحكم أنهم في المدينة القديمة فإن الشرطة ذاتها ستخاف من الدخول إلى الحي للتحقيق في جريمة القتل، ولم تملك الزوجة المال اللازم لرفع قضية عليه، والتحقيقات لا تسير على شيء، لا قدمَ ولا ساقَ في العمليات التي تقوم بها الدوائر الحكومية في هذه المدينة، ولم يكن القانون ليأخذ لها حقها من زوجها القاتل، ولكن عزرائيل سيفعل.

"من أنت؟"

كان يستعيد تفاصيل المهمة في رأسه عندما سمع هذا الصوت قادماً من الظلام، اللعنة، لقد نسي أنه لا يفترض به أن يَشرد في أفكاره وهو يقف في منزل الرجل الذي سيموت على يديه في خلال ساعة على الأكثر.

رأى رجلاً وهو يخرج من إحدى الغرف بعينين منتفختين، مرتدياً ملابس النوم ويقف أمامه حاملاً بندقية، لم يرد زين على السؤال السابق، فصاح الرجل به بعصبية أكبر:

- أجبني، من أنت وماذا تفعل في منزلي؟

لا يحب زين القول، ويفضل الفعل دائماً، لذا وبخطوة واحدة إستطاع الإقتراب من الرجل بشكل كافٍ لينزع البندقية منه بعنف، ثم يوجه له ضربة بها على مقدمة رأسه لتسقطه أرضاً.

إقترب زين من الضحية مبتسماً، وقال وهو ينظر له من أعلى:

- أنا أبشع كوابيسك!

إنحنى زين على الرجل وأمسكه من تلابيبه ليرفعه بحركة بسيطة، ليضربه بعدها بالحائط دون أن يدعه يفلت من بين أصابعه، إقترب منه أكثر ونظر في عينيه مباشرة ثم أردف:

- أنا عزرائيل!

رفع زين البندقية ووضعها على رقبة الرجل موجهاً فوهتها إلى الأعلى، ثم أطلق النار لينفجر رأس الرجل إلى أشلاء، وتلطخ دمائه وجه زين وملابسه دون أن تهتز له شعرة!.

أفلت جثة الرجل لتسقط أرضاً، ثم رمى بالبندقية بجواره، أخرج من جيبه ورقة لعب من نفس النوع الذي إستخدمه بعد قتله لزياد، وانحنى على الجثة ليمسك بكفها ويغمس إبهامها في دمائه التي ملأت الأرض، ثم ثبت إبهام الجثة الذي يسيل منه الدم الحار، وقربه ببطء من ورقة اللعب حتى لامسها، وعندما أبعدهما عن بعضهما كانت هناك بصمة واضحة على الورقة، بصمة بالدم ..

الدم لعنة، وقد وصمت هذه اللعنة في قلب زين للأبد، هذه البصمة لن تمحي من قلبه مهما فعل، لا تراجع عن هذا الفعل، لقد دخل إلى هذا العالم، ولن يخرج قبل أن يهدمه على رؤوس ساكنيه!

ضحيته هذه قتلت على يده بلا رحمة، لمجرد أنها كانت تستحق القتل، لذا أصبح دمها مهدوراً في نظر زين، ولم يتورع عن الأمر لهذا السبب، كان يلعب دور عزرائيل المدينة، ولكنه لم يكن يعلم أن الموت كان في زيارة خاصة لمنزله، وأنه قد ترك له مفاجأة هناك.

في طريق عودته كان يشعر بإنقباض في صدره، وكأنه يستشعر الهدوء السابق للمصائب في هذا المساء.

دخل زين إلى منزله وشعر ببرودة مألوفة، تلك البرودة التي تركتها جريمته الأولى سابقاً، والتي لم تختفي إلا بعد أيام وأيام من الجريمة، كانت برودة الموت.

تحفزت عضلاته للفكرة، فهذه الزيارة لن تكون زيارة عادية على الإطلاق، لا يدخل الموت منزلاً إلا ويخرج تاركاً خلفه جثة هامدة وقلوباً محطمة، فماذا ترك له الموت يا ترى؟

لم يكن توقع الضحية صعباً، ركض بأقصى سرعته لغرفة أمه، فتح بابها بسرعة ودخل ليجدها راقدة على سريرها، هامدة، وتنظر للسقف بعينين خاويتين، بعدما فقدت عيناها بريق الحياة، وتحجرت عضلاتها على هذا الشكل للأبد ..

كانت المفاجأة قاسية للغاية ..

وغير متوقعة على الإطلاق!

**********

# الفصل التاسع عشر

## بصمة الموت

وقف مكانه متجمداً!

لم يعرف ما يجب أن يفعله، فالمفاجأة لم تترك له العديد من الخيارات.

إقترب من السرير وأقدامه تحمله بصعوبة بالغة، قوته التي ساعدته طوال الشهور الماضية لم تعد قادرة على مساعدته، حتى عزرائيل تراجع رغم أنه كان المتحكم، تراجع منذ أن شَم رائحة الموت في المنزل، وأسرع زين ليتحكم بالجسد كي يركض نحو الغرفة، وعندما وصل للباب خارت قواه فسقط على الأرض ليزحف بقية المسافة حتى السرير، ومد يداً مرتجفة ليمسك بها يد أمه، كانت باردة، لم يعتدها هكذا، إعتاد الشعور بالدفء عندما كان يلمس يدها، ولكنها كانت باردة كالثلج.

تلك اليد التي حملته، وأطعمته، واعتنت به في كل شؤون حياته من صغيرة وكبيرة عندما كان طفلاً، تلك اليد التي كانت منبع العاطفة والدفء في دنياه، والتي فعل المستحيل من أجلها، أصبحت الآن باردة بشكل يكاد ينفي أنها قد كانت دافئة قط، مسح على شعرها بحنان بالغ، وسالت دمعة مغلية من عينه على خده لتحرقه بحرارتها، لقد قتل من أجلها دون شعور بالندم، حتى لا يمس أحد خصلة من شعرها إلا بِحُب.

كان يريدها أن تحب من جديد، بل وتتزوج من جديد، لا يمانع، المهم هو أن تشعر ببعض السعادة في حياتها، والآن ذهبت، رحلت وتركته في هذا المكان وحيداً، كان وجودها يخفف عنه صعوبة الحياة، والآن ذهبت ..

همس لها وألف غصة تعتصر قلبه:

- أين ذهبت يا أماه؟

لم ينل إجابة، سالت دموعه على خديه وصرخ بها:

- أتذهبين وتتركين إبنك الصغير وحيداً في غابة الذئاب هذه؟ كيف طاوعك قلبك على فعل هذا؟ أرجوك، أجيبي على سؤالي...

إنهار بجوار السرير يبكي دون أن يفلت يدها، كان خائفاً من تركها، كطفل صغير يخاف الضياع إن ترك يد أمه، تَمَسَك بها بكل قوته، لعلها تمده بالطاقة الكافية ليتركها!

وسالت على خده دمعة وجع!

وما هي الدمعة؟

هي ألم لا يحتمل، وعذاب عجز الجسد عن كتمانه، فخرج بعضه على شكل دموع ساخنة أحرقت وجنة صاحبها، إنها الحرقة المحبوسة، والقهر الذي يأكل صاحبه من الداخل، وأسوأ أنواع الدموع وأصعبها هي دمعة الفقد، تلك التي تهرب بعيداً عن النار التي تشوي الجسد بقوة ..

بعيداً عن الوجع!

إرتجف بقوة، وأخذ يحدث نفسه بجنون:

- لقد كان الموت هنا، في منزلي، أرسلني لأقوم بإحدى مهماته فيما كان يقوم بعمله في منزلي أنا، منزلي أنا، وأخذ مني المخلوق الوحيد الذي كنت أهتم به.

لم يكن قادراً على الرؤية بوضوح بسبب الدموع في عينيه، ولكنه كان قادراً على رؤية كيان أسود واقفاً في زاوية الغرفة، وعرفه على الفور، صاح به بكل غضب:

- أيها اللعين!

مسح دموعه ليراه بوضوح..

كان هو ..

- كان بيننا إتفاق!

قالها وهو ينظر للأرض مدركاً أن الكلام لن ينفع معه، ولكن الرد جاءه في ذات الصوت العميق، النابع من أعماق عقله المظلمة:

- وهل كنت ستقوم بقتلها؟

صرخ بصوت أعلى إرتجت له جدران المنزل:

- لم تكن تستحق الموت.

لم يستقبل رداً، الصمت هو سيد الموقف بينه وبين الموت، إختفى الشيء فجأة كما ظهر، تاركاً زين في حالة يرثى لها.

لم يفهم لماذا، لماذا إختارها هي بالذات من بين الناس جميعاً؟

كان بإمكانه إختيار ألف ألف شخص يستحقون الموت أكثر منها، ولكنه إختارها بدلاً عنهم جميعاً، وترك البقية يعيشون يوماً إضافياً، لم يكن هذا عادلاً على الإطلاق.

أخذ يشد شعره بقوة وكأنه سينزعه عن فروة رأسه، وهناك ألم شديد في داخله، غصة وحرقة، كان عقله يعمل بسرعة مستعرضاً كل ذكرى مرت به معها، وكم كان صعباً عليه تذكر تلك اللحظات، إنهمرت الدموع من عينيه ليبكي كطفل صغير، كانت هناك نارٌ في داخله، جهنم مستعرة في قلبه، كان مستعداً للتضحية بروحه من أجلها في هذه اللحظة، بل كان مستعداً للتضحية بالكرة الأرضية بمن فيها إن كان هذا سيعني إستعادتها.

كانت النار شديدة، وكانت تشويه من الداخل، وتمزقه بعنف، وكانت لمسة واحدة من أمه قادرة على إنهاء عذابه في غمضة عين، ولكنها الآن جسد بلا روح، جسد بارد متحجر خاوي.

لقد أصبح وحيداً الآن، ضائعاً، ومحطماً لشظايا بالغة الصغر، إستند إلى السرير دون أن يفلت يد أمه حتى الآن، وحاول الوقوف بصعوبة، بقدمين ضعيفتين، وقوى

خارت فجأة بعد الصدمة الشديدة، إستطاع الوقوف بمساعدة يد أمه، ربما لم تكن دافئة، ولكنها لا زالت يدها!

تأمل ملامحها كما لم يفعل سابقاً ..

لماذا لم يتأملها من قبل؟

كانت جميلة للغاية، لم يلحظ هذا من قبل، رقيقة كفراشة، مد يده ومسح على وجهها ليغمض عينيها، وكان هذا أصعب شيء فعله في حياته، كان متأكداً من أن هذا هو شعور الموت.

لقد مات زين اليوم، ومع هذا الموت ولد مخلوق آخر بشكله الحقيقي ..

عزرائيل ....

شعر ببرودة في داخله، وظلمة تكتسي زوايا عقله، أحس بنبضات قلبه وهي تتباطئ حتى شك أنها ستتوقف.

إنحنى على والدته وطبع قبلة حانية على جبينها، ثم حاول إفلات يدها بصعوبة شديدة، ولكنه لم يستطع، فجلس على الأرض بجوار سريرها وأغمض عينيه وهو ممسك بيد أمه، كانت دموعه تتسلل من أسفل جفنيه لتسقط على خديه، عندها شعر بوخزة في ظهره، إستدار ليجد ما لم يتوقعه، من تحت الوسادة التي استلقت عليه أمه الميتة كانت هناك مفاجأة ثانية تُطل بطرفها عليه، كانت ورقة لعب من نوع مميز مألوف، مَد يده ليجذبها ليكتشف أنها تحتوي على بصمة دامية كتلك التي يرميها فوق جثث ضحاياه ..

بصمة الموت!

ما معنى هذا، عندها انتبه لأن السرير كان مبللاً، مد يده ليلمس ظهره ليجد سائلاً أحمر، إنتفض بسرعة كالملسوع ورفع الغطاء عن أمه ليجدها تسبح في بركة من الدم، دمها هي!

لقد قُتلت!

الورقة وبركة الدم لم يَدعوا مجالاً للشك في أنها قد قتلت، والقاتل يعرفه جيداً، ويحاول التلاعب به بأسلوب عزرائيل!

لم يكن عقله قادراً على توقع هوية القاتل، لقد خلق العديد من الأعداء في الفترة الأخيرة، ولكنه لم يتوقع أن أياً منهم قد يجرؤ على الوصول لأقرب شخص له، لم يتوقع أن هناك من يريد الإنتقام منه للدرجة التي تجعله يصل لنقطة اللارجوع، والتي تتمثل بالنسبة لزين بمجرد أن تُمس أمه بأذى، هذا هو خطه الأحمر الذي لا عودة من بعده للحياة، الطريق الوحيد الذي سيسلكه عدوه بعدها هو طريق الجحيم.

يا لسخرية القدر، كان هناك قاتل في منزله فيما كان يقوم بجريمة قتل، لم يكن هذا سوى إنقلاب النَحر على النَاحر!

نهض ليجول في الغرفة كالسكران، كانت مرتبة، ولكن الغريب هو أنه كانت هناك حقيبة في وسط الغرفة تجمعت بداخلها الملابس المرتبة، كانت تستعد للرحيل وتركه، إقترب من طاولة صغيرة ليجد عليها عدة أوراق مكتوبة بخط يدها، أمسك بها وبدأ يقرأ:

" أنا مريضة رغم أن جسدي لا يشتكي من أي علة، أنا مصابة بنزيف من نوع مختلف، ليس نزيف الدم، هذا نزيف الروح، والدموع المحبوسة التي تتسرب حتى توشك على أن تغرقني من الداخل!

أنا أحتضر، وأشعر كل يوم بشيء يجذبني نحو حتفي، ربما كنت أنا السبب في كل ما حدث، حكمت على نفسي بالموت عندما اخترت رجلاً لا يصلح كزوج، أو أب، أو حتى كرجل كرسي! لكنه كان يصلح كمُعيل بحكم أنه يملك المال، وكنت في ظرف منعني من الإختيار بشكل صائب، لم أكن أملك رفاهية البحث جيداً عن الرجل المناسب، فاخترت أول أبناء آدم قرر التقدم لي!.

لم أعد أذكر إسم أبي، أو ملامح أمي، أو مكان ولادتي، نَسيت من أنا، وتذكرت شيئاً واحداً أهم من الدنيا كلها في عيوني، والذي هو أنت يا زين، ولكنك قررت الإنصياع

لأوامر شيطانك الخاص، وتركه يتحكم بك حتى قمت بما قمت به، لاحظ أنني لم أذكر ما فعلته خوفاً من أن تقع هذه الرسالة في يد أحد، وكذلك لأنني لا أجرؤ على الإعتراف بما فعلته بيني وبين نفسي حتى، رغم أنك لم تتردد في الإعتراف لي مع أنك تعرف أن هذا قد يكون السبب في مقتلي.

حاولت الإنتحار، صدقني، ولكنني لم أستطع، كنت أشعر أنني لا زلت قادرة على إعادتك لطريق الصواب، لكنك لم تدع لي فرصة يا بني، أنت تعود للبيت كل ليلة وهناك آثار دم على ثيابك، ورائحة البارود تفوح في المنزل منذ لحظة دخولك لتعلن أن ابني قد هوى في جحر من الإجرام والدماء، وأعرف أن سحبك من مثل هذا القاع سيكون عسيراً.

هذه رسالتي التي أكتبها بأصابعي المرتجفة الملوثة بدموع حمراء، جفت مدامعي فأصبحت أبكي دماً!

والآن حان وقت الرحيل، سأتركك وشأنك لأنني لم أعد قادرة على رؤيتك تضيع أمام ناظري دون أن أستطيع مساعدتك أو الإمساك بيدك لأخرجك من عالمك ومن مدينة الحرائق والدم هذه.

أنت قاتل، والقاتل ملعون في كل الأديان السماوية، وكل الشرائع الأرضية، لن أحتمل رؤية جثتك متدلية من حبل مشنقة في حياتي، أو رؤيتك وأنت تحترق في الجحيم بعد موتي!

لا أتخيل كيف فعلتَ ما فعلتَه، كيف إنقلبت شخصيتكَ ألف درجة بهذا الشكل، هذا مستحيل، أشعر وكأن الشيطان قد تلبسك، وأخاف أن يكون شعوري في محله، ضاعت تربيتي فيك، كنت أريدك شخصاً أفضل، مختلفاً عن محيطك، ولكنني فشلت وكان تأثير المدينة عليك أكبر مني بمراحل، أنا آسفة، لقد فشلت في تربيتك، ولم تكن كما توقعت لك أن تكون..

وداعاً يا فلذة كبدي، إلى الأبد" ...

هذه ليست رسالة إنتحار، كانت تريد ترك المنزل، لم يصدق أنه يمكن لها أن تتركه يوماً، ويبدو أن القاتل قد وصل إليها قبل أن تجمع أشيائها.
لقد بكى الليلة كما لم يفعل من قبل، ولن يذرف هذه الدموع إلا مرة واحدة بعدها ، ولكن المرة التالية ستهشم بقايا قلبه المحطم إلى أشلاء، بل ذرات بالغة الصغر،
لقد زاره الموت الليلة، وترك له هدية، ترك له بصمة لن تمحى للأبد.
سيبقى هذا المساء في ذاكرته، وستبقى هذه البصمة مطبوعة على قلبه، بدماء أمه التي آمن أنه السبب في مقتلها.

أخرج من جيبه علبة أوراق التي تنقصها عدة بطاقات، وأمسك بالأوراق بين أصابعه ورماها في الهواء، وكأنه يقول بشكل صامت: "عليّ وعلى أعدائي، وعلى البشر أجمعين!".

دفن زين أمه في حديقة المنزل بيديه، ورمى التراب فوق جثتها بكل قسوة، والدموع تواصل السقوط على خديه، عزرائيل بذاته كان يحترق بالدموع المشتعلة، ولكنه لم يكن يبالي بزيادة حرق إضافي على وجهه المشوه، وكل ما كان يهم زين هو الإنتقام من القاتل بأسرع وقت، وإن كان يعرف أن هذا لن يكون بتلك السهولة، خاصة أنه قد مشط المنزل بأكمله بحثاً عن أدلة دون أن يجد أي خيط قد يقوده للمجرم، قطف كل ورود الحديقة، ووضعها فوق موضع القبر، وإستلقى بعدها على الأرض ونام كطفل صغير في وضعية الجنين، أحس حينها وكأنه رضيع نائم في حضن أمه، وأفاق بعدها ليجد التراب مبللاً بسبب دموعه التي لم تهدأ أو تتوقف حتى في نومه.

لقد رآى أمه في أحلامه، مبتسمة في ثوب أبيض وكأنها سعيدة بموتها، وكأنها نالت الراحة الأبدية بعد عذاب الأرض، قالت أنها ستزوره دائماً، وأنها قد سامحته على ما فعله، وأكدت أنها لن تستطيع الإبتعاد عنه، ستراقبه من الأعلى، وتدعو له، على

أمل أن تلتقي به في الجنة، وكان هذا مستحيلاً، مع تلك البصمة الملعونة التي إلتصقت بقلب زين..

بصمة الموت!

**********

# الفصل العشرون

## خارج عن القانون

أربعة أشهر كانت كافية لتقلب حياة زين رأساً على عقب ..
والسبب في كل ما حدث هو زياد، هكذا كان زين يحب أن يقنع نفسه، بأن السبب في كل مشاكله هو زياد، وربما لو قام بالتخلص منه مبكراً أكثر لإستطاع العيش بشكل طبيعي مع أمه، وربما تمكن في هذه الفترة من منحها جزءاً من السعادة التي تستحقها بشدة، وإن كان محظوظاً فسيقوم بإنقاذ حياتها من الموت الذي لم يكن يعرف أنه كان قريباً منها هكذا.

لم يعد زين إلى منزله بعد تلك الليلة، وكيف له أن يعود؟
فالشخص الوحيد الذي كان يربطه بكومة الحجارة والخشب تلك كان أمه، والآن ذهبت، لذا فلا سبب يدفعه للعودة إلى هناك، إلا لزيارة قبرها الذي إختار أن يكون مكانه في حديقة المنزل، محاطة بالورود، إختار هذه البقعة لأنها كانت مكانها المفضل في الحديقة، تجلس هناك بالساعات، لتبتعد عن زياد وعن الحياة معه بأكملها، تتأمل الورود التي حولها، وتشعر أنه لا زال هناك أمل، ولكن الموت كان له رأي آخر، ليعود زين إلى منزله ليجد المفاجأة بإنتظاره، مفاجأة كانت أقصى من قدرته على الإحتمال.

ومنذ وفاتها، لا يحتمل فكرة أنها قد قُتلت لذا كان يقول هذا، خاصة أنه لم يتمكن من إيجاد القاتل رغم أنه مر أربع أشهر على موتها، ومنذ ذلك الوقت، وزين يعيش حياة من الإجرام والدم، في ذلك العالم الغامض المظلم الذي دخله بقدميه وبموافقته التامة، أصبح محاطاً بالمجرمين من كل ناحية، بعدما أعطاه فارس غرفة في القصر ليعيش فيه معهم، ووافق زين على أن يعيش تحت سقف واحد مع مجرمين وقتلة.

أخذ يدفن نفسه في عمله القذر، يذهب مع فارس في كل مهماته، محاولاً تناسي ما يحدث في حياته من فواجع شطرت روحه إلى نصفين، أخذ يراقب فارس فيما يؤدي عمله، يقتل ويعذب ولكنه لا يسرق، فهو لا يحتاج إلى المال، يدير تلك العصابة لأنه يعشق السلطة، ويحب النفوذ، ويهوى فكرة أن يكون صاحب اليد العليا على الناس، وتعلم زين منه هذه الطباع، واستمع لكل كلمة كان يقولها، فهذا الرجل لم يصل إلى موضعه الحالي من فراغ، لذا فكل كلمة يقولها، وكل حركة يأتي بها، هي درس ثمين يستفيد منه زين ليُكون نفسه ببطء، حتى يصبح ما يريد ..

خارج عن القانون..

هكذا كان، وهكذا كان يريد أن يكون بالفعل، طالما أن القانون عاجز عن إعادة حقوق المظلومين، فهو خارجه، بل هو في أقصى مسافة منه.

لم يكن شاباً عادياً، كانت شخصيته مرعبة، ومختلة بشكل مريع، ولكنه كان قادراً على الحفاظ على إتزانه أمام الجميع، لكن هذا الجنون الذي يسكن رأسه كان يخرج بشكل مُهيب عندما يحمل المسدس ويوجهه للمذنب التالي على قائمته.

قال له فارس ذات يوم:

- إفعل ما هو صواب، أياً كان ما تنص عليه القوانين.

وكان هذا مبدأه في الحياة.

سيفعل ما هو صواب في رأيه، حتى وإن كان هذا مخالفاً للقانون، سيقتل بإسم الصواب، وتحت فكرة أن الآخر هو المخطئ، سيعاقب المذنبين، ويحمل آثامهم فوق كاهله، ليخلص المدينة ممن شوهوا صورتها وجعلوها على الشكل الذي هي عليه الآن.

كان الوقت يمر سريعاً، يقضيه في مهماته المرعبة، ليغوص في ذلك العالم أكثر وأكثر، ويسبح في الدماء التي كان السبب في إراقتها بيديه هاتين، كان يعمل من مبدأ

غريب، كل مشاكلك مهما بلغت صعوبة التخلص منها، يمكنك القضاء عليها بمسدس ملقم بالرصاص، وقلب متحجر.
أصبح فارس يثق في زين أكثر وأكثر، ويسلمه المزيد من المهمات، ورغم أن زين كان يرفض دائماً أخذ المال مقابل أي مهمة، إلا أنه كان يعود دائماً ليجد رزمة من الأوراق النقدية على سريره، حتى أصبح يملك مبلغاً ضخماً لم يتوقع أن يملكه يوماً، وعرف حينها أن المال هو ما يجعل الدنيا تدور.

إشترى شقة، وأثثها كما يريد، فهي ملكه، القطعة الوحيدة من الأرض التي يمكنه أن يفعل فيها ما يشاء، حيث لا زياد ليؤنبه ويضربه على التدخين والسهر، ولا جيران يجرؤون على الدق على باب منزله منزعجين من صوت الموسيقى العالي.
لم يكن يملك شيئاً قبلها، والآن أصبح بإمكانه إمتلاك أي شيء، أصبح بإمكانه الحصول على النساء، والمشروب والمخدرات في أي وقت يريد، مع خدمة التوصيل المجاني لشقته!

مرت عشرات النساء على الشقة، ولكنه لم يشعر بشيء حقيقي مع أي منهن، فقلبه كان معلقاً بأخرى، بتلك الملاك التي إختفت من حياته فجأة، دون أن يعرف كيف أو لماذا، إنتظرها طويلاً في المقهى المعتاد، في زاويتها التي كانت تقرأ فيها لتولكين تحديداً، لقد إنقطعت أخبارها تماماً في الليلة التي توفيت فيها أمه، وكأن خسارة أمه لم تكن كافية، حتى يخسر الفتاة الوحيدة التي شعر معها بقلبه وهو ينبض، لم يكن قادراً على إحتمال الفكرة، فإنكب على الكحول فأخذ يشربها كالماء، ولم يدع نوعاً من أنواع المخدرات إلا وجربه، ولكنه لم ينسى، لم يكن المشروب أو المخدر قادرين على جعله ينسى أهم إمرأتين في حياته.
كان يعرف أن العديدات عشقنه من قبل، ولكنه لا زال ضعيفاً للغاية أمام صراحتهن، لم يكن عزرائيل يهتم بالنوم مع النساء، رغم أنه من كان يرمي بالشباك لهن، ويفتح

لهن باب الشقة ليدخلوا بعد أن تعلق السمكة في الطُعم، ولكنه بعدها يسلم زين زمام الأمور كلها، وكأنه يخبره أن هذه مكافأته، وأنه في هذه الليلة الحمراء سيتراجع وسيكون زين هو المتحكم، وسيتمكن من أن يثبت رجولته ولو في نطاق سريره الصغير!

همست له إحدى الفتيات وهي تجذب أنفاس سيجارتها مستلقية بجواره على السرير ودموعها تسبقها:

- لماذا لم تستطع أن تحبني؟ أنا أعشقك، ومستعدة للتضحية بحياتي من أجلك، وأنت عاجز عن إعطائي فرصة واحدة لأثبت أنني جديرة بحبك، أخبرني وإن كان هذا يعني مقتلي، أهناك فتاة أخرى في حياتك؟

رد زين حينها وعزرائيل يراقبه من الداخل:

- هناك فتاة تسكن في أعماق قلبي، ولكنها لم تعد موجودة في حياتي!

وهذه هي الحقيقة، لم يكذب على أي منهن مدعياً حبها، كان يخبرها أنهم يقضون وقتاً ممتعاً، ولا حب في هذه العلاقة، مجرد تبادل مصالح، هناك طوابير من النساء في مدينة كهذه، وكلهن يتمنين قضاء ليلة مع شاب بوسامته وثراءه، ولهذا لن يضايق نفسه من أجل واحدة أو عشرة حتى!

مد زين يده ليخرج دفتر مذكراته من خزنة الأموال، حيث يحفظه كي لا يقع بين أيدي زائرات شقته، وكتب فيه:

"أصحو من فُحش المنام، إلى فقر اليقظة، أمسح أصابعي في جدران غرفتي، كلها حيطان مبكى، وأنا الباكي الذي آثر ألا ترى دموعه سوى الظلمة، أنا العالق أبداً في عنق الزجاجة بين الواقع والحلم!

ذباب لعين يواص الحوم حول رأسي، وإحداهن تحاول الدخول في أذني!

وكأن كل هذه الأفكار والأطياف التي تحيط بي لا تكفي، وكأنني أحتاج لمخلوقات إضافية تحوم حولي وأنا عاجز عن إبعادها مهما دفعتها بعيداً ..

لم لا أصحو محاطاً بالبالونات، أو الأصدقاء، أو بذراعيها مثلاً؟!

لكن لا، أنا أصحو كل يوم بكفٍ خاوي من أصابعها، وقلب ممتلئ بها، وأمل باللقاء، ليس وجهاً لوجه، بل قلباً لقلب!

تباً!، وكأن كل ذبابة تستل حساماً مُهنداً وتبرع بشدة في قطع حبال أفكاري، فأتهاوى من السماء كقطعة ملابس مبتلة حتى أرتطم بالأرض بكل عنف، لم أعد أستطيع جمع شتات بنات أفكاري الهاربة من نار عزرائيل التي تشويني من الداخل للخارج!

أخرج من الغرفة وأدخل المطبخ لأبدأ طقوس تحضير البن اليومية، أذيب كل الأحلام التي رأيتها في نومي في كوب قهوة وأتجرعه على مهل أملاً في أن أصحو من هذه الثمالة الروحية التي إعترت جنبات عقلي وسائر بدني، تصاحب لفافات التبغ فنجان قهوتي، وكأنهما رفيقاي الوحيدان في هذا الإنعزال، أحرق سجائراً ملفوفة بأوراق منتزعة من كتب فلسفة عتيقة كانت لي يوماً ما الوسيلة الوحيدة لفهم الحياة، ثم إكتشفت أن السبيل الأوحد لفهمها هو أن تعيشها، ولكن كيف لي أن أعيشها وهي تهرب مني بكل قوتها وأنا أهرب منها في الوقت ذاته؟

كيف أعيشها وأنا ميت؟

أتأمل الدخان المتصاعد من السيجارة وهو يغازل البخار الصاعد من كوب القهوة ..

أنا الوسيط في علاقة الدخان هذه، وكأنها تذكرني كم أنا وحيد، وأن التبغ ذاته قد إستطاع أن يجد لنفسه رفيقاً في الحياة الأخرى، بعضه يدخل في رئتيَّ ليلتصق بها وكأنها مثواه الأخير، وبعضها الآخر يمتزج ببخار القهوة في الهواء ليتعانقا وهما يصعدان إلى السماء، وأنا منعزل أحفر الشبر تلو الشبر في قبري بأصابعي العارية، في كل سيجارة، وكل كوب قهوة، وكل ضحكة مزيفة، وكل إبتسامة حمراء، وكل روح

أُزهِقت على يدي، وكل دمعة لم أذرفها فقتلتها شر قتلة ودفنتها في جفوني بجوار شقيقاتها في مقابر جماعية للمدامع...
أنساق كل يوم في غيابها إلى المقهى الذي إلتقينا فيه، كالمُنَوم مغناطيسياً، وبداخلي نزاع بين قوتين ..
أنا وعزرائيل ..
وكنت أربح الصراع بمجرد ذكر إسمها، فيكون للإسم مفعولاً كالسحر، ليتوارى عزرائيل من بعدها تاركاً زمام الأمور لي مُجبراً!"

أغلق زين بعدها دفتر مذكراته، وشرب ما تبقى مِن فنجان قهوته دفعة واحدة، وإستلقى على سريره وهو ينتظر اليوم الذي ستعود فيه ملاك لحياته على أحر من الجمر، حتى جاء ذلك اليوم...

كان خارجاً من المقهى الذي يداوم فيه يومياً، عندما رآها، كانت تترجل من سيارتها، مرتدية ثوباً أخضر اللون زاد لون عينيها حدة، وشعرها الأشقر ينسدل على كتفيها بدلال.
عندما أقفلت السيارة ونزل شعرها المُضيء على وجهها ببراءة، وعندما دفعته إلى خلف أذنها، عرف أن قلبه وإن أحيّته بُحبها، قد هوى الآن قتيلاً في عشق تلك الفتاة ..
لم تتغير، جميلة كالعادة، فاتنة كالعادة ..
ملائكية كالعادة!
كان يصارع شياطيناً في داخله تحثه على الركض نحوها وتقبيلها بجنون، وكانت رغبته شديدة، ولكنه لم يفعل، لم يكن ليجرؤ على خدش شفتيها الناعمتين بشفتيه، فإقترب منها ببطء، ورأته هي وهو يقترب، فإبتسمت له بسعادة، وكأنها كانت تبحث عنها، أي فتاة أنتِ يا ملاك؟

أي ملاك أنت يا فتاة؟!

وقف أمامها، وشعر بشفتيه تتحركان ليبتسم لأول مرة منذ شهور، وبادلته الإبتسامة، ولم تعرف ما يجب أن تقول، تمتمت بسعادة:

- أنت؟

سألها ذاك السؤال الذي كان يلح عليه بقوة:

- أين كنت طوال هذه الفترة؟

لم يستطع طرح السؤال الأصلي، أراد أن يقول: " أين كنت عندما إحتجتك أشد الإحتياج؟".

ولكن هذا السؤال سيفي بالغرض المطلوب برأيه.

أمسكت بيده وجذبته نحو المقهى وهي تقول:

- سنتحدث في الداخل.

وانساق خلف لمسة يدها كخروف يسوقه الراعي بعصاه، حتى دخلا المقهى وجلسا في الموقع المعتاد، في زاويتها المفضلة، وضعت ذراعيها على الطاولة واستندت برأسها إلى كفيها متأملة ملامحه التي تغيرت، عيناه اللتان ذبل لونهما، بعدما كانتا تشعان بالحيوية والنشاط، ولحيته التي تركها تطول حتى كادت تغطي رقبته، وشعره الطويل المبعثر دون إهتمام.

رغم كل هذه التغييرات إلا أنها كانت تشعر بأن هناك تغييراً أكبر قد حدث في غيابها، تغيير داخلي، جعله يُهمل نفسه بهذا الشكل!.

- شيء ما قد تغير، ما الذي حدث في غيابي؟

سألته والإبتسامة لم تفارق وجهه حتى الآن، وإن شعرت ببعض القلق عليه، كانت من النوع الصادق الذي يقف الكلام الذي في رأسها على طرف لسانها، فتبوح به سريعاً.

- أنتِ أولاً.

- كما تريد، لقد كنت خارج المدينة طوال هذه الفترة، في زيارة لعمتي المريضة، واضطررت للبقاء عندها حتى تعافت، والآن أخبرني بما حدث معك أنت؟

رد محاولاً تغيير الموضوع عنه:

- لم أسمع من قبل عن أحد يخرج من هذه المدينة ويعود لها بكامل قواه العقلية.

إبتسمت وقد فهمت ما يحاول فعله، ثم قالت:

- لم تجب على سؤالي!

كانت تفهمه، وهذه حسنة وسيئة في الوقت ذاته، فهي تختصر عليه الكثير من الكلام الفارغ، ولكنها كذلك تمنعه من التظاهر بما هو مغاير لما في قلبه في حضرتها، سكت، وأخفض رأسه في أسى وقد إختفت الإبتسامة عن وجهه دفعة واحدة، لقد أعادت له بسؤالها هذا ذكريات لم يكن يريد تذكرها، ليس الآن، كان يبحث عن بعض السعادة وليس عن تقليب للمواجع..

- أمي...

لم يستطع إكمال العبارة مع تحجر الكلمات في رأسه، ولكنها فهمت ما يرمي إليه، فمدت يديها وأمسكت بيديه بحنان، وهي تقول:

- أنا آسفة لسماع هذا.

أومأ برأسه دون أن يرفعه، فزادت من الضغط على يده محاولة التخفيف عنه، ثم هبت واقفة بسرعة وجذبته من يده كي يقف وسط إستغرابه الشديد لحركتها المفاجئة..

سألها بدهشة:

- ما الذي تفعلينه؟

جذبته محاولة جعله يقف معها وهي تقول:

- فلنذهب!.

رفع رأسه لينظر لها بإستغراب وهو يسأل:

- إلى أين؟

- لا يهم، فلنخرج من هذا المكان.

جذبته بقوة أكبر فوقف وتبعها منساقاً دون وعي حتى خرجا من المقهى..

- فلنذهب بسيارتي

قالتها وهي تشير لسيارتها القديمة الصدئة، فهز رأسه بالنفي وأشار لسيارته الرياضية، حديثة الطراز، وهو يقول:

- ما رأيك بهذه؟

إتسعت عيناها لرؤية سيارته الفارهة وهي تسأل:

- هذه سيارتك؟

- أجل

قالها وهو يمد يده لجيبه ليخرج منه مفاتيح السيارة، لوح بها أمام عيني ملاك ثم مد يده الحاملة للمفاتيح لها وهو يقول:

- أنت ستقودين

إبتسمت بفرحة الأطفال وهي تأخذ منه المفاتيح ثم ركضت بأقصى سرعتها نحو السيارة فيما وقف هو يتأملها بسعادة شديدة، كان سعيداً لمجرد أنه إستطاع إسعادها وزرع إبتسامة على شفتيها، وكان هذا يكفيه.

إنتبهت ملاك لأنه لم يتبعها، فعادت له سريعاً، وجذبته من يده لتسوقه بأسلوبها الذي لا يستطيع أحد مقاومته، حتى عزرائيل كان ليمشي ورائها دون حول أو قوة، حتى وصلا إلى السيارة، فركبت هي في مقعد السائق وركب بجوارها، أدارت محرك السيارة وسألته بحيرة:

- إلى أين سنذهب؟

فتح نافذة السيارة، ثم أشعل سيجارة وهو يقول:

- فلنخرج من هذه المدينة!

**********

# الفصل الحادي والعشرون

## إنفصام حاد

إنطلقت سيارة زين تنهب الأرض بأقصى سرعة ممكنة، متجهة لخارج المدينة، مع ملاك خلف المقود، سعيدة للغاية وهي تستكشف عالماً من الإثارة والسرعة، كان زين بجواره يتأملها متناسياً الطريق من حوله، لم يكن مهتماً بشيء، ولم يكن ينوي الخروج من المدينة فعلياً، ولكنه في تلك اللحظة كان مستعداً للذهاب خارج الكرة الأرضية طالما هي معه.

لم يصدق أنها قد عادت لحياته بعدما فقد الأمل تماماً في عودتها، وإن كان يظن بها خيراً على الدوام، ويعرف أن غيابها مُبرر، وأن غيابها بعذر لا يحتاج لأن تكذب بخصوصه.

أخرج علبة سجائره ومد يده ليستل واحدة منها عندما مدت ملاك يدها وأخذت السيجارة من بين يديه ودستها بين شفتيها الورديتين، لم يعرف ماذا يفعل، تصرفات هذه الفتاة غير متوقعة على الإطلاق، أخرج الولاعة من جيبه ومد يده نحوها بالشعلة، إنحنت عليه فسقطت خصلة من شعرها مُهَدَدَةً بالحرق بالنار، فأسرع زين وأمسك بتلك الخصلة الناعمة بين يديه فيما أشعلت هي السيجارة، ثم أفلتها لتعود للقيادة وهي تنفث دخان سيجارتها دون أن تبعد عينيها عن الطريق.

يا لك من فتاة!، إبتسم فيما أشعل لنفسه سيجارة كذلك، ثم تذكر شيئاً، مد يده للمقعد الخلفي باحثاً حتى وجد زجاجة نبيذ أحمر مغلقة، تناولها ورفعها أمام عيني ملاك التي بدت متشككة من الموضوع، ولكنه لم يهتم، مد يده باحثاً في أنحاء السيارة حتى وجد فتاحة الزجاجات، ففتحها سريعاً، ومد يده بالزجاجة نحو ملاك، سألته بشك:

- حقاً؟

- ولم لا؟ لا أحد يموت مرتين!.

ضحكت وهي ترد وقد بدت أجمل وهي مُستفزة:

- إذاً فنحن سنموت!.

رد بتلقائية شديدة:

- كلنا سنموت يوماً ما...

إتسعت ابتسامتها رغم مأساوية الرد، مدت يدها للزجاجة، ثم وضعتها على شفتيها لتجرع منها بقوة وعيناها على الطريق، ثم أبعدتها عن شفتيها وأعادتها لزين ليشرب، قالت وهي تلعق شفتيها لتمسح النبيذ عنهما:

- سجائر ونبيذ، لم لا تحقنني بإبرة مخدرة أيضاً؟!

ضحك زين وهو يشرب من الزجاجة فتسبب هذا في جعل المشروب يتساقط على ملابسه، ولكنه لم يهتم، رشف رشفة أخرى ثم أجاب:

- كلا، أريدك متيقظة في هذه الرحلة يا أنا!

سألته بإستغراب شديد:

- يا أنا؟

إنتبه زين لخطئه، لقد قالها سهواً دون أن يفكر، وكأن ما في قلبه قد تشبث بأطراف لسانه ليخرج بأقصى سرعة في لحظة لم يكن يحسب فيها حساب ما يقوله، وفي داخل ملاك، كانت تبتسم، لقد ناداها بـ" أنا "، وهذا نداء عظيم في رأيها، حاولت التركيز في القيادة ولكنها كانت تسرح في أفكارها مرغمة، كانت تفكر في يوم قريب، حيث ستجلس وحيدة مع زين، بعيداً عن البشر وصخبهم وضوضائهم ووحشيتهم، هرباً من عقولهم المعدنية وأفكارهم اللعينة، وظنونهم الحقيرة، بعيداً عن زحام العيون المحدقة،

وقسوة التوتر والقلق الذي تشعر به عندما يجتمعان، هذا لأنها تشعر وكأن الجميع يحدقون بهما.

وهناك ...

في ركن منعزل من العالم، ستتجاذب معه أطراف الحديث، وأطراف الشفاه، وبعض العناق، سيصرخان بما يفكران فيه بأعلى أصواتهم دون خوف من أن أحداً قد يسمعهم، وسيرسمان غيمة من الدخان فوق رأسيهما، سيتشاركان سيجارة، وكأسين من الشاي الساخن، والكثير من الكلام الذي سينطقان بعضه بأفواههم، وبعضه الآخر سيخرج من أعينهم لأنه لا كلمات ستكون قادرة على وصف شعور كهذا، كعجزها عن وصف علاقتهما بمسمى الحب، فلم يعترف أي منهما للآخر بالحب بعد، ولكن كل شيء كان يقول أنه يحبها، وهي تشعر بأنها تحبه بحق.

كانت تريد أخذه إلى مكانها المفضل، وهناك سيلعبان بضعة ألعاب، جائزتها قبلة، أو بوح، أو حضن، لا مكاسب مادية في هذه العلاقة، فهذا ليس الهدف منها، جوائز هذه الألعاب معنوية وروحية للغاية، هي وقود القلب الذي يمنحه القوة ليواصل النبض وضخ الدماء للجسد لفترة أطول.

تحدثا طويلاً، وزين يلتحف الكلمات التي تخرج من بين شفتيها، وكأنها مصدر الدفء الوحيد لروحه المغتربة الباردة كصقيع القطب المتجمد، وفي الخارج يُشوى جسده تحت شمس الصيف الحارقة ..

يخبئها في قلبه كي لا يراها أحد غيره لشدة غيرته عليها، وكأنها قطعة منه يخشى عليها من الإنفصال عنه، يذكرها غمغمة كي لا يعرف أحد وصفها، يريدها له وحدها، وكان يريد أن يكون لها وحدها!

يريد أن يكونا لبعضهما، ولتذهب المدينة بسكانها، والبشرية جمعاء، بعيداً عنهما، إلى كوكب آخر مثلاً، أو حتى إلى الجحيم، لا يمانع!

كان يفكر في الطريقة التي وقع فيها في حب هذه الفتاة..
عن طريق الخطأ، أو العفوية المحضة، مزقت هذه الفتاة قلبه إلى أجزاء دون أن تكسر ظفراً من أظافرها، ودخلت إليه لتجلس على عرش فؤاده كمليكة ومالكة لنبضاته، لقد أسرته بمجرد نظرة من نظراتها دون أن يهتز فيها جفن من أجفانها، وكم كان يحب مشاهدة تلك التجعيدة في زاوية عينيها عندما تضحك له بحب، خاصة إن كان السبب في ضحكتها.
إن أردنا إختصار المشهد، فنحن أمام ميت في عداد الأحياء، قلبه يحترق نار الحب، وعقله يصرخ: " زملوني"!.
أما هي، فقد كانت تفكر في حقيقة ما يدور بينهم، نظرة الحب التي في عينيها عندما تنظر إليه كانت مفضوحة للجميع، لا تدري كيف لم يشعر بها؟
أهو أعمى لهذه الدرجة؟ أم أنه فقط يكابر ضد مشاعره ويرفض الإعتراف بها؟
هزت رأسها لتخرج من شرودها، ونظرت لزين لتجده شارداً كذلك، مدت يدها محاولة الوصول لزجاجة النبيذ فأمسكت بيد زين بالخطأ وهي تحاول، ولم تتركها، ولم يمانع، أفاق من أفكاره ليجد نفسه ممسكاً بيدها، فما كان منه إلا أن شد عليها أكثر ورفعها حتى شفتيه ليشعر ببشرتها الناعمة على شفتيه في قبلة حارة، لكنه سرعان ما أبعدها سريعاً عندما شعر أنه قد تجاوز حدوده، رغم أنها لم تبدِ أي انزعاج.
إستغربت ملاك من حركته المفاجئة، بعدما ترك يدها بهذا الشكل، كانت تريده أن يفعل أكثر من هذا، أكثر بكثير، تتمنى لو أنه شد فرامل اليد بقوة حتى تتوقف السيارة في مكانها، ثم أمسك بها من شعرها وجذبها لتقترب منه كي ينهال عليها بالقبلات بكل ما أوتي من حب حتى يمزق شفتيها، ولكنه لم يفعل أياً من هذا!.
كان من نوع مختلف، أغلب شبان المدينة لو أنها إبتسمت في وجههم لقاموا بدعوتها لمنزلهم فوراً، ولكن زين من صنف غريب، فهو لم يلمس يدها حتى الآن، وكل المرات التي تلامست فيها أيديهما كانت هي البادئة بالأمر، وهذا هو الغريب، فهو لا

يبدو كشاب خجول، بل على العكس، هو يبدو كشاب قوي، واثق من نفسه لدرجة الغرور، ولكن عندما يقترب منها يضعف لسبب ما لا تعرفه.
راقبها زين فيما تنفث دخان السيجارة، وانتبهت لنظراته فإبتسمت وأعطته زجاجة المشروب، فأغلقها مجدداً ورماها في الخلف فيما كانت هي تراقبه مستغربة من إنقلاب تصرفاته المفاجئ..
سألته في شك:

- لماذا أغلقتها؟

رد بحزم غريب:

- هذا يكفي!

هزت كتفيها بلا إهتمام، ودفنت سيجارتها في المنفضة ثم زادت من الضغط على دواسة الوقود حتى كادت قدمها تخرج من الجانب الآخر!

أنزلت نافذة السيارة لتشعر بالهواء وهو يتخلل شعرها الأشقر، إبتسم لسعادتها بشدة، كانت تبدو كطفلة تعشق لعبتها الجديدة، ولكن سعادتها هذه لم تستمر طويلاً، في منتصف الطريق ظهرت ثلة من الرجال، سبعة ملثمين يحمل كل منهم بندقية رشاشة ويوجهها نحو السيارة..
قاطعوا طريق!.
كآخر محاولة من المدينة لزرع البؤس في قلوب ساكنيها، ها هي مدينة الرذيلة تمنعهم من الخروج منها حتى، وكأنها تقول لهم أنه لا مهرب!
وضعت ملاك يدها على فمها لتمنع صرخة تسللت من بين شفتيها رغماً عنها، وتحفز زين وهو ينظر لقاطعي الطريق أمامه...
سألته بخوف:

- ما الذي يجب عليّ فعله؟

- توقفي عندهم!.

صاحت بإستنكار شديد:

- ماذا؟

رد زين بثقة:

- إفعلي كما أقول!.

- حسناً

بدأت ملاك تهدأ من سرعتها مع إقترابها من قاطعي الطرق، فيما مد زين يده لجيب معطفه ليتأكد من وجود مسدسه، لقمه وأعاده لموقعه في الوقت الذي توقفت فيها السيارة تماماً، ليقترب منهم الملثمون بسرعة ملوحين بأسلحتهم محاولين إخافتهم مع رؤيتهم للسيارة الفارهة وملاك الجميلة خلف المقود، دون أن يهتموا لهذا الشاب ذي الشعر الأشعث واللحية الطويلة إلى جوارها، متوقعين أنه سيهرب مع أول لكمة يتلقاها تاركاً صديقته لهم.

صاح الرجال بهما:

- ترجلوا من السيارة.

نظرت ملاك لزين متسائلة عما يجب عليها أن تفعله فأشار لها أن تفعل كما يقولون، ونفذت أوامره سريعاً، وتبعها زين ليقفا أمام السيارة والملثمون السبعة يحيطون بهم، ألقى زين نظرة على ملاك ليجدها ترتجف من الخوف، كانت مرعوبة بحق، وإرتفع الدم لرأسه بسرعة لرؤيتها بهذا الشكل، لم يكن ليسمح لأي شخص أياً كان بأن يزرع الخوف في هذا القلب الرقيق، وبالتأكيد لن يسمح لثلة من قاطعي الطريق بهذا.

- ما الذي تريدونه؟

سألهم زين ببرود، فصاح به أحد الرجال بحدة:

- نحن الذين نسأل هنا!

إبتسم زين لمجرد إفشال محاولة الرجل بإخافته، ثم قال:

- حسناً، فلتسأل!.

- إلى أين أنتم ذاهبون؟

إتسعت إبتسامة زين وهو يرد بنبرة مستفزة:

- إلى الجحيم!

نظر الرجال لبعضهم مستغربين من هذا الشاب الذي لابد وأنه سكران، وإلا لما تجرأ على التحدث معهم بهذه الطريقة، خاصة مع هذه البندقيات الموجهة له مباشرة، حاول كبيرهم تمالك نفسه وهو يرد:

- يبدو أنك تريد الذهاب إلى الجحيم فعلاً؟!

كانت ملاك تراقب زين بدهشة، فلم تتوقع أن يملك القوة الكافية في قلبه ليتحدث معهم بهذه الثقة، دون أدنى خوف من الأسلحة التي يحملونها، وكأنه يريد أن يموت!

- لقد عشت حياتي كلها في الجحيم، وخرجت منه حديثاً، ولكنني لا أعتقد أن شخصاً مثلك سيرسلني إلى هناك مجدداً!.

أنزل كبير الرجال اللثام عن وجهه ليكشفه بعد هذا التحدي المباشر، واقترب من زين ليقول له بعصبية:

- وإن أرسلت روحك البائسة في رحلة ذهاب بلا عودة في طائرة خاصة بقيادة عزرائيل؟ ماذا ستفعل حينها؟

مط زين شفتيه في إستفزاز وهو يقول:

- أنا على علاقة وطيدة بعزرائيل، لذا فإرغامه على قبض روحي سيكون صعباً للغاية!.

ضحك الرجل في إستهزاء وهو يبتعد عن زين ليقترب من ملاك ناظراً في عينيها الجميلتين، محاولاً إستفزاز زين أكثر، والأخير يراقبه متحفزاً، وكأنه يفضل الموت على أن يقترب شخص كهذا من ملاكه.

مد الكبير يده ليمسك بخصلة من شعر ملاك الأشقر بين أصابعه، متأملاً ملامحها الفاتنة، وإشتعلت حرائقٌ في عقل زين، كانت الغازات السامة المنبعثة من هذه الحريق سبباً في ثقب آخر قادم في ثقب الأوزون فوق مكان وقوف زين بالضبط، وأفلت زين زمام الأمور لعزرائيل الذي تدخل على إستحياء، كانت ملاك موجودة، لذا كان ضعيفاً، ولم يعرف ما الذي يجعله ضعيفاً أمامها هكذا، لم يكد الكبير يلمس خصلة ملاك إلا وشعر برصاصة تخترق يده فجأة!

أطلق صرخة عالية وهو يسقط أرضاً ممسكاً بيده المثقوبة بألم شديد، وتراجعت ملاك لمرور الرصاصة على بعد بضعة إنشات من رأسها، وأمامها كان زين يقف ممسكاً بمسدسه الذهبي الذي يتصاعد منه الدخان وفي عينيه نظرة مرعبة، وملامحه تغيرت فجأة لتصبح ملامح شيطان!

- لا تنظري!

قالها زين لملاك بصيغة الأمر، بعدما تراجع عزرائيل سريعاً ليعود زين للساحة بسبب نظرات ملاك، ومع ملامحه الغريبة لم يكن بإمكانها إلا الإنصياع لأوامره، فإستدارت معطية ظهرها للملثمين، وهي ترتجف من الخوف بعد ما رأته للتو، ووضعت يديها على أذنيها كي لا تسمع ما سيحدث حتى، وأغمضت عينيها منتظرة الموت، وخلال ثواني قصيرة، حدث الكثير..

كانت حركته مفاجئة للغاية، وغير متوقعة، فجأة كان هناك مسدس في يد زين، وفجأة أطلق الرصاص بإحكام وخبرة لتخترق رصاصته يد كبيرهم لتسقطه أرضاً وهو ينزف ويصرخ من الألم، تحفز الرجال بسرعة وهم يلقمون أسلحتهم، ولكن زين لم يمنحهم الفرصة الكافية، فأطلق رصاصة أخرى إخترقت قلب أحد الرجال ليسقط جثة هامدة

على الفور، ثم إنحنى سريعاً على سلاح الكبير ولقمه بحركة واحدة وأمطر الرجال بالنيران ليسقطوا بالترتيب جثثاً فاقدة للحياة!

رمى زين بالسلاح فوق على الأرض بلا إهتمام ليستدير عائداً للكبير الذي كان على الأرض يتلوى من الألم وفي عينيه نظرة مذعورة بعدما رأى رجاله يقتلون أمام عينيه على يد شاب في أوائل العشرينات من عمره.

نظر زين لملاك التي كانت تغلق أذنيها بقوة أكبر مع سماعها لصوت الرصاص من حولها، إستدارت لترى المجزرة التي فعلها زين بالرجال الستة دون أن يصاب بخدش واحد حتى، وضعت يدها على فمها محاولة منع نفسها من التقيؤ بصعوبة، ولكنها لم تستطع، فأفرغت جوفها على الأرض في تقزز، واعتدلت ثم مشت نحو زين ببطء وكأنها تبحث عن الأمان.

وقف الإثنان فوق كبير الرجال الذي كان ينزف من يده على الأرض بغزارة، وملاك لا تعرف ما سيحدث بعدها، ولكن حركة زين التالية كانت مفاجئة للغاية، فقد أمسك بيدها وجذبها إليه بحنان، ليحتضنها بكل حب كي يمنعها من رؤية ما سيحدث تالياً، وعانقته ملاك بقوة وقد شعرت بالأمان الذي كان تبحث عنه بين ذراعيه.

سأله الكبير والخوف في قلبه تجاه زين أكبر من مما يحمله تجاه المسدس الموجه نحوه:

- من أنت؟

إبتسم زين وقد شعر بملاك وهي تحتضنه بقوة أكبر وتزيد الضغط على خصره، ثم أجاب:

- أنا عزرائيل هذه المدينة، وهذه ملاكي الحارس، وأي شخص يفكر في إيذائها سيكون مصيره الموت!.

وأتبع عبارته برصاصة أخيرة إخترقت رأس الرجل لترديه قتيلاً..

واستمر العناق لخمس دقائق إضافية بعد هذا، دون أن يجرؤ أي منهما على التحرك للإبتعاد عن الآخر، حتى شعر زين بخطر عليها لوجودها في مثل هذا المكان محاطة

بسبعة جثث، كان هذا عندما ظهرت سيارة من جانب الطريق، وبداخلها ثلاثة ملثمين، يبدو أنه لم ينتهِ من قاطعي الطريق بعد، أبعد زين ملاك عنه بصعوبة شديدة وهو يشعر بأنه يسلخ جزءاً من روحه وهو يفعل هذاقائلاً:

- فلنذهب

قالها وهو يجذبها نحو السيارة لتنساق خلفه في خوف، ركب زين في مقعد السائق، وركبت ملاك في المقعد المجاور، أدار السيارة سريعاً وضغط على دواسة الوقود بقدمه بقوة لتغزل العجلات في الأرض قبل أن تنطلق بسرعة شديدة، والسيارة تقترب منهم من الخلف ولكنها لم تكن بقوة سيارة زين.

سألته وهي تتنفس بصعوبة:

- ما الذي سنفعله؟

كانت عينا زين مصوبتان على مرآة السيارة التي تُظهر سيارة المجرمين التي تتبعهم والتي تطلق عليهم الرصاص حتى تحطمت أنوار السيارة الخلفية، وكان خائفاً من أن يُصاب إطار السيارة، لأن هذا سيعني مقتلهم، داس على دواسة الوقود بقوة أكبر وهو يقول:

- لا تخافي، هل أنت بخير؟

- أنا بخير

كان عقل زين يعمل بسرعة خارقة، خاصة والرصاص ينهال على السيارة بعنف يحاول الخروج بملاك سالمة من هذا المأزق الذي سيُحمل نفسه ذنبه للأبد إن حدث لها مكروه.

صاح بها وهو يخرج مسدسه:

- إمسكي المقود جيداً

نفذت ملاك أوامره سريعاً، وأخرج من جيبه مستوعب رصاص آخر ووضعه في مسدسه، وخرج من نافذة السيارة، ولم يكد يفعل حتى مرت رصاصة من جانب

رأسه بسرعة خاطفة، شعر بالحرارة التي كادت تحرق أذنه لشدة قُرب الرصاصة، واستلم عزرائيل دفة القيادة مع غياب نظرات ملاك له.

أخذ نفساً وأطلق عدة رصاصات لزجاج السيارة الأمامي، مُصوباً نحو السائق، ولكنه لم يفلح في إصابته، خاصة وأن رصاصات قاطعي الطريق باتت مُصوبة نحوه مباشرة، دخل للسيارة وعاد عزرائيل ليختبئ عندما نظرت ملاك له وهي تقول بذعر:

- نحن ميتون لا محالة، أليس كذلك؟

نظر لها زين ثم وضع يده على يدها الممسكة بالمقود وهو يجيب:

- لن أسمح لأحد بإيذائك، هذا وعد!

كانت هذه هي المرة الأولى التي يعطي فيها وعداً ليس متأكداً من قدرته على الوفاء به، ولكنه فعل، والآن عليه أن يفي به مهما كان الثمن.

خرج زين بجسده من النافذة وهو يرجو عزرائيل أن ينهي الأمر، ولم يُخيب الأخير ظنه، فأطلق رصاصة أصابت سائق السيارة في مقتل، ولكنها كانت متأخرة، ففي نفس الوقت أصابت رصاصة من أحد قاطعي الطريق إطار سيارة زين جعلتها تنحرف بعنف ليسقط زين منها، وملاك تحاول السيطرة على السيارة وهي موجودة في المقعد المجاور للسائق.

مالت سيارة قاطعي الطريق بحدة مع سقوط السائق على المقود، وتسبب هذا في انقلابها بضع مرات لتتحطم عن بكره أبيها.

حاولت ملاك بكل قوتها أن تتحكم بالسيارة، ولكنه ليست في مقعد السائق حتى، والسيارة تتمايل كراقصة شرقية يُمنة ويسرة، مُصدرة خيطاً من الدخان والنار من إطارها المثقوب، وانقلبت سيارة زين بعد أن عجزت ملاك عن التحكم بها.

كان الموقف عجيباً، زين على الأرض وهو يشعر بأنه قد حطم عدة أضلع بكل تأكيد بعد هذه السقطة، وسيارته مقلوبة رأساً على عقب والدخان ينبعث منها مُهدداً بإنفجار قريب، وملاك عالقة في السيارة بلا حول ولا قوة.

إستجمع زين كل قوته وهو يزحف نحو ملاك ببطء، وعزرائيل يضخ دمائه السوداء في عروقه حتى تمكن من الوقوف ليبدأ بالهرولة نحوها دون أن يملك القدرة على الركض.

وصل زين للسيارة، ومد يده ليمسك بيد ملاك، ليتراجع عزرائيل سريعاً قبل أن تتلامس يداهما، سحبها من السيارة بصعوبة وشدها لتركض بعيداً عن السيارة وهي تنزف من جرح في رأسها، لتسيل الدماء على طول وجهها حتى تتساقط من ذقنها، إنفجرت السيارة وهم على بعد عدة أمتار منها، رماهم الإنفجار على الأرض ليسقطا متجاورين وأجسادهم تئن من شدة الوجع، رغم إندفاع الأدرينالين الحاد في أجسادهم الذي كان يخفف عنهم الألم جداً.

نظر زين لملاك التي كانت عيناها مصوبتان للسماء وكأنها لا تصدق أنها قد نجت من الموت للتو...

- هل أنتِ بخير؟

أومأت ملاك برأسها أي نعم دون أن تنظر له، فأردف زين:

- أنا آسف.

نظرت له ملاك بإستغراب وهي تسأله:

- علامَ تعتذر؟!

- لقد وعدتك أنني لن أسمح بأن يمسك أذى، ولم أستطع الوفاء بوعدي.

إبتسمت رغم آلامها وهي تقول:

- لا تعتذر، لقد أنقذت حياتي مرتين في ساعة واحدة.

لم يرد زين وكأنه غير مقتنع بكلامها، ورفع رأسه لينظر للسماء متناسياً وجعه، كانت ملاك على قيد الحياة، هذا يكفي بالنسبة له.

إستدارت ملاك نحو زين لتتأمل عينيه مختلفتي اللون، وفي عقلها فكرة واحدة، فكرة ستغير حياتها للأبد، ولكنها كانت مستعدة لهذا التغيير، ترددت للغاية، لم تعرف إن كان هذا هو الوقت المناسب لمثل هذا الكلام، ولكنها لم تستطع تمالك نفسها، أخذت نفساً عميقاً ثم قالت:

- أتعرف شيئاً؟

إستدار نحوها متسائلاً، فيما أردفت هي متلعثمة:

- أنا أحبك!.

كانت أكثر عبارة يتمنى زين سماعها في تلك اللحظة، وآخر عبارة توقع أن يسمعها، لم يعرف ما يجب أن يفعل، إرتجف، وإرتبك بشدة..

نهض وكأن ألمه قد زال دفعة واحدة، ووقف ناظراً لها مصدوماً، كان في صراع داخلي شديد الضراوة، صراع داخلي طرفاه عدوانيان للغاية، ولا يقبلان بالخسارة، كان صراعاً بين قلبه وعقله، وكان هذا الصراع يهز بأكمله، وهو في الوسط ينتظر النهاية، في صراع بين عزرائيل وزين!

لم يكن يريد لها أن تقع في غرامه، لا يريدها أن تنخدع بعينيه الجميلتين، فهي لا تعرف أن هذه الألوان ستختفي تماماً ليحل مكانها اللون الأسود عندما يستلم الشيطان دفة القيادة في رأسه!

نهضت ملاك بصعوبة وهي لا تزال متفاجئة ومصدومة لأقصى حد من ردة فعل زين، سألته بإستغراب شديد:

- ما بك؟

سألها وهو يحاول تمالك نفسه:

- ما الذي قلتيه للتو؟

كان شكله مرعباً بالفعل!.

لم تتوقع أنها ستخاف من زين يوماً ما، خاصة بعدما فعله من أجلها للتو، الأمر الذي لم تفكر به مرتين، ووضعته تحت خانة الخوف على سلامتها، وبررت له ما فعله سريعاً دون تفكير، ولكن عينيه اللتين أخذتا تميلان للون الأحمر لم تتركا لها فرصة التفكير كثيراً، ردت بتردد بالغ:

- أنا، أحبك!.

أمسك برأسه والأصوات فيه تتعالى والصراع يزداد حدة وعنفاً ..

- ما الأمر؟

سألته مجدداً وقد بدأت تقلق عليه فعلاً، سألها بشك:

- أنت تحبينني؟

هزت رأسها بالإيجاب، فصاح بها بحدة:

- كيف؟

تراجعت بسرعة لنبرته المخيفة، فهدأ قليلاً عندما شعر أنه أخافها، وأنفاسه تتسارع بشدة، كان هناك صراخ وصياح في رأسه، وكان هذا السبب في جعله يرفع صوته، كان كمن يتحدث مرتدياً سماعات الأذنين، كان طرفا الصراع شرسين للغاية، أحدهما لا يريد ملاك، لأنه يعتبرها كنقطة ضعف شديدة الوضوح أمام أعدائه، خاصة أنهم قد أوشكوا على أن يتعرضوا للقتل على يد قاطعي الطريق هؤلاء، لذا فقد كان يريد منه تركها هنا حتى تأكلها الذئاب!

خاصة بعد وفاة أمه، وتأكيد حقيقة أن هناك من يريد الإنتقام من زين، ومن قام بقتل أم عدوه لن يتوانى عن قتل حبيبته بالتأكيد...

الطرف الآخر كان يعشق ملاك، بكل تفاصيها وحركاتها وسكناتها، ويريد منه أن ينقض عليها بالقبلات حتى يعوض عن الأيام التي غابت بها عنه في الشهور الأربعة الأخيرة، بل وعن كل أيام عمره التي لم تكن موجودة فيها بجواره لتُشعره أنه مختلف عن الباقين، وكان الصراع يمزقه من الداخل.

أخرج علبة سجائره بيد مرتجفة لتسقط العلبة منه مبعثرة السجائر على الأرض، إنحنى ملتقطاً إحداها وأشعلها بأصابع مرتجفة ليدخل أكبر قدر ممكن من النيكوتين إلى رئتيه كي يركز في ما سيفعله ويقوله تالياً.

سألها بصوت بث فيه عزرائيل بعضاً من بصمته:

- كيف يمكنك أن تحبي شخصاً مثلي؟

كان عقله الذي يتحدث، متمثلاً في عزرائيل، بعدما نجح في السيطرة على شفتيه لتخرج هذه الكلمات من بينها، ولا يزال قلبه الذي يلعب زين دوره بشكل شديد السوء يصارع للوصول لهذه السلطة والنفوذ، كي يعترف لها بما في داخله..

إنفصام شخصية حاد!.

لو رأى أي طبيب نفسي حالته الآن لشخصه بهذا المرض دون عناء، ولكن ملاك كانت الوحيدة القادرة على رؤيته في هذا الوضع المزري، وكانت قلقة عليه حقاً، إقتربت منه ببطء، وأمسكت به من كتفيه لتهدأ من رجفته قليلاً، ولم تكد تلمسه حتى تشجنت ملامحها بعنف، مع إختراق رصاصة لصدرها، وسقطت أرضاً على الفور!.

إستدار زين نحو مصدر الرصاصة ليجد أحد قاطعي الطريق ملقى على الأرض وفي يده مسدس، ثار عزرائيل في غضب، متناسياً كراهيته لملاك، وأخرج مسدسه وصوبه بإحكام نحو الرجل ليطلق رصاصة واحدة أصابت رأس الرجل وأسقطته جثة هامدة..

إبتعد عزرائيل وأسرع زين نحو ملاك ليمسك بها فيما كانت تنزف دمائها على الأرض، سالت دموعه دون أن يشعر وهو يراها بهذا الشكل..

وضع يده على الجرح ليشعر بدمائها الدافئة، كان في وضع مريع، عاجز كجثة فرعون والأمواج تتقاذفها، لقد إنتهى الأمر، وسيكون زين هو السبب في مقتل ملاك كما توقع عزرائيل.

لو رأيت المشهد من السماء، لرأيت جناحي ملاك وهما يحترقان ليرسما شكلهما على الأرض، فيما كانت الروح تتسلل منها ببطء!

لم يبدو أن ملاك تشعر بخطورة الوضع، أو أنها كانت مرتاحة لأن النهاية أصبحت قريبة، نظرت في عينيه وهي تقول بحنان ممزوج بالألم:

- انا أحبك يا زين.

أمسك بكتفيها بقوة وهو يسألها ناقلاً رجفته إليها دون قصد:

- كيف تُحبينني؟ لقد أوشكت على التسبب في مقتلك مرتين، وأخشى أنني قتلتك بالفعل في المرة الثالثة!.

- لا أهتم، لقد أنقذتني في المرتين، لقد حانت ساعتي ولا مهرب، أشعر أن الموت يناديني، وأنا مستعدة لتلبية ندائه.

صاح بها بعصبية:

- كلا، لن أسمح لكِ، لن تموتي يا ملاك، هل تفهمين؟

إبتلعت ريقها بصعوبة وهي تقول:

- تذكر فقط " أنني أحبك، أحبك بكل جوارحي " .

كان يرتجف بقوة، وقد برزت أوردته بشدة للخارج بتحفز شديد، كان يحاول منع نفسه من قول التالي وبأقصى جهده، ولكنه لم ينجح، وشكله وهو يحاول التحدث مخيف للغاية، وقد أخرج لسانه من فمه ليمنع نفسه من الكلام، يعض لسانه بقوة حتى يكاد يقطعه، ولكن هذه الكلمات كانت تخرج رغماً عنه..

لم يكن يريد أن يُحزنها في آخر لحظاتها، ولكن عزرائيل لم يكن يملك الشفقة الكافية، وكان يجبره على الإعتراف.

سألها في ودموعه تسيل على الأرض لتختلط بدمائها:

- كيف يحب ملاك شيطاناً؟!

همست بإنزعاج وقد بدا عليها التألم:

- أنا لست ملاكاً!.

قال زين بصوت متقطع مرعب:

- ولكن .....

تحولت عيناه للون الأسود في تلك اللحظة، تراجع البياض من عينيه ليحل مكانه لون حالك السواد، ناظراً في عيني ملاك التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، لمعت عيناه بحُمرة غريبة وهو يقول:

- ولكن أنا، أنا شيطان!

**" تم الجزء الأول بحمد الله "**

يليه قريباً الجزء الثاني

**" أرباب الشوارع "**

# عزرائيل المدينة

هو رسول الموت والدم، القادم من جهنم
يحل كل مشاكله بمسدس
لا مغفرة في قاموسه
لا يسامح ولا ينسى
لا تدع عينيه الجميلتين تخدعانك
فهذه الألوان ستختفي تماماً
ليحل محلها اللون الأسود
حين يستلم الشيطان دفة القيادة في رأسه!


رامي السلقيني

*كاتب سوري، من مواليد مدينة حمص
*طالب في كلية طب الأسنان في جامعة طنطا
*عزرائيل المدينة هي أول أعماله الأدبية



دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

تصميم الغلاف : محفوظ أحمد